تحت سماء كوبنهاغن
حوراء النداوي
رواية
دار الساقي

2010-03-10
www.aljsad.net

حوراء النداوي

تحت سماء كوبنهاغن

رواية

دار الساقي

www.aljsad.net

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

www.aljsad.net

تحت سماء كوبنهاغن

www.aljsad.net

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978 - 1 - 85516 - 550 - 2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ــ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

www.aljsad.net

إهداء

إلى أمي..

المرأة التي حين التحقت في الصف الأول الابتدائي في بغداد،

لم تكن قد نطقت بالعربية بعد..

هي نفسها المرأة التي عشقت تلك اللغة، و جاهدت تعليمي إياها فكانت مدرستي الوحيدة..

أمي، أخيراً أهدي إليك ما لن يعادل طلقة.

و إليه.. أبي..

بطلي الأوحد.. و استقامة ظهري.

www.aljsad.net

نَحنُ أَدرى وَ قَد سَأَلنا بِنَجدٍ
أَطَويلٌ طَريقُنا أَم يَطولُ
وَ كَثيرٌ مِنَ السُؤالِ اشتِياقٌ
وَ كَثيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعليلُ

الشاعر العراقي العظيم
أبو الطيّب أحمد بن الحسين المتنبّي

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(١)

حلّت الكتابة مع انجرافي في الثلاثينيات.

كانت كتابتي شبيهة بي وأنا أستحيل من فئة عمرية لأخرى.

هي أيضاً كانت على قدر من التباين وقفزتْ بسهولة من لغةٍ لأخرى، ومن لونٍ لآخر.

طيّعة، رغم عصيان الجُمَل أمام قريحتي.. وعصيّة، رغم تدربي على تطويع قلمي.

وحين كنت أعتقد بأني قد روّضت القلم إلى الحد الذي ينساب فيه دون تململ، كنت أُفاجأ بين حين وآخر بحقيقة أني لست بالكاتب الفعلي لما أسطّر، وتتلبسني حالة انتقالية تتناسب وصفتي كناقل، فأمعنُ فيها حتى أعود تدريجياً لحالة كاتب أرهقه خياله واحتشدت الصور والكلمات في رأسه، وهو حائر في كيفية تنظيمها وتشذيب تعرّجاتها، فألقى لذلك ببعضها على الورق، وعاد يحار في ترتيب البقية.

لستُ هذا!

www.aljsad.net

أنا الناقل عنها نصَّها.

تعوّدتُ معها قيود النصوص الجاهزة، ولعلّي عبر كتابتي هذه أنشد تجاوز عقدة النقل التي لازمتني طويلاً، لأنطلق إلى فضاء تصوغه حريتي لي.. في حقوق تكون جميعها محفوظة لي وحدي.

ثم إن طريقة النقل التي اختارتني لها لم تكن شغفي لأرتكبه حين فعلتُ، لكنها أرغمتني على اقترافها مُمليةً عليّ أنثويتها ونصها معاً.. وأنا رجل ابتعدت النساء عن عالمه في الصغر، «فتلكلك» بعدهن عني عقدة فضول في صدري، وصرت على خلاف طبيعة الرجل، أعشق تفاصيلهن.

تثيرني لمحات عالمهنّ المتورّد في ذهني، من أمشاطهن وقوارير عطورهن وحتى نبضاتهن المتوالية وارتعاشة شبقهن.

أنا الأخ الرابع بين ستة شبّان والأكثر استقامة تيمُّناً بتأريخ الأسرة المحافظ، كان من الصعب عليّ أن أشير بإصبع ذكورتي إلى مواطن ضعف فضولي أمامهن.

فكيف علِمَت هي عني ما خفي لتستغله، مشرعة الأبواب في وجهي، داعية إياي دعوة سافرة إليها هي التي تبوح لي دون أدنى قلق مني، أثار بوحها غرور رجولتي حتى نال غروري كفايته ثم فاض عني وبللّني. وفيما أنا أتململ من قشعريرة غروري ورطوبته الملتصقة بي، أجدني قد دفعت ثمناً باهظاً من وقتي، وأعصابي، ومشاعري.

www.aljsad.net

برسالتها الأولى التي حطت في بريدي الألكتروني، استباحت أيامي.

و لربما رعتني اليد الإلهية فألهمتني إهمالها. لكن ما لبثت نفسي الدنيوية أن استجابت لها في ما بعد، مغفلة العناية الفائقة التي أحاطني الرب بها، وساعية إلى مصيرها لملاقاته بمسؤولية غير مكتملة المعالم.. إذ لم تُسلّحني خبرتي العادية بعالمهن، بمسؤولية مُخمّرة كفاية أمام امرأة تباريني، ولا سيّما أنني لم أدرِ تماماً إن كانت تباريني عن قصد أم عن غير قصد.

غرابة رسالتها الأولى دفعتني إلى النفور، فكيف عدت لتقبلها والعمل على ما جاء فيها ؟

كيف وأنا أستغرب وجود رسالتها في بريدي الألكتروني من الأساس؟

أسلوبها الركيك المباشر لم يغوِني في البدء فكيف فعل في ما بعد؟

كلماتها الأولى، حيث استهلالها بمخاطبتي بالعزيز، ثم دعوتها لي لترجمة نص لها إلى العربية.

وأخيراً تذييلها رسالتها القصيرة تلك باسمها.. «هدى».

استغربتُ!

حقاً إن الترجمة كانت مهنة إضافية في وقت مضى ولكنها ليست كذلك حالياً. ثم إن هدى هذه ذكرت أن الذي تطلب مني ترجمته يُعدّ نصّاً، وأنا لم أترجم نصوصاً من قبل.. كل ما هنالك أني كنت أتلقى اتصالات في أوقات فراغي عادة، لأهرع

www.aljsad.net

إلى مستشفى، أو عيادة أو مدرسة، بحسب الطلب، لأترجم لعرب لا يجيدون اللغة الدنماركية ما يستعصي فهمه.

ألهمني حدسي أن من الأفضل لي إهمال الرسالة، لكن فضولي القديم حرّكني تلقائياً فكتبت بالطريقة التي تقتضيها أصول الرسائل الدنماركية:

عزيزتي هدى.

أولاً أنتِ لم تُعرِّفيني بنفسك.

ثانياً رسالتك قصيرة جداً لم أفهم منها مطلبك تماماً.

ثالثاً أنا لم أعد أمتهن الترجمة منذ زمن، ولعل رسالتك لم تكن موجّهة إليّ من الأساس، فياحبّذا لو تأكدتِ من المرسَل إليه.

على العموم إن كان ما تطلبين في نطاق قدرتي، فإني أعدك بأني سأفعل ما بوسعي لمساعدتك

رافد

لم تردّ على رسالتي. لكني بعد ذلك بيومين وجدتها قد أضافتني إلى قائمة «الماسنجر».

قبلتها، لأجد مباشرة تلك الأيقونة الخضراء تشتعل قرب اسمها، فبادرتها:

ـ مرحباً.

كأنها سهمت قبل أن ترد:

www.aljsad.net

ـ مرحباً.. أنت موجود.. هذا رائع.

وترددتُ قبل أن أكتب:

ـ لم تردّي على رسالتي. كنتُ سألتُ إن كنتِ متأكدة من أن المقصود بالرسالة هو أنا؟

ولا أدري لِمَ كان يخيّل إليّ أنها تسهم شيئاً ما في كل مرة قبل أن تجيب:

ـ لا أعتقد بأن الرسائل الالكترونية معرضة لأن تظل عبر أثير الإنترنت، هكذا بسهولة.. أليس كذلك..؟

ـ حقاً.

ثم أكملتُ بسرعة قبل أن تبادرني بكلام:

ـ لكنني لم أعد مترجماً منذ زمن.

ـ أعرف.

ـ تعرفين؟!

ـ نعم.. أعرفك جيداً.

ـ وأنا؟

ثم ألحقتُ ذلك بسرعة:

ـ هل أعرفكِ؟

ـ ربما.

ـ التقينا من قبل؟

ـ نعم.. لووووول.

www.aljsad.net

ثم كتبَتْ:

ـ لا أظنك تذكر.

ـ أخبريني.

سهمة أخرى.. وأنا صابر:

ـ لقد حدث أن التقينا.

ـ ذكّريني.

ـ يا لك من كسول.

ـ ماذا ؟!!

ـ أخبريني.. ذكريني.. لووول.

أكمَلتْ:

ـ لعلّ من الأفضل أن تجهد ذاكرتك قليلاً لتتذكر، بدلاً من الاعتماد عليّ.

كانت تخاطبني بتلقائية لم أستوعبها، لاسيّما وهي تصدر عن امرأة لا أذكر نهائياً أني رأيتها من قبل.

كتبتُ وأنا أجاهد التشبث بالصبر:

ـ إغفري كسلي وساعديني!

ـ همممم! التقينا.. تصافحنا.. ومضينا.

ـ هكذا؟!

ـ نعم.

ـ بهذه البساطة؟

www.aljsad.net

ـ أقسمُ لك.

ـ لا بدّ أني كنتُ سأذكر امرأة ألتقيها ثم أصافحها فقط لأمضي.

وأكملتُ:

ـ غير أني لا أفعل.

ردّت بسرعة:

ـ حدث ذلك عفواً، دون أن يلفت انتباهك، لذلك لا أظنك تذكر.

ـ أها.. ربما فعلتُ إن حاولتِ معي.

ـ لعلّك كنتَ مشغولاً في أمرٍ أهمّ.

كتبَتْ هذا وذيّلته بأيقونة تغمز لي بشقاوة.

اغتظتُ.. ولم ألحّ أكثر من ذلك.

ـ حسناً.

سكتت طويلاً هذه المرة.. فعدتُ أبادرها:

ـ إذاً.. ما هو المطلوب مني؟

ـ أن تترجم لي روايتي، من الدنماركية إلى العربية.

ارتفع حاجباي حتى التصقا بغرّتي!

لم أكن قطّ أنتظر أن يكون ما تطلب مني ترجمته يُعدّ رواية.. لم أتوقع أكثر من نص رسالة أو ما شابه، لا يزيد عن ورقتين أو ثلاث. أما أن تطلب مني ترجمة رواية كاملة.

www.aljsad.net

ـ ماذا؟!

هذه المرة أجبرتني على استخدام أيقونة فاغرة فاها دهشةً.. أنا الذي نادراً ما استخدمتُ الأيقونات.

أرسلتها إليها وأنا أبتسم وعلى وشك أن أضحك:

ـ يبدو أنكِ أسأتِ فهم مهنتي السابقة، فأنا كنت مترجماً بالطلب، وليس مترجم روايات.

ردّت بسرعة:

ـ ما رأيك أنني لم يقع اختياري عليك بسبب مهنتك السابقة أصلاً.

سهمَتْ مرة أخرى ثم أكملتْ:

ـ أرجوك.. على الأقل اقرأ الفصل الأول.. سأرسله إليك حالاً، ثم أعطني رأيك.

كنت ما أزال مطموراً تحت دهشتي، ولعلّي خجلت من أن أخيّب ظنّها سريعاً:

ـ لنرَ.. لكنني لا أعد شيئاً.

وصلتني رسالة منها في الحال.

ـ هل وصلت الرسالة؟

ـ نعم.

ـ إذن عليّ أن أذهب.. أراك لاحقاً.

ومثلما انبثقتْ، اختفتْ بسرعة.

www.aljsad.net

جرحتني حدّة أسلوبها المباشر، ونبشتُ ذاكرتي أبحث فيها عن هدى. أي هدى.

واكتشفت أن فتاة اسمها هدى لم تمر في حياتي قط.

دون أن أفكر كثيراً، اخترت ألا أغير ما أسمته «فصلها الأول» التفاتاً. لم أقرأه، متجاهلاً عبث الفتاة الذي بدا واضحاً لي. إلا أني مضيت نحو قدري بعد أقل من أسبوع، حين فتحت بريدي الألكتروني فطالعني اسمها متربّعاً على قائمة بريدي الطويلة. وضعت شارة عليه لمسحه، وقبل أن أفعل انتفض فضولي المكرّس نسائياً ليمنعني، فقررت إرضاءً له أن أقرأ ما أرفقتْ، ثم بعد ذاك أقوم بمسح رسالتها.

حين أنهيتُ القراءة، انقلبت بعض موازيني وليس كلها.

بحثت عنها في قائمة الماسنجر لأجد ذلك اللون الرمادي الشاحب يلازم اسمها. لم أستطع صبراً وفتحت صفحة كتابة رسالة على بريدي:

آسف لتأخري.

أصدقكِ القول أني لم أكن أنوي الرد، معتقداً بأن ما تبغيه لا بد أنه مجرّد لهو فارغ، إلى درجة لم أتكلف فيها قراءة ما أرفقتِ. لم أفعل ذلك إلا اليوم وشدّني ما كتبتِ حتى أشفقت من العبث به.. إذ إني لست مترجم روايات كما أخبرتك، ولغتي العربية عادية كأي رجل عربي يقرأ ويكتب العربية لكنه لا يجيد صياغتها بالشكل الذي يجعلها تغري أي قارىء.

www.aljsad.net

ثم إني ـ بصراحة ـ لا أملك الوقت أو الجهد لأبذلهما في ما طلبتِ.

مع هذا، فإني على استعدادٍ لمساعدتك على إيجاد من هو جدير بترجمة روايتك.

رافد.

ردّت:

عزيزي رافد

كان يمكنك أن تبادرني بسؤالك عن مدى عبثي ـ إن وجد ـ لأني كنت بالتأكيد سأقنعك بجدّيتي عوضًا عنه، ثم لا داعي لمساعدتي على إيجاد مترجم، فأنا أعرف أين أجده.

إني اخترتك أنت لترجمتها.

على الأقل أنا مؤمنة تماماً بسلامة لغتك العربية. لا أدّعي أني أعرف عنك الكثير، لكني أعرف من ضمن ما أعرف أن لغتك العربية لا بأس بها إطلاقاً. ثم إني لا أطلب أكثر من ترجمة دون التطلع إلى صِيَغ أدبية فائقة، ويكفيني أني أثق بقدرتك، فأرجوك لا تخيّب ظني.

هدى.

ملاحظة:

لستُ على عجلة من أمري، فاكتبْ متى رغبت، وأمسك عن الكتابة متى شئت.

www.aljsad.net

ودار رأسي.

لا ريب أن الفتاة نجحت بالفعل في إثارة فضولي إلى درجة قررتُ فيها أن أترجم لها ما أرادت، إذ كان مكسبي في النهاية معرفة هويتها وغايتها الحقيقية.

قبِلتُ، دون أن أنتبه في البداية إلى كون اسمها واسم الشخصية متطابقين. وبعد أن ترجمتُ أكثر من نصف فصلها الأول كتبتُ لها بتحفّظ أسألها عن ذلك.. فردت ببساطة: لأنها أنا.

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(٢)

هذه أنا . . هدى محمد الـ.

هل يهمّ كثيراً معرفة لقبي؟

قد يتوق البعض منكم لمعرفته حقاً، كي يعرفوا أي أسرة تلك التي تنطلق إحدى فتياتها متحدثة عن نفسها، ذاكرة اسمها الحقيقي بثقة هي أقرب منها إلى الوقاحة.

لا يهمّ اسمي أنا بالطبع، ولا اسم أبي، ولا حتى جدّي، فكلّها أسماء عادية. . فهناك ألف هدى محمد في العراق وألف في سوريا والمزيد في المغرب ومليون في مصر. . . إلخ.

أسماء متكررة ستمر دون أن تستقر في الذاكرة، ليس لها سحر أو جاذبية تذكر!

الجاذبية كلها تكمن في اسم أسرتي.

وأنا كنت قد تعلّمت أن أسماء الأسر تعني في الشرق الكثير، دون أن يكون مهمّاً ما إذا كانت أسرة معروفة ذات نسب عريق أو أسرة كبيرة، من تلك التي تنثر أبناءها في أنحاء متفرقة من الوطن

www.aljsad.net

العربي، أو حتى أسرة صغيرة مغمورة. على أي حال، لا أكاد أظنه من المستساغ أن تُنبِتَ هذه الأُسر بنات يتمتعن بصراحة فريدة. صراحة ذكر اسم حقيقي وسرد قصة!

لكني لن أذكر اسم أسرتي.. ليس لخوفي من الألسنة التي قد تنالني تارة مستهجنة وتارة ساخرة، ولكن احتراماً للأسرة التي لم أنل منها شيئاً سوى ذلك الاسم.

إن انتمائي إليكم لا يعدو الاسم والنسب. أما الشخصية والفكر والثقافة التي أحملها فتُعدّ أشياء ذائبة في أخرى غريبة عنها لتصبني في النهاية شيئاً مشوّهاً غير خالص. أنا شخصياً لا أعرف السبب خلف كل هذا، هل السبب تربيتي المضطربة، أم شخصيتي المرتبكة، أم نشأتي المختلفة؟

لا أدري!. وقد يكون سردي لقصتي الآن ما هو إلا طريقة جديدة أبحث فيها عن ذاتي.

ثم ... مَن أنتم؟

مَن الذين أخاطب؟

ببساطة.. أنتم كل مَن هم ليسوا مثلي. أما مَن هم مثلي فإني متأكدة من أنهم يسردون قصصهم من خلالي. وقد لا تعرفون الآن ما هو مدى أن تكونوا مثلي، لكني أعد بأنكم ستفعلون.

ولدتُ هنا في كوبنهاغن ـ الدنمارك، من أبوين عربيين

www.aljsad.net

عراقيين، هاجرا إليها من العراق بسبب ظروف أخبراني أنها كانت صعبة. . ظروف لم أهتم كثيراً بمعرفتها وإن كان أغلبها قد حُشر في رأسي عنوة من كثرة الحديث عنها حتى ليخيّل إليّ أحياناً أني عاصرتها.

في كوبنهاغن كان مولدي.

هل تعرفون كوبنهاغن؟

مدينة الشباب والجنون كما يسمّونها!!

لا أفهم سرَّ عدم اهتمامكم بهذه المدينة من قبل؟! وقد لا تهتمون بأمرها من بعد؟! فلم يحدث أن سحركم اسمها، على ما أظن، ولا أعتقد بأنها قد خطرت في خيالكم يوماً ما، مثل غيرها من المدن الشهيرة. في الواقع أني كنت دائماً أُعجب للمعلومات الضئيلة لدى العرب عن الدنمارك، إذ يختزلون أوروبا بلندن وباريس ويتجاهلون بقيتها. كأن أوروبا كلها هي لندن وباريس، فيما يُنظر إلى بقية دول أوروبا بقلة اهتمام بالغة الإهانة. حتى ملكة الدنمارك وأمراؤها لا يعرفهم الكثيرون، بل ولا يهتم بأمرهم أحد كما يهتمون بغراميات الأمير تشارلز، وأناقة الليدي دايانا، وإشاعات الشذوذ التي تلاحق الأمير ألبير. أستغرب تهافت الإعلام العربي على أخبار هؤلاء، بينما لا تحظى الأسرة المالكة في الدنمارك بنصيب من ذلك. . فلا يسمع العرب عن غراميات الأمير فريدريك، وأناقة الأميرة الكساندرا، وإشاعات شذوذ الأمير يواكيم.

ماذا يعلم العرب عن الدنمارك سوى أنها تقدّم لهم منتجات

www.aljsad.net

الألبان ودعاية زبدة «لورباك»، حيث يتحلّق رجال بِسُتر حمراء ووجوه أشدّ احمراراً حول بقرة يدلّلونها دلالاً بشرياً لتقدّم لهم «زبدة الرفاهية من الدنمارك»!!

ذلك الإعلان! كنت أحس بالفرح حين يصدف أن أشاهده، وأنا أغالبُ الملل الذي يصيبني من الفضائيات العربية التي يصرّ «عماد» على متابعتها حين يزورنا، وأبتسم بسعادة، لكأنه لا يعلن عن زبدة فحسب، ويبدو لي وكأنه يعلن عني. . عن وجودي في هذا البلد.

كأنني مكان تلك البقرة. تارة يؤرجحونني وتارة يطوّحون بي في الهواء وتارة يحلبونني. هكذا يُعلن عني. . هدى محمد عراقية من الدنمارك، أو دنماركية من العراق. . لا أعلم الترتيب الصحيح حقاً.

أستغرب نأيكم ومجافاتكم!

فلا فنكم، ولا إذاعاتكم، أو فضائياتكم الغزيرة، قد أنصفت وجودنا هنا، نحن النازحين إلى الشمال الأوروبي، حيث سقطنا جميعاً على ثقل ألوانه الرمادية حتى استشاطت.

هل تخيّلتم من قبل عدد أبناء جلدتكم هنا؟

هل أثارت اهتمامكم الأسباب التي حدت بنا على المجيء إلى هنا؟

لكم أشعرُ بالغبن لنأيكم.

وهل تراه إحساسي بالغبن كان ليترعرع فيّ لو أنني كنت

www.aljsad.net

أعيش في أمريكا أو بريطانيا أو غيرهما من الدول «الأكثر أهمية»؟ تلك التي تهمّكم كثيراً.

لا أدري.

لكنني أدري تماماً أنني أسكن في هذا البلد المختبئ عن العالم في شمال أوروبا وأني أنا أيضاً أختبئ معه وفيه عن أصولي، حتى بات مجرّد إعلان عن منتج منه يسعدني، كأنه إثبات لكينونتي.

* * *

فتحت عينيّ وأنا وسط دنماركيين، حيث كنت أقضي معظم وقتي في الروضة. ولا أذكر كيف وعى عقلي حينها اختلاف اللغتين اللتين باغتتا لساني فنطق بهما.

أعترف بأن الغلبة كانت للغة الدنماركية، تلك التي أحاطتني بعناية لغوية فائقة وهدهدتني على وقع مفرداتها التي لم تتخلَّ عني مطلقاً، كانت وستظل عوني على تحجّر لفظي إذا ما نشف تعبيري فوق شفتي، إلا أنني رغم هذا لم أقنع يوماً بفكرة اللغة الأم.. وعلى عكس كل اللغات التي تفرض فوقيتها وسلطتها الأبوية كانت لغتاي يتيمتين، وأنا التي تبنّيتهما، فكانتا طيعتين والتقمتا ثدي لفظي بعفوية رضيع. رغم ذلك، كانت إطلالة لغتي العربية ضيّقة على حياتي.. في صغري كنت ألتقطها استماعاً فقط وأردّ عليها بالدنماركية، ولا أذكر مرة نهرتني فيها أمي لعدم تحدثي بالعربية. وعلى عكس ذلك كان والداي يبدوان سعيدين بحقيقة كوني أتكلم الدنماركية بطلاقة والعربية بركاكة.

www.aljsad.net

وأذكر أني كنت في الخامسة حين جاء خالي القاطن في ألمانيا لزيارتنا. . حملني بين يديه وأخذ يقذف بي في الهواء ثم يستلمني، ويعود يقذف بي في الهواء وسيل من الألفاظ السريعة المفخمة تنساب من بين شفتيه لم أفهم منها الكثير. . أحسست لحظتها بضيق، وحين تضيق الطفولة تبكي احتجاجاً، على الرغم من أني لم أفهم ما إذا كان بكائي بسبب قذفاته الهوائية، أم كلامه غير المفهوم بالنسبة إليّ. . في حين أطلق هو ضحكة خبيثة معتقداً أني بكيت خوفاً، فسارع أبي يصحح أن السبب هو عدم فهمي للعربية. قال ذلك ورنّة فخر عجيبة تعزف مع صوته.

أدركت قول أبي حينها. . لكني لم أفهم الرنّة.

ثم بدأت اللغة العربية تطاردني، تلاحقني بمفرداتها، ولم أكن أجاهد تعلّمها. . ولم أكن أنفر منها. كل ما في الأمر أنها انسابت معي في حياتي وبدأت تتطور شيئاً فشيئاً كما تتطور أعضاء جسدي فتكبر، وكبرت هي أيضاً معي، إلى الدرجة التي تجعلني أفهم محدّثي وأُفهِمه، فإذا ما أردت الاندفاع في مناقشة أو حديث يتطلب مني كلاماً مؤثراً، اخترت عن غير قصد الحديث بالدنماركية.

ولم تكن اللغة الإضافية التي نستخدمها في البيت هي الاختلاف الوحيد الذي وعيته في سن السادسة. . فشكلي كان بحد ذاته ثورة على الاندماج، بشعري الأسود الفاحم وعينيّ

www.aljsad.net

السوداوين اللتين تتوسطان انبساط سمرتي. مع ذلك لم يسبب اختلافي أي نوع من المضايقة أو الحساسية.. بيني وبين نفسي كنت أعيه لكني لم أكن أفكر فيه حد استشعاره، أو معرفة ماهيته، حتى أن غالبية أصدقاء الطفولة كانوا من الدنماركيين.

وأهمّهم على الإطلاق كان كلاوس..

ذلك الطفل الجميل ذو الشعر الأشقر المنكوش، كأنه شغب الشمس، شكل كلاوس بالذات يصعب نسيانه.. بخصلات شعره الشقراء الطويلة التي تثور فوق رأسه، وأطراف غرّته التي تصل حتى أعلى عينيه بقليل، وبوجهه الذي ينتشر النمش فيه كله حتى يصل إلى أذنيه، وبعينيه الخضراوين، وأنفه الصغير ذي الطرف المرفوع قليلاً كعادة أنوف الدنماركيين.. كيف لي أن أنسى شكله ذاك.

ولن أنسى بالطبع صفة كلاوس الأهم. قذارته، ثيابه قذرة وغير متناسقة، أنفه قذر، يداه قذرتان، ألفاظه قذرة، ورغم كل القذارة التي كان عليها، كان كلاوس بهجة طفولتي المبكرة.

ومع حبي لملازمته لم أكن أفهمه، فهو لم يبد اهتماماً مماثلاً لاهتمامي، بل كان غالباً ما يلاقيني بجفاء مستترٍ أو معلن، على حسب المعاملة التي يختار أن يعاملني بها. والغريب أنه لم يُثِر في ذهني مطلقاً أي إحساس بالذل وهو يقابل انكبابي عليه بترفع ولا مبالاة. وأستغرب الآن الشرارة التي دفعتني إلى البكاء، وهو يردد ببساطة مفرطة ذلك اليوم:

ـ جدتي تقول.. عندما تكبر لا تتزوج من السوداوات.

www.aljsad.net

إذ لم يحدث أن ركّزت في الفروق التي تشطرنا بعضنا عن بعض، ولم يجمح خيالي الفتيّ إلى الزواج مطلقاً، فكيف حدث أن أدركت إقصاءه لي عن عالمه دون جهد بالغ لفهمه؟

كنا نلعب جميعنا. وبدأنا بتقسيم أنفسنا إثر اقتراح للعبة تتكون من فِرق. وما زلت أذكر صخب الصغار وهم يقسمون أنفسهم، فيما أقفز أنا إلى كلاوس أزيح الناعم الأسود عن عينيّ وأمسك يده بحركة عفوية ثم أقول بصوت عال ليسمع الجميع:

ـ أنا وكلاوس معاً.

فيسحب كلاوس يده بحركة عنيفة:

ـ لا . . أنا لا أريد أن أكون معك.

تتجمع دموع في أنفي للتواً:

ـ لماذا ؟

يرد ببساطة:

ـ جدتي تقول عندما تكبر لا تتزوج من السوداوات.

فأقول وقد انتقلت الدموع إلى عينيّ:

ـ لكننا لن نتزوج. . وأنا لست سوداء.

يجيب وهو يلعق بلسانه القذارة التي تسيل من أنفه:

ـ أنتِ بشعر أسود. . إذن أنت سوداء.

وينطلق من أمامي ليختار طفلة شعرها لم يكن بالتأكيد يماثل سواد شعري في لونه، فيما أجاهد أنا لحبس دموعي ولا أقدر.

لم أعتد من نفسي ذاكرة قوية، تلك التي تسترجع بسهولة

www.aljsad.net

تفاصيل صغيرة. لكن أن تكون التفصيلة الصغيرة هي إقصائي فذلك ما لم أتمكن من نسيانه بسهولة.

* * *

لست متأكدة إن كان والداي يُطلقان علينا الأسماء بحسب تقلّب مزاجهما، أم أنهما كانا عشوائيين بما يتناسب وجيلهما السبعينياتي، ففضّلا تشتيت أسمائنا، دون أن يتكلفا جعلها سلسلة بوهيمية يتقلدانها!

هل كان واقعهما مفتقراً إلى الصلابة فتعلقا باسم «عماد»؟ كان أكثر شفافية لربما، فمالا نحو «نخيل». . ؟

أم أنهما كانا خائفين حقاً من التوغل في متاهة الغربة فاختارا «هدى»؟

في أول مرة تسمعُ فيها «زينة» باسم نخيل، أطلقتْ ضحكة عالية. وضعتْ يدها على صدرها تلتقط أنفاسها، لتتسع عيناها بحركة درامية وهي تردد:

ـ نخيل. . !! كيف يسمّي أحدهم ابنته نخيلاً؟

لم أرتح لسخريتها حينها، لكني لم أكابد أنا أيضاً عناء إخبارها أن أبي يحترم في أبوته اختياره اسم نخيل. فلعله كان من الاختيارات القليلة التي تكلّفها أبي في حياته الزوجية.

إلا أني في الواقع لا أخفي أن تنوّع أسمائنا مثير بحق.

عجيبة هي أسماؤنا، إذ لا تنبئ بتوجه ما. . فلا هي إسلامية لتبرهن على عمق تديّننا، ولا هي عربية قومية، تفضح تعنصراً

www.aljsad.net

غير معلن منّا، ولا هي أجنبية دخيلة، نفرضها على مجتمعنا إمعاناً منّا في حداثةٍ مُمسرحة.

في معظم الأسر العراقية تترابط أسماء الأولاد مشكّلة في النهاية جملة توحي بنهج الأسرة. محزن إذن أن نكون نحن الثلاثة جملة غير مفيدة.

نخيل، بعربدتها وقلبها الطيب، أُحب فيها كونها أمي التي لا تملي عليّ أوامر.. صمت حنانها يناسبني، وأنا التي تكسل عن الرد على الكلام بكلام.

السنوات السبع التي تكبرني بها نخيل لم توظف لكلينا أكثر من هذا الحنان، فشكرناه نحن الاثنتين ولم نعمد لافتعال ما هو أكثر ولم نبالغ في أخوّتنا كما تفعل غيرنا من الأخوات.

لكن يبقى عماد، أخي الذي فاجأني بأخوّته لي.

في رحلتي المصيرية التي طرت بها إلى دمشق، لم يكن عماد بطبيعة الحال معي، ولم أكن حينها قد قدّرت مساحات وجوده. ترك اختباؤه عن حياتي فراغاً مطمئناً، وعربدتُ تأملاتي فيه بحرية.

رحلتنا إلى دمشق قرّرتها أمي لي ولنخيل من أجل الالتقاء بجذورنا. ثرثرت أمي حول أهمية ذلك لأسابيع حتى اختارت في النهاية دمشق لقربها من العراق المحرّم علينا إلى أجلٍ غير مسمى.

www.aljsad.net

كنت أسمعها وأنا جالسة إلى جانبها في الطائرة تردد بين حين وآخر:

ـ نحن نقترب من العراق أكثر.. ومن عماد.

وتغور دمعة في قلبها، فأدّعي أنا النوم أمامها،

واللا مبالاة أمام نفسي.

هبطنا.. فنفذت رائحة المدينة إلى أنفي.

كانت تلك أول مرة أرى فيها الشرق، فتلقّمته بانبهار.

شعرت منذ البداية أن يوم وصولي إلى دمشق هو يوم فاصل بين حياتين، حياتي في الدنمارك وحياتي القصيرة جداً في سوريا.. في الشرق.

أذهلني اختلاف كل شيء عما أعهده. وأذهلني أني أنا نفسي اختلفت عني هناك.

ما الذي كانت ترشه دمشق في وجوه زوارها؟ ذرّات غبارها انتشيتُ لها فعطس قلبي بتتالٍ منعش، ووقعُ اسمها رطّب أذنيّ «بشينه» و«داله»، وكلاهما غارقان في بلل ديمتها.

فوجئت لاختلاف لفظه عن الدنماركية. جرّبتُ اللفظين فيما كان أبي يساعد سائق التاكسي على وضع حقائبنا في السيارة، وطفقتُ ألعب باللفظين وأنا أرقب فجرها الذي اقتحمناه.

حين وضعت رأسي في حِجر أمي حالما استقررتُ في سيارة الأجرة، كنت قد فضّلت العربي بفارق كبير عن الآخر.

غفوت على رائحة المدينة الهادئة فجراً تنفذ إلى أنفي.

www.aljsad.net

كوبنهاغن رائحتها طفيفة، لا تنخر الأنف مثلما تفعل روائح المدن الشرقية. . وأنا اكتشفت في طفولتي الدمشقية رغبة عارمة في استنشاق روائح متفرعنة.

أيقظتني أمي حين وصلنا إلى الفندق فبادرتها وأنا أغالب تعب السفر والنعاس:

ـ أما زلنا هنا؟!

ـ لقد وصلنا إلى الفندق. . انهضي.

لم تعي سؤالي. لكن المكان أجابني إننا ما زلنا، فاطمأنت روحي واتكأتُ على قلبي.

ثم بدأت رحلتي تلك التي استمرت قرابة شهرين. ذهلتُ حقاً كم أنني اختلفت عني أثناءها. وما زلت حين أستذكر بعض الصور التي تقبع في زاوية صغيرة مهملة من ذاكرتي عن دمشق أشعر أنّ التي في مخيلتي ليست أنا، وإنما هي طفلة أخرى لم تكن في يوم من الأيام أنا. وأعجب الآن كيف أمكن أن يكون لي صلة بهذه الطفلة، صلة قرابة قوية، قوية جداً، إلى الدرجة التي تكون فيها. . أنا!!

ماذا أذكر عن سوريا؟

لعلّي لا أذكر الكثير. ولعلّ الذي جعل ذلك القليل يقبع في ذاكرتي كل هذي السنين هو انتقالي غير الممهَّد له من أجواء الدنمارك إلى مدينة لقّنتني شرقيّتها. . ذلك التغيير المفاجىء في

www.aljsad.net

البيئة والناس أجبر ذاكرتي على التشبث بقليل ذكريات سوريا رافضة التخلي عنها.

ثم إن التقائي بجذوري الشرقية لأول مرة جعل ذاكرتي تميّز تلك الأيام عن غيرها. لم يكن إحساسي إحساس سائحة. ولم يكن لدي فضول المشاهدة إذ لم أكن أشعر بغربة.

كنت أشعر بأني ألتقي . . فقط ألتقي.

وجوه الناس المتعبة لم تبدُ غريبة عني. والأماكن كنت أكاد أعرفها لدرجة خُيّل إليّ فيها أني لو تهت من بين أيدي والديّ لعدت إليهما.

غير أن الذي أثار غريزة التقائي حتى أقصاها كان الكلام.

في البدء اعتقدت بأنّ لهجتهم لغة بحد ذاتها، فلم أعر فهمها اهتماماً. ثم لفتت انتباهي بضع كلمات فهمتها حين تحدث أحدهم ببطء جعل ما يقوله مفهوماً، فهتفتُ بأبي وأنا أشير إلى الرجل:

ـ بابا . . هذا يتكلم عراقي.

ضحك أبي ضحكة صغيرة. . تلك المنطلقة من صدر تحشرجه سجائره:

ـ ما يزال الرجل يتحدث بلهجته السورية.

ثم أردف حين وجدني حائرة في قوله:

ـ العرب يتحدثون لغة واحدة، لكن بلهجات مختلفة.

ـ كيف؟

www.aljsad.net

وضّح بمهارة:

ـ إنه كالفرق بين الدنماركية والسويدية أو النرويجية.

بعدها، رحتُ أمشي في شوارع دمشق ويدي معلقة في كفّ أبي أنظر إلى أفواه الناس مسمِّرة عينيّ على كل من أمرّ به في الطريق يتحدث، مندهشة كيف أن الكلام ينساب من بين شفاههم غليظاً سلساً.. وغابطة أقراني من الأطفال لإجادتهم لها. مضمرة في صدري أمنية خجلة بالتحدث مثلهم في يوم ما.إنهم يبدون كباراً وهم يفتعلون ألفاظهم الضخمة تلك، وأنا أريد أن أبدو مثلهم.. كبيرة.

رحلتي تلك نقلتني من حياة إلى أخرى، وأرّخت طفولتي رتيبة الإيقاع بما قبل ودمشق وما بعدها.

أحياناً يُخيّل إليّ أنها كانت السبب في جعل شخصيتي على ما هي عليه الآن. لقد أثّرت فيّ تأثيراً امتصّته شخصيتي الطفلة بسهولة وسرعة، ولولاها لما كنت عرفت كيف يبدو أصلي خالصاً. ولولاها كنت تركت نفسي لحياتي المهجّنة، تلك المزدوجة التي أراها على مُحيّا أقراني من المهاجرين الذين تربّوا هنا فتمايعت شخصياتهم في فوضى مرتّبة.

حين عدت إلى كوبنهاغن، أحسست أني تركت نفسي في سوريا.

نسيتها في أحد شوارع دمشق العتيقة.. فعتقت هي مع الزمن

www.aljsad.net

حتى استحالت وذرّات الغبار في دمشق. أما أنا فواحدة أخرى لا تمتّ بصلة إلى تلك!

منذ ذلك اليوم، بل وفي تلك السنّ الصغيرة، عرفت أنني أستقبل حياة جديدة.

لقد تعمّدت بغباء تناسي سوريا والفترة القصيرة في دمشق ما إن وطئت قدماي أرض كوبنهاغن.

إلا أن إحساساً كان يباغتني بين حين وآخر، كأني ما زلت أحمل في داخلي تلك الأخرى التي تخيّلتُ تركها هناك.. نفس أخرى تأكل، وتشرب، وتحس، وتنمو معي.

حاولت أن أتناسى دمشق.. لكن كلما كنت أظنني أفعل تشبثّت هي بذاكرتي أكثر.

كانت دائماً فيّ.

أشمّ رائحتها في بخور أمّي العربي.. ثم أراها في أحد شوارع كوبنهاغن فأشعر فجأة بأن هذا الشارع يشبه شارعاً ما هناك، غير متأكدة أهي ذاكرتي أم مخيّلتي التي ربطت بين الشارعين.. وعبق شرقي فائض يملأني، كأن الشرق كله صار في صدري، فتستيقظ تلك الموؤدة في داخلي.. وتتململ.

وأشعر بتململُها الذي يتطور إلى استفاقة كاملة، وأجدني أبتسم لها وأنا أراها في لمحة خاطفة وهي تنفلت من بين يدي أبيها لتجري إلى «محل البوظة» في سوق الحميدية.. أو أراها وهي تركض خلف الطيور التي تحط في فناء الجامع الأموي فتطير تلك الطيور هرباً من وقع قدميها.

www.aljsad.net

وعبق تلك الذكريات القليلة الباهتة يعود يملأني، فأحبس أنفاسي كي لا ينفلت ذلك العبق من صدري. . ذلك السحر، سحر الشرق، كأنني في ألف ليلة وليلة.

كان هذا ما تركته فيّ رحلتي الأولى إلى بلدٍ عربي. طفلة صغيرة، لا أكاد أصدق أنها كانت أنا. . ورائحة الشرق.

* * *

لعلّ حياتي تُعدّ بسيطةً وطبيعية من وجهة نظر المهاجرين من أمثالي. . ومعقدة غير سويّة في عيون المستقرين في أوطانهم.

لطالما تساءلتُ، ترى ما الذي يجعل من حياة أحدهم مدعاة للكتابة ومن ثم القراءة؟

يراودني إحساس بالخوف وأنا أكتب. أخاف أن تملّوا حياتي كما مللتها كثيراً. ويمكنني أن أعد بعدم ترك الصفحات خالية كرمز لرتابة وتكرار سنوات عشتها، تشابهت فيها الساعات بشكل أهان وجودي. . يمكنني أن أعِد بالقفز على سنوات الرتابة، ومثل الأفلام السينمائية أفاجئكم بين لقطة وأخرى بالوثوب فوق عشرين سنة دفعة واحدة. . ولأنني لم أعش حتى الآن أكثر من العشرين بقليل فاسمحوا لي أن أكتفي بالأحداث تُنبئكم عن سنواتي. وهذا أسلوب اتبعته مع نفسي دائماً، حيث تعودت أن أُؤَرّخ أيامي بالأحداث الكبيرة التي تطرأ عليها.

كحدثِ مقدم عماد مثلاً.

وعماد هو أخي الذي يكبرني بسنوات عشر، كانت كافية لتبني حاجزاً بيني وبينه، بالإضافة إلى حاجز البعد.

www.aljsad.net

أذكر تماماً كيف أنه قبل قدومه كان يحتل جزءاً كبيراً من أيامي. لم أكن قد التقيته مطلقاً حينها، إلا أن هلامية بعده والغصة التي كانت تتكرمش بسببها ملامح أمي وينحني لها عود والدي خلقتْ ارتباطاً خفياً به. والمفارقة هي أن هذا الارتباط تفكك بقدومه ومرآه، وصار وجوده الحتمي اعتيادياً حد نسيانه.

ولأنه كان غائباً كنتُ أسمع عنه الكثير، فوجدتني أخلق له شخصية أسطورية الملامح.. شخصية تسمح لي بتخيلها كما أشاء عدا أن تكون قريبة وملموسة. لم أتصوّر مطلقاً أن يوماً سيأتي أرى فيه عماد، أبداً لم أتصوّر، كان موتي ودخولي الجنة أقرب في خيالي من ذلك.

قصة بقائه في العراق كانت جامحة الخيال في حد ذاتها، وجاء هو معززاً لذاك الجموح.

تركته أمي في بغداد خوفاً عليه من طريقها الذي سلكته مع أبي عبر جبال في شمال العراق فراراً من العراق بأسره، ليتبعا في ما بعد طريق الهجرة الطويل.. قلّبتهم أيادي عدة دول حتى استقرا في الدنمارك، دون عماد، ثم مع نخيل، وأخيراً معي.

في طفولتي كانت صور لأمي وأبي تتوالى في رأسي كلما تكرر على مسمعي قصة هجرتهما من العراق. ولأنني صَعُبَ عليّ تصورهما شابين فقد احتفظت لهما بمنظرهما الكهل وهما في ثياب متسلقي الجبال، يربط أمي بأبي حبل واه وهما متشبثان بأطراف صخور ناتئة مثل عنكبوتين كبيرين.. بينما أفراد من «البعثيين» يرتدون أطقماً أنيقة ونظارات شمسية، كلهم يشبهون

www.aljsad.net

«بين كينغسلي» يتعقبون والديّ.. وفي اللحظات الأخيرة فقط ينجح الاثنان في الإفلات ليغادرا العراق، ذلك البلد الشبح الذي أخافهما حد الهرب منه.

ثم يقفز أخي في رأسي.

طفل صغير لم يتعدّ العام الأول من عمره، خافا عليه من المغامرة، فتركاه عند جدي وجدتي لأبي أملاً في أن تتحسن الأوضاع أو أن يلحق بهما فيما بعد.

إلا أن الأوضاع لم تتحسن، بل لم تبقَ على ما هي عليه، حتى تعذر مجرد الاتصال الهاتفي بعماد لسنوات. وحين تمكنا أخيراً من الاتصال به وطلبنا منه أن يأتي، رفض هو أن يلمّ شمله بنا.. رفض بشدة أبكت أمي أياماً عديدة.

ثم جاء.. أخيراً جاء.

اضطرته الظروف إلى ذلك بعد وفاة جدي، ولعله لم يشأ أن يصبح عالة على أعمامي.

جاء عماد وهو في العشرين.

ولد لي أخ.. حملت به أمي عشر سنين ـ هي سنوات عمري في لقائي الأول به ـ لتلده رجلاً طويلاً عريضاً وبشارب أيضاً.

وطفقتُ أبحثُ فيه عن شيء يشبهني.

فوجدت فيه الكثير مما يشبهني!!

بشعره الأسود الكثيف والناعم في الوقت نفسه، والذي كان

www.aljsad.net

يرده إلى الوراء.. بعينيه السوداوين، بأهدابهما الطويلة، واللتين كانتا تشكلان خطين أسودين ظريفين حين يبتسم أو يضحك.. بشفتيه الرقيقتين، أرق من الفحولة القوية التي كانت تفحّ من ملامح وجهه.

كان طويلاً، عريض الكتفين وفي عينيه نظرة تصميم دائمة كأنه على وشك أن يقرر شيئاً.

هو يشبهني ونخيل إلى حد كبير وإن كانت سُمرته أغمق من سُمرتنا أنا وهي.. كأنه جلس عمره كله تحت شمس العراق فاستمرت تلفحه حتى وإن هرب منها إلى صقيع كوبنهاغن.. لفتاته ونظراته وابتساماته الخجولة المصطنعة.. كل هذا كان ينبىء بأنه أخي. لكنني لم أشعر به كذلك.! ليس هناك ملمح آخر غير الشبه بيننا يجعلني أصدق أنه أخي.

ولم أفهم تماماً السبب الذي جعل ركبتيَّ ترتعشان وأنا أراه لأول مرة. ربما لأن موتي ودخولي الجنة أصبحا قريبين جداً مع رؤية عماد.. لا أعلم.. فما من سببٍ مقنع.. هذا الرجل غريب عني حد الخجل منه.

مازلت أذكر كيف أن برودة استقباله لنا هالتني. لم أكن أنتظر منه أن يتأثر لمرآنا، إنما ببداهة الطفولة انتظرت منه الرد على تأثر والديّ.

كنت قد شعرت بالحرج، أنا الطفلة الصغيرة، من حماس أمي وبكائها وردّه الجاف عليها.

www.aljsad.net

بدت أمي وكأنها مجنونة. وبدا هو مشفقاً على تهافت هذه المجنونة، فترك نفسه في أحضانها، دون أن يبدي أي تعاطف أو حتى مجرد مجاراة.

انطباعي عنه حينها شكّلته بسرعة.. إنه بارد! جاف! بل أكثر من هذا.. دمه ثقيل، ثقيل إلى درجة لا يمكن أن يكون معها أخي!

استضافته في البيت بدت خفيفة في البداية ثم صارت تثقل مع الأيام شيئاً فشيئاً. وصار إحساسي بوجود كُتلَته يلجمني، حتى وهو معتكف في غرفته كعادته.

وجود عماد في البيت كان واقعياً أكثر مما تتحمله مخيّلة أيامي الهائمة.. كان محسوساً بشكل مدهش. كان هناك يقبع في غرفته، وأنا أدور في البيت، أدور في البيت غير قادرة على تناسي وجوده فيه.

كأني بعماد وقد صار جزءاً بائناً مني، شديد الحساسية. وإن كنت مكوّنة من أعضاء كثيرة أغلبها طبيعي الالتصاق بي، إلا أن إحساسي بعماد وهو يُزرع فيّ لم يكن طبيعياً البتة.

كان فماً ثانياً،

ذراعاً ثالثة،

كلية جديدة، تقبع في جوفي، وتثقل الحمل عليّ.

أشعر بها.

أشعر بها بشدة.

www.aljsad.net

تخِز خاصرتي وتجبرني على حمل محسوس، يميل بي، أفقد على إثره توازني، كلما أجهدني الحمل أكثر.

لِساعات طويلة كان يقفل على نفسه بابه، بحجة الدراسة. عليه أن يتعلم اللغة الدنماركية كي يتمكن من الالتحاق بثانوية يعادل فيها شهادة ثانويته العراقية.. بعدها سيعاود بدء دراسته في كلية الطب التي تركها طالباً في السنة الثانية عندما كان في بغداد.

كان يلقي إلينا بخطته هذه وهو في حالة من القرف. يلوي شفتيه مع كل كلمة وكأنه سيتقيأ كلامه علينا. ولا أدري أكنا نحن سبب قرفه أم ذلك الطريق الطويل في الدراسة الذي ينتظره.. فهولم يفتأ يذكّرنا بأننا سبب تأخّره في دراسته، فلولا استعجالنا قدومه لكان الآن طبيباً كما يردد.

أحياناً كثيرة أتخيل أمي وقد ترددت لوهلة قبل ترك عماد في بغداد. فلو أنها أصرّت على اصطحابه معها في اللحظة الأخيرة قبل الرحيل، هل كان عماد ليصبح غير الذي يقابلنا بنفوره البالغ؟

أفكّر كم هي غريبة بداية الحياة.. الطفولة التي تتشرب كل حدث وقول مهما كان صغره لتُبنى حياتنا على إثرها إما على يقين وإما على كفر.

لو أن والديّ ترددا في قرار الهجرة برمته لكنت أنا نفسي الآن مختلفة تماماً عني.

لو أنهما لم يتركا عماداً كل تلك السنين ما كان عماد ليأتينا رجلاً مصقولاً عراقياً، ومحشورة في رأسه أفكار مختلفة بالتأكيد عن تلك التي كانت أمي ستنشئه عليها.

www.aljsad.net

أتخيل عماداً وقد تربّى ونشأ هنا مثلي، وأتساءل هل سيكون مثلي.؟

هل سيكون ألطف؟ أعنف ؟ أكثر انفتاحاً ربما ؟ بالتأكيد سيكون أقل جدية ! أقل اهتماماً بدراسته مثلاً!

لا أدري حقاً. غير أني أحمل ثقة لست متأكدة من منبعها بأن عماداً لن يكون عماداً الذي أعرفه لو أنه تربّى هنا.

حبّذا لو..!! وتنعدم الكلمات، وتتهاوى السنوات.. دون قيمة تذكر.

أتراه لهذه الأسباب لم يكن يحبنا؟ لا أدّعي أني شعرت بكره ما من قبله، لكنه كان قطعاً لا يحبنا.

لم ينسَ عماد مطلقاً تخلّي والديَّ عنه. يذكّرهما كلّما سنحت له الفرصة بأنه تربّى كمن مات أبواه عنه، ويحذرهما من التدخل في شؤونه فهو لم يتعود بعد مفهوم الأبوة والأمومة، حيث يحق لإنسان آخر استباحته، رغم أن أمي وأبي لم يكونا قد حاولا ذلك أصلاً.

علاقتي به حينها كانت لتبدو أقل من عادية، مبنية على الأوامر وتلبيتها.. اهدئي، لا أريد ضجيجاً، أحضري لي قدح ماء، أغلقي التلفاز أريد أن أدرس.. ومرة خرج من غرفته ثائراً وكتابه في يده ليصيح بوجهي:

ـ لِمَ تدخلين البيت بهذا الهياج؟

كنتُ قد عدتُ تواً من اللعب خارج المنزل وفتحت الثلاجة

www.aljsad.net

أنوي أن أشرب، فإذا به يفاجئني بصراخه، فتسمرت في مكاني دون أن أكتشف الخطأ الذي ارتكبتُه.

جاءت أمي على صياحه:

ـ ما بكما؟

فعاد عماد يرفع صوته:

ـ لا أريدها هنا. . إنها لا تكف عن إزعاجي.

كأنها تتهمني فوراً، قالت:

ـ هدى شسويتي؟

أجبت شبه هامسة بالدنماركية:

ـ لا أدري.

فصرخ بي:

ـ لماذا تتحدثين بالدنماركية؟ تظنينني لا أفهم ما تقولين؟!

ولم أعد أعرف بماذا أجيب. . سحبتني أمي من أمامه وصوته الغاضب يصلني:

ـ إذا سمعت صوتج. . راسج أكسّره.

لم يكن يبدو عليه أنه يحب الأطفال على الإطلاق، ولاسيّما أنه تربّى في بيت جدي بين عجوزين، أعتقد بأنهما كانا هادئين، مع عدم وجود الأطفال. ثم إني سمعته يقول لأمي مرة:

ـ ألم تخجلي من أن تأتي بهذه ـ ويقصدني أناـ وأنت في هذه السن!؟

فتأكدتُ أنه لا يرحّب بوجودي في هذه الأسرة. . بل في هذا العالم.

www.aljsad.net

كان يتجاهلني دائماً. وقد يكون غير متعمدٍ لتجاهلي ،فلا أعتقد بأني كنت بالشخص المهم الذي يستحق أن يتعمد من أجله شيئاً. . لكنه كان يفعل.

لا أدري لماذا أخصص كل هذه السطور للحديث عن أخي! لا أدري! لم أتعمد ذلك، إذ لطالما سارت بي حياتي حيث تريد هي لا حيث أريد أنا، ولطالما تركت نفسي لذاتها، وغالباً ما كانت القرارات تتخذني، وقلّما اتخذتها أنا.

ولعلّ هذه الأحداث الشاذة في حياتي هي التي جعلتني أخصص لها كل هذه الصفحات. فلا أظن بأن هناك الكثير من الأخوة الذين تربّوا بعيداً عن إخوتهم ثم التقوهم بعد أن كبروا، وبعد أن صُقلت شخصياتهم بطرق مختلفة، حتى بات لقاؤهم كلقاء الأغراب.

ثم إن عماداً لم يكن أخاً عادياً لأتلقّفه بصلة رَحِم اعتيادية، منسابة الملامح.

كان عماد ينهمر على البيت بشدة.

عندي فقط، كان تدفّقه الهائل يتوقف فجأة ليسيل على وجهي بلزوجة متأنية.

كان البيت كله يغرق. . وأنا وحدي أتعرّق.

لو أنه فعل، لو أنه أغرقني، فلربما كنت تقبلته مثلما تقبلت نخيل، مثل أمي، مثل أبي.

لكنه أبى إلا أن يكون وقعه مختلفاً فيّ.

www.aljsad.net

(٣)

أنهيت ترجمة فصلها الأول مزهواً بإنجازي، فكتبت لها مباشرة أبشرها بذلك مرفقاً الفصل مع رسالتي لتقرأه، ولأفاجأ بها تجيبني بالدنماركية كما اعتادت معي في أولى رسائلها:

«أخبرتك من قبل أنني لا أجيد العربية، لكن يبدو أنك متفائل بما فيه الكفاية لتتوقع أني أقرأ اللغة كحد أدنى.. للأسف أنا لا أفعل.. لا أكتب ولا أقرأ هذه اللغة التي تتراءى كتابتها لي مثل أفاعٍ ملتوية ومربوطة بعضها ببعض.

اللغة التي تبدأ يميناً وتنتهي يساراً.. أتعلم بأني ضحكتُ متعجبة يوم اكتشفت أنها تُكتب من اليمين إلى اليسار! كانت معرفة ذلك نكتة سخيفة أضحكتني، إذ لم أتوقع للغة أن تبدأ من الخلف!

على العموم، أنا لست بحاجة إلى قراءة ما تكتب، فلن أكون ناقدة لنص أعرفه بحق.

www.aljsad.net

ثم إني لن أكون بحاجة لإجراء أي تصحيح عليها، فأنا كما أخبرتك في السابق.. أثق بك.

في الختام أتمنى أن تكون الكتابة قد حققت لك متعة.. وشاكرة لك جهدك.

ملاحظة:

سأحاول تزويدك بالفصول تباعاً.. فأنا لم أنته من تصحيح جميعها.

هدى».

بهذا كانت الفتاة قد سدّت الطريق أمامي لمزيد من الرسائل الألكترونية التي كنت آمل فيها، متطلعاً لفك رموز شخصها. ولأني أكره أن أبدو متلهفاً على امرأة تعمدت ألا ألحّ بمزيد من الرسائل. ثم إنها باتت تختفي عن الماسنجر لأيام، وحين يصدف أن أجدها تحجم هي عن الكتابة فألزمُ الصمت مفضلاً عدم مبادرتها بحديث.

أعترف أني ما لبثت أتساءل من تكون؟ وصار يرهقني هذا التساؤل!

هذه التي صارت تشغل لي أيامي التي أصبحت عامرة بأطياف قصتها، من تكون؟

الأيام التي كانت رتيبة مملة كرتابة أوروبا التي أقطنها، وكنت

www.aljsad.net

أكاد أعرف ما سيحدث في كل دقيقة منها قبل أن يقع حدوثه، تغيّر جزء كبير منها مذ حشَرَتْ هذه الفتاة نفسها بين ساعاتي. فتغير على وجه الخصوص عالمي المحدود الذي كان يتمحور حول شؤوني ومتعلقاتها فقط، إذ ضمّها إليه بترحاب استغربته.. ولم أكن بالطبع أتصور أن قصة هذه الفتاة ـ بغض النظر عن حقيقتها أو زيفها ـ ستأخذني كلي كما فعلتْ.

حقاً. .لم أتوقع أكثر من إشباع جزئي لفضولي النسائي، فأنا لست مبالغاً حد الطمع بإشباع تام، وهو ما لا أنشد بلوغه عبر مجرد رواية، فبحثي في ما وراء عالم الأنوثة يعد هوايتي الأكثر متعة، وسرّي الذي لا أحلم بفضحه.. وأعترف بأني لم أكن محظوظاً بما يكفي لإشباع هذه الرغبة فيّ، فعلاقاتي النسائية قبل الزواج، والتي جاءت على استحياء، لم ترو فضولي الشغِف وبدت سطحية المعالم.

نشأتي التي كانت في منزل خالٍ من النساء إلا أمي، جعلتني أُكبِر هذا الكائن الرقيق الذي يضع يداً على فمه حين يبتسم أو يضحك، ويخفي بدلال خصلة تبدو فائقة النعومة خلف أذنه، فقط لتهبط على جبينه وليعاود من ثم الكرة، ويطلق نظرات طويلة شديدة الوهن.

مثل هذه التفاصيل فيهن تسحقني!

لعلي لم أكن لأرتبط بتفاصيلهن كما أنا، لو أنني تربيت في بيت مفعم بالإناث.. هذا لأنني شببت بين خمسة إخوة ثلاثة منهم أكبر مني، أخذوا على عاتقهم تمريني على شقاوة كانت

www.aljsad.net

سمعة لصيقة بنا جميعاً، حتى بعد أن كبرنا وصارت الكياسة طبعنا الجديد.

كنا ستة ذكور في مكان وزمان غير مناسبين.. في بلدٍ لا تحبّذ النساء فيه إنجاب ذكرٍ خوف أن يكبر فقط ليُقتل بالطرق الكثيرة التي توافرت حينها.

عرفتُ من أمي أنها أخذتني وإخوتي حين كنت أصغرهم إلى «الكاظمية» لتدعو الله أن يكون الذي في بطنها آنذاك أنثى. ولطالما سمعت أمي تتحسر وهي تردد بأن إنجاب الإناث راحة بال في بلد مثل العراق.

فأبسط ما سيحدث في نظرها هو أن تُجتَذَب أعين الدولة لذكورها ما إن يظهر الزغب فوق شفاههم. أما أسوأ ما يمكنه أن يحدث فهو أن يكبر هؤلاء لينخرطوا في أيٍ من الصفوف الكثيرة لمعارضي الحكم الصدامي، فتفقدهم أيضاً.

رغم هذا، فإنني أحياناً أقدّر الأمر بأن أمي كانت تنشد إنجاب تلك الأنثى بشدة، فقط لأنها حينها كانت أماً لأربعة ذكور. فإنجاب الذكور ـ على الرغم مما يجلب على البيت العراقي من متاعب ـ يبقى الرغبة المثلى للشرقيين. وهل ترى الإناث في مثل أحوال العراق راحة بال فعلاً؟ في هذا البلد الذي بدأ يلتهم أبناءه من دون الالتفات إلى فروق بائسة كهذه هي من صنيعة بني البشر فحسب؟!

راحة البال هذه لم تُكتب لنا نحن العراقيين! ولأن أمي امرأة عراقية أصيلة فإن راحة البال هذه لم تُكتب لها قط.. فولدت

www.aljsad.net

ذكراً جديداً.. ثم آخر.. وما إن اشتد عود أحدهما حتى قُتل.

أعدم أخي وهو بعد في الثامنة عشرة.. وكان إعدامه بمثابة أعوامٍ ثقيلة ألقيت على كاهلي فجأة، مثل موته المباغت. هذا الذيٍ يصغرني، نضج وأصبح رجلاً خطيراً بما يكفي لكي يُعدم!!

أما كان الأجدر بالقدر أن ينتظر لأكبُر أنا الآخر وأمضي قُدماً في عقدي الثاني، وأكون بهذا على قدر أهل العزم؟!

حلّت المصيبة فوق رأسي، فشعرت كأنني هَرِمتُ فجأة. ورغم كل الأعوام التي تراكمت فوق كتفيّ الفتيين لم أغدُ من أهل العزم الذين تُفصَّل العزائم على قدرهم.. بل بتُّ ضعيفاً أمام إعدام أخ في ريعان شبابه حتى كدتُ أتفكك من الحزن عليه، إلى أن رأيته في المنام يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. حينها فقط شفيت من حزن آنيّ، ليبقى بعدها أخي ذبحة غائرة في عنقي أمشي بها بين الناس.. وحدي لا أنساها وهم سرعان ما فعلوا.

كأثرٍ لذلك كان لا بد للعراق أن يضيق.. فقذف بي إلى شمال أوروبا.

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(٤)

كنت في مدرسة قريبة من بيتنا في صف يتكوّن من عشرين طالباً، كان ثمانية منهم أجانب وكنتُ أنا التاسعة.

جاء اكتشافي لأجنبيّتي بطريقة انسيابية، ففهمت دون أن أذكر متى وكيف، أن هذه الأرض ليست بأرضي، بل إنهم «هم» أصحاب شبه الجزيرة الصغيرة هذه.. أصحاب الأرض المنبسطة والشوارع النظيفة شبه الخالية من البشر.. سكان العاصمة الصغيرة التي يُعدّ تيه المرء فيها نكتة، واستقامته مبعث سخرية، وغربته عن نفسه أمراً محتوماً.

هذه الأرض، إرث الـ «فايكينغ» قراصنة البحر القدامى ومروّعي أوروبا في القرون الوسطى، أهلها الأصليون هم من يملك شمسها وهواءها وسحر طبيعتها.. فإن هم رضوا لنا مشاركتهم في إرث جدودهم أصحاب الانتصارات الخاطفة فليس لنا إلا أن نشكر لهم ذلك ونعيش معهم بسلام، وهذا ما ينتظرونه منّا.

www.aljsad.net

غير أنه صعبٌ مراسنا وطباعنا. ولد بعضنا هنا شاعراً أن هذا البلد بلده ومأواه. وعلى الرغم من كل الاختلافات التي تقبلها مسبقاً فإنه يرفض فكرة أن يتقبل كونه ضيفاً.

وأنا تقبّلت فكرة أجنبيّتي مثلي مثل غيري، دون أن أناقشها، حتى لم يعد بإمكاني أن أكون غير تلك الأجنبية الصغيرة ذات الشعر الفاحم، والبشرة السمراء.

كنت أجنبية، وأعرف عن نفسي هذا. لكنني كذلك في أرض لم أتعرف إلى غيرها، ولذا كانت بالنسبة إليّ أرضي وبلدي دون أن يكون في قلبي ذرة شك في هذا.

السنوات الأولى من السنين التسع التي كان علي قضاؤها في المرحلة الابتدائية، بدت عادية جداً. لم تكن الهوّة الصغيرة بيني وبين زملائي - والتي اكتشفتها حين كنت في الروضة - قد اتسعت بعد. كان اللهو واللعب يجمعاننا، دنماركيين وأجانب، كما يقول المثل الدنماركي «الأطفال المتساوون يلعبون أفضل». كنا حتى ذلك الحين في نظر أنفسنا متساوين، وإن لم يخلُ الأمر من بعض التعليقات أو الكلمات التي نحاول بها استفزاز بعضنا بعضاً، إذا ما غضبنا بعضنا من بعض. غير أنها لم تصل قط إلى الحد الذي يجعلنا نشعر بعدم تساوينا. وبالتالي لم نفقد إجادتنا للعب مطلقاً في طفولتنا.

ثم حلّ التغيير.

أُسرتي تغيّرت على حين غرّة.

الكثير من مفاهيمها طرأ عليه تغيير مفاجئ، أخذ أبعاداً

www.aljsad.net

انقلابية. بالنسبة إليّ لا يهمني الآن ما إذا كان ذلك التغيير سلبياً أم إيجابياً، فلقد كان تغييراً حمل معه ما تحمله التغييرات عادة معها، من إعادة النظر في أشياء ونبذ بعضها والتمسك بأخرى.

حدث ذلك مع الوقت الذي انتقلت فيه أسرة عراقية للسكن بجوارنا. وكان هذا حدثاً مهماً بالنسبة إلى أمي التي كانت تعلن بفرح أن قد أصبح لنا جيران من بلدنا نفسه.

كانت أسرة تتكون من أب وأم وأربع بنات وولدين. وهي من الأُسر التي سُفّرت إلى إيران في أواسط السبعينيات من قِبل النظام البعثي بحجة أنهم إيرانيو الأصل، غير أنهم حين لجأوا إلى الدنمارك لجأوا إليها كعراقيين.

سنوات عيش تلك الأسرة في إيران، والتي بدأت بذلّ المخيّمات وانتهت بالهجرة إلى أوروبا. كانت قد أضفت عليهم لمحة فارسية لم يتخلصوا منها حتى لحظة كتابتي هذه الكلمات.

في الحقيقة كانوا عراقيين في لغتهم، وفي طباعهم، وفي تصرّفاتهم، غير أنه قد أُضفي على كل ذلك صبغة إيرانية. ففي أحاديثهم تقفز أحياناً كلمات فارسية بطريقة عفوية كأنها جزء من زلاّت لسان لا يندمون عليها أما لُكنتهم فكانت غريبة بالفعل. ولو لم تكن عراقياً لربما ظننتها جزءاً من لغتهم. . أما إذا كنت عراقياً فستشعر بطعمها الغريب، كطعم الشاي المحروق.

طباعهم كانت عراقية بحتة في ظاهرها، إيرانية في عمقها. بيتهم فيه الوثارة الفارسية، والوداعة العراقية. حيث الدقة المتناهية في كل شيء، والأثاث الكلاسيكي المكدَّس بطريقة منظمة غير

www.aljsad.net

مرتبكة. ولا يمكنني بالطبع أن أنسى نظام النظافة الصارم الذي تتبعه كل البيوت الفارسية. كان كل شيء فيهم عراقياً بطعم فارسي.. كل شيء.

ما زلتُ أذكر كم كان منظرهم لافتاً عندما رأيتهم أول مرة، ولكن سرعان ما اعتدته. الأم والبنات يرتدين جلابيب طويلة تصل إلى كواحلهن وترتفع حتى أعناقهن ويربطن باحترافٍ حول رؤوسهن إيشاربات أنيقة غالباً ما تكون ذات ألوان قاتمة.. حتى «فاطمة» أصغر بناتهم، والتي هي في مثل سني، كانت تلف ايشارباً حول رأسها. وقد فهمت من كلام والدتي عنهم لأبي أنها أسرة تلتزم بالتعاليم الإسلامية كثيراً.

وكانت فرحة أمي بهم تكبر أكثر فأكثر. وراحت تتردد إليهم بانتظام، مع أنهم قلّما كانوا يزوروننا، وإن فعلوا ففي فترات متباعدة.

بدا واضحاً أن أمي أُعجبت بهم كثيراً، أعجبت بطريقة نظامهم وبأخلاقهم العالية، وكانت بعد كل زيارة تقوم بها إليهم تجلس مع أبي وتأخذ في امتداح تلك الأسرة:

ـ قضيت عندهم ساعتين، لم تقل البنات الأربع خلالهما كلمة.

تهزّ رأسها وتكمل:

ـ قمة في الأدب!

www.aljsad.net

ثم تسترسل في الحديث عن أخلاقهن الرفيعة التي استشفّتها من صمتهن.

ولا أفهم كيف أمكنها معرفة ما إذا كن مؤدّبات دون أن يتكلمن!

بالنسبة إلى أمي، الجميلة الصامتة تُعدّ المثال الأتم في عُرفها.

ذات يوم دعت «أم حسن» أمي إلى «مجلس» ودعتْ معها عدّة نساء معظمهن من عراقيات إيران وقد جئن من أماكن مختلفة من كوبنهاغن. بعدها دعت تلك النسوة، أمي إلى جلسات يعقدنها هن أيضاً في بيوتهن.

أخذتني أمي معها، وأصبحتُ بعدها جزءاً ملازماً لزياراتها، وأصبحتْ لا تخرج من دوني، كأني حقيبتها أو إكسسوار من إكسسواراتها، أو كما، نعتتني عماد مرة، كلبها الوفي الذي لا يعصي لها أمراً.

كانت تلك المجالس تتكون من ثلاثة عناصر محددة:

العنصر الأول الطعام، والثاني، الكلام الذي كان يتزامن مع مضغ الطعام، والثالث جو روحاني يتمثل بقراءة بعض السور القرآنية والأدعية.

وجدت أمي في ذلك الجو الحميم أموراً تفتقدها: الصحبة النسائية، والحديث المسترسل، والجو الروحاني المنعدم تقريباً عندنا، ما جعلها تحنّ إلى العودة مرة تلو أخرى.

www.aljsad.net

بل بات واضحاً أنها تحاول قدر إمكانها الانسجام مع هذا الجو أكثر. . فبدأت تخفف من زينتها، لا لشيء إلا لأن أولئك النساء لم يكن يتزين. ثم بدأت تضع شالاً على رأسها عند خروجها من المنزل وكان ذلك الشال يكشف نصف شعرها ولا يخفي الكثير من زينتها، بل كانت تتركه أحياناً ينزلق من على رأسها فلا تبدي جهداً لإعادته.

وفجأة. . ارتدت أمي الحجاب.

رمقها أبي بنظرة دهشة ثم خفض عينيه كأنه يستسلم. وفرحت نخيل فرحة هادئة، لأن أمها اختارت بنفسها فعل شيء أي شيء. أما عماد فكان يعتبر ذلك أمراً مسلماً به. . فإن لم ترتد أمي الحجاب اليوم فسترتديه غداً، عندما يتزوج هو ويصبح له أولاد، وستصبح هي جدة وسيكون من غير اللائق بها كما جرت العادة بالنسبة إلى العراقيين أن تظل سافرة.

كل ما هنالك أن أمي استعجلت قليلاً. وربّما ظنّ عماد أنها أرادت تغطية شعراتها البيضاء القليلة، أو التجاعيد الخفيفة التي بدأت تطرّز عنقها.

غير أن أمي لم تكتف بذلك، فصارت تغالي في إظهار شخصيتها الجديدة، وتحاول فرض الكثير منها علينا، حتى أننا استغربنا حقاً، إذ لم تفرض علينا أمي من قبل أي نوع من الالتزامات الدينية قط.

كان الدين بالنسبة إلينا شيئاً ثانوياً ويكاد يكون منسياً، ولم نكن نشهد مظاهره في بيتنا إلا في ما ندر. لم أرَ في حياتي أبي

www.aljsad.net

أو أخي وهما يصلّيان. أما أمي فكانت في ما مضى تمارس بعض الشعائر الدينية كالصلاة والصوم، لكن مع نفسها، متعمدة عدم إظهارها أمامنا، كأنها تخجل منها.

أما صيام شهر رمضان فكنت أعتبره عادة نختلف فيها عن الدنماركيين، ولم أفكر فيه كواجب ديني مفروض علينا كمسلمين، فما فكرت يوماً وأنا في تلك السن بدیانتي. . إذ لم تكن ديانتي، حتى ذلك الوقت قد أشعرتني باختلافٍ ما، ربما لأنها أصلاً لم تكن حاضرة في يومياتي.

كان بيتنا خالياً من المظاهر الدينية! حتى أننا لم نعلق لوحات قرآنية على جدران البيت، كما تعلقها أم حسن على جدران بيتها. . ليس قبل أن تحثنا أم حسن بنفسها على فعل ذلك.

قالت في واحدة من زياراتها القليلة النادرة:

ـ لماذا لا تعلّقون لوحة لسورة أو آية تحفظون بها المنزل؟

تسلّلت بسؤالها وهي تقلّب بصرها في البيت.

اضطربت رموش أمي لوهلة وهي تقول:

ـ أبو عماد يقول إن اللوحات القرآنية لا تتماشى والطراز الذي نعتمده في المنزل.

ردت أم حسن مستنكرة وهي ترفع يديها ثم تخفضهما في حجرها:

ـ وهل هذا كلام!!

ثم استدركت كأنها خشيت المساس بصاحب البيت:

www.aljsad.net

ـ يجب أن تعلّقي شيئاً، على الأقل على عتبة الدار، لكي يحفظ لك أولادك في خروجهم ودخولهم.

لم تجادلها أمي كثيراً وأسرعت إلى شارع «نوربرو» ـ النسخة الدنماركية لادجورَ رود في لندن ـ لتشتري من أحد المحلات العربية هناك خمس لوحات إحداها مستطيلة كُتبت عليها آية الكرسي بحروف من صدف.. علّقتها أمي فوق الباب حتى كاد طرفها يمس السقف، كأنها تريد أن تقرّبها من الله وتشهده أنها تعلّق آية في منزلها.

لم يعلّق أحد منا على الأمر كأننا لم ننتبه لجديد المنزل الظاهر للعيان. وحده أبي كان ينظر إلى الأمر باستهانة وشيء من الاستسلام. أحياناً كنت ألمح أمي وهي تتحاشى النظر في عينيه، كأنها تخجل من الجديد الذي طرأ على حياتها فجأة.. كأنها تخجل من أبي بالذات لمعرفته التامة بالظروف الحقيقية التي دفعتها لإجراء تلك التغييرات في حياتنا.

***

أبي وأمي من جيل السبعينيات المتحرر، ذلك الجيل المتمرد على العادات والتقاليد بما فيها الدين الذي كانا يعتبرانه مصدراً أساسياً لكبح الحريات والتقدم.

لم يكن أبي ينتمي إلى أي حزب من الأحزاب الكثيرة التي كانت تتبنّى تلك الأفكار التحررية التي يؤمن هو بها.. كان هارباً من فروض الدين والتقاليد وواجباتهما وكافراً بها. أخبرنا أنه لهذا

www.aljsad.net

لم يقبل الانضمام إلى أحزابٍ حاول بعض أفرادها التأثير عليه آنذاك، كالحزب الشيوعي وحزب البعث. رفض أبي بإصرار لأن مبدأه الأساس في الحياة هو ألا يكون له مبدأ. فهو لم يهرب من عبودية الله ليجد نفسه غارقاً في عبودية «عفلق» أو «ماركس».

في يوم من أيام صيف سنة ١٩٧٢ كان أبي يقف وحيداً في محل جدي لبيع الأجهزة الكهربائية حيث دخلت عليه أمي، «نادية». دخلت فجأة وهي تزفر هرولتها، وقالت له وكلماتها السريعة تتيه مع زفراتها وارتباكها:

ـ أرجوك، أريد أن أختبئ عندك.

فردّ محمد ـ أبي ـ وعيناه غارقتان في الدهشة.. الدهشة من وضعها المرتبك وجمالها الرقيق وطلبها الغريب:

ـ ماذا وراءك؟

اقتربت منه بخطوات سريعة حيث يقف في آخر المحل وقالت بشيء من التوسل:

ـ دخيلك.. الشرطة في الشارع يلاحقون الفتيات وأخشى أن يروني.

فاتسعت عيناه على آخرهما، إذ لم يكن يتوقع أن هذه الجميلة يمكن أن تلاحقها شرطة.

فهمت هي نظرته:

ـ إنهم يلاحقون الفتيات اللواتي يرتدين «الميني جيب» ليصبغوا سيقانهن.

www.aljsad.net

كأنها نبّهته فأسقط تواً نظره على ساقيها فوجدها ترتدي ثوباً قصيراً، قصيراً جداً، فوق قوامها القصير، قصير جداً.

لم يتكلم. أمسك بيدها وسحبها خلف مكتبه الصغير فانحنت برشاقة مخفية جسدها ورأسها، بينما جلس خلف مكتبه وهو يبتسم، بل يكاد يقهقه من المغامرة الظريفة التي انغمس فيها رغماً عنه. وكانت أمي تجلس تحت قدميه، كأنها قررت منذ تلك اللحظة أن تكون خادماً أميناً له.

ـ أما زالوا هناك؟

سألت وهي تلتقط أنفاسها المبهورة.

اشرأبّ بعنقه إلى الأمام يحاول التقاط ما يجري خلف الباب الزجاجي:

ـ لا أدري.. لا يبدو شيء.

فقالت من خلال أنفاسها اللاهثة:

ـ هلاّ ألقيت نظرة على الشارع.

قام من مكانه وفي قلبه عربدة تكاد تقفز مع خطواته لكنه كتمها.. دفع الباب بقوة كأنه على استعداد لأي تحدٍ، ثم وقف خارج الدكان ونظر شمالاً فلم يرَ شيئاً، ثم نظر إلى اليمين فالتقط سيارة الشرطة وهي تكاد تختفي في نهاية الشارع.

دفع بالباب مرة أخرى وصاح قبل أن يصل إلى مكتبه حيث تختفي الهاربة:

ـ أخرجي، لقد ذهبوا.

www.aljsad.net

لكنها لم تخرج فذهب إليها بنفسه وانحنى ممسكاً بيدها ليرفعها وهو يكاد يهمس:

ـ لا تخافي، الشارع هادئ. . لقد ذهبوا.

رفعت نفسها معه ثم فاجأتها ضحكة حاولت كبحها فانفجرت. وضحك هو معها ولها. . أفرغت كل توترها في ضحكتها، وصرّف كل إعجابه الفوري بها على شكل ضحكات، تارة مبتورة وتارة متصلة.

ثم سألها وهو يكاد يهمس:

ـ ما اسمك ؟

ردت ببساطة وقد هدأت:

ـ نادية. . وأنت؟

ـ محمد.

تبادلا حديثاً عادياً عرف منه أنها طالبة في جامعة المستنصرية وعرفت هي أنه خرّيج من جامعة بغداد. أمعن فيها النظر فوجدها فاتنة، قوامها قصير متسق، ـ ورثته أنا عنها ـ وعيناها عسليتان واسعتان أخذتا مساحة نصف وجهها الصغير. . أنفها دقيق أشمّ، خُلق ليزيّن وجهها لا لتتنفس به كما يحب أن يصفه هو. وفمها صغير يتناغم صغره مع صغر كل شيء فيها.

ووعته هي في نظرة واحدة. . قوامه الفارع، الذي ورثه عماد ونخيل عنه، وشعره الأسود، الكثيف والناعم، ولم تُغفل بالطبع عينيه السوداوين بأهدابهما الطويلة واللتين كانتا تغمضان حين يبتسم أو يضحك فتشكلان خطين أسودين ظريفين، وشفتيه الرقيقتين

www.aljsad.net

بالنسبة إلى الفحولة القوية التي تفحّ من ملامح وجهه، وبشرته السمراء الغامقة كأنه جلس عمره كله تحت شمس العراق.

كان أبي في شبابه نسخة من عماد كما توضح أمي والصور القديمة. غير أن أمي تصرّ على أن ابنها يفوق والده وسامةً وقبولاً. لكني كنت دائماً ألمح على شفتي أبي ابتسامة تكاد تكون ساخرة، كأنه يذكّرها بغزلها القديم بوسامته، ويستهين بتنكّرها الجديد لصالح ولده.. كأنه يعرف تماماً منزلته لديها، وأن وسامته ما زالت تفعل بها فعلها القديم، وإن تحوّل سواد شعره الفاحم إلى فضي لامع، ورغم التجاعيد التي تخللت وجهه ويديه، ورغم الكرش الذي أكل قليلاً من قوامه الفارع. وهي أيضاً بقيت في عينيه كما هي، بعينيها العسليتين اللتين خبا بريقهما، وبجسدها الصغير الذي اكتنز قليلاً فبدا كبالونة منتفخة.

في ذلك اليوم الصيفي من أيام سنة اثنين وسبعين، أصرّ محمد على إكمال واجبه تجاه الهاربة ذات القوام الصغير والتي كانت تدرس الأدب الإنكليزي في جامعة المستنصرية.. فأوصلها إلى بيتها في «العطيفية»، وتعجب أنها لم تبد أية ممانعة، ثم ما لبثت أن أثارت إعجابه أكثر لأنها لم تفتعل التمنع.

وبقيا يمارسان تحررهما في العراق بشكل طبيعي.. فلم يكن مجتمعهما الذي ينتميان إليه يرفضهما لتحررهما، ذلك التحرر الذي أطلقته بغداد وقيّدته كوبنهاغن.

كان هذا هو لقاؤهما الأول الذي تعوّد أبي أن يسرد علينا

www.aljsad.net

أحداثه بين حين وآخر، شأنه شأن الكثير من القصص التي يسردها بطريقة لا يحاول فيها أن يلعب دور الراوي، بل ذلك المجنون الذي يكلّم نفسه. كان يبدأ بسرد قصة تدور أحداثها دائماً في بغداد، كأن الأحداث لا تتخذ شكلاً قصصياً بالنسبة إليه إلا هناك. وأما زمان هذه الأحداث فغالباً ما يكون الستينيات أو السبعينيات أو «زمن الخير» كما يفضّل أبناء العراق تسميته.

يستمر أبي في سرد حكاياه، وهو شبه مستلقٍ على الأريكة في الصالة، عيناه معلّقتان على التلفاز مثل متابع جيد، وصوت التلفاز يعلو صوته كأنما يحاول إسكاته دون جدوى.. فأبي لا يستسلم بسهولة أمام ذكرياته ويستمر حتى وهو يعلم أن لا أحد يستمع إليه، وحتى أنا لم أعد أتكلف مجاملته بالإنصات إلى ما يقول.

أبي المتقاعد، قبل أوان تقاعده بسنين، كانت له مقدرة عجيبة على تذكّر كل شبر من كلية الهندسة، التابعة لجامعة بغداد، التي درس فيها في ستينيات القرن المنصرم، وحيث قضى أربع سنوات من شبابه ليحصل بعدها على شهادة لم تفده في شيء هنا.. فهنا لا يعترفون بها على أية حال.

منذ مقدمه وحتى اليوم ما تزال الغربة تنهش فيه، لتترك ما تبقى منه قابعاً في المنزل.

عليل الجسد والروح أبي.. أبي المتقاعد قبل أوان تقاعده بسنين.

* * *

www.aljsad.net

كان بيتنا وما يزال حتى الآن عبارة عن منزلٍ صغير من طابقين، يقع في مدينة تشرف على ضواحي كوبنهاغن، فيه حديقة أمامية صغيرة يزرع أبي فيها أزهاراً لا أفهم مغزاها، تلك التي تزهر شهرين فقط من السنة وتذبل قبل حلول الخريف ثم تُطمَر تماماً في الشتاء.

حديقتنا الخلفية أكبر من الأمامية، يقضي فيها أبي وقتاً لا بأس به، فيشذّبها ويعتني بها ويزرع ما تتلهف على قبره ثلوج الدنمارك الكثيفة، ويبالغ في العناية بشجرة تفاح يتيمة تنتصب في أحد جوانبها.

في ذلك الحين كنّا أنا وأخواي قد احتللنا الطابق العلوي بغرفه الثلاث، وتركنا لوالديّ الغرفة الرابعة في الطابق الأرضي، وهي غرفة تتفرع من المدخل الصغير الذي يؤدي إلى صالتنا الكبيرة نسبياً، ولها باب يطل على الحديقة الخلفية. وفي المدخل الصغير أيضاً وقبل غرفة والديّ كان المطبخ الذي اعتمدت أمي فيه تدرّجات اللون الأزرق، اللون الذي تقول إنها دهنت به حيطان مطبخها في بغداد، وتتلمظ وهي تردد بأسى:

ـ على أن مطبخي ذاك يفوق هذا سعةً.

ثم تسكت قليلاً. وتجول بعينيها في المكان، وتكرّر:

ـ يفوق هذا بكثير.

بين بيتنا وبيت أبي حسن ثلاثة بيوت، كلها من الطراز والشكل نفسه، متراصّة بطريقة منظمة حتى لكأنها من شدة النظام

www.aljsad.net

تبدو أبعد عن حقيقة مفعمة بروح، وأقرب إلى خيال ممل لا روح فيه.

أمام تلك البيوت المتشابهة ممرات صغيرة أُريدَ لها أن تكون شوارع ينتقل عبرها سكان المنطقة ليخرجوا منها إلى الشوارع الأكبر قليلاً من الشوارع التي تحيط ببيوتنا، ثم منها إلى الشارع الرئيسي.

خلف بيوتنا فسحة كبيرة خضراء، تقع في أحد جوانبها ملاعب صغيرة، ومراجيح ورمال لأطفال المنطقة. أما الفسحة الخضراء نفسها فكانت غالبية الأيام شبه مهجورة من قبل السكان إلا من بعض الأطفال الذين يكثر وجودهم فيها صيفاً ويقل شتاءً، عدا عن بعض الأيام الثلجية بالطبع، إذ لا نعدم رجلاً ثلجياً في المنطقة من آن لآخر.

أوقات جميلة، قضيتها هناك في طفولتي.

حين يكون الجو مناسباً كنت أتسلل إلى الحديقة الخلفية لأخرج عبر بابها إلى الفسحة الخضراء لألعب مع أبناء الجيران، وكل مرة كنت أخرج فيها أسمع أمي تصيح خلفي في غضبة سريعة:

ـ ألم آمرك بالخروج من باب البيت الرئيسي؟ لا تجعلي المنفذ الخلفي سبيلاً ! هذه آخر مرة !

لأمي قدرة غريبة على ترديد مقولاتها حتى تفقد خواصها الترهيبية تدريجاً فتغدو عادية الوقع على الأذن. وأنا لم يكن يحلو

www.aljsad.net

لي الخروج إلا من الباب الخلفي! ثم لماذا أدور حول البيت نصف دورة إذا كان بإمكاني الولوج إلى عالمي المأثور مباشرة ؟ لا أفهم!

دون تردد كنت أعيد الكرّة بشيء من الحذر والتسلل إلا أنها كانت تكتشفني دائماً لتصرخ ورائي:

ـ لا تجعلي المنفذ الخلفي سبيلاً ! هذه آخر مرة !

هذه آخر مرة. . هذه آخر مرة. . هذه آخر مرة.

كنت ألعب أحياناً مع فاطمة ابنة أم حسن وكانت تقاربني في السن، وقد حثتني أمي على رفقتها بحجة شراكتها لي في الأصل والبلد، فأطعت أمي.

في البدء استقبلت اللعب مع فاطمة ببساطة تفرضها طفولتنا، هي التي كان يلازمها أخوها رضا الذي يكبرنا بسنوات قليلة، فارضاً نفسه علينا دون خجل.

أما أنا فسرعان ما قذفت بالإثنين إلى زاوية الرفقة المؤجلة. لم أعتبرهما صديقين لي، ولم أكن أفضل اللعب معهما إذا ما وجدت غيرهما يلعب في الخارج، إذ كان يحيط بالإثنين جو غريب لم أعرف حينها كنهه، وعززه كونهما يدوران معاً يجمعان ويتبادلان أوراق الرسائل الملوّنة والمعطرة، ويضيفان إليها صوراً مزركشة لشخصيات «ديزني». . أثار هذا الأمر استغرابي حقاً، إذ كنت أظن هذه الهواية الناعمة مقتصرة على الفتيات فقط، ولم أتخيل أن يجمع فتىً في الرابعة أو الخامسة عشرة مثل هذه

www.aljsad.net

الصور. تعجبت أكثر وأنا أراه متهافتاً على مجموعته يحيطها بورق بلاستيكي شفاف كي لا تتسخ أو تتلف، بل إنه كان بلا شك الموجّه الرئيسي لعملية التبديل التي كانا يقومان بها مع فتيات المنطقة، ولم تكن أخته لتجرؤ على تبديل أي رسالة أو صورة دون استشارته أو أخذ إذنه.. كانت فاطمة غبية بما فيه الكفاية لتكون تابعاً أعمى.

كنت أنعتها دائماً في سري بالغبية. وكانت هي تلف رأسها دائماً بإيشارب صغير الحجم ولكنه كبير على رأسها، يرتخي على عينيها الزرقاوين قليلاً فيحجب جزءاً منهما. كان الإيشارب يجعل وجهها الناصع البياض يبدو أكثر جمالاً وقد أحاطه بهالة رقيقة. لكنها ما إن تخلع ذلك الإيشارب حتى يظهر شعرها الأشقر، فتبدو باهتة، باردة، بملامحها الدقيقة الذائبة بعضها في بعض، وقد اختلط اللون الأشقر الباهت ببياض وجهها وزرقة عينيها، فضاعت الزرقة في البياض، وفي اللون الأشقر، حتى لم أعد أميّز أعيناها زرقاوان أم شعرها، أبشرتها بيضاء أم عيناها.

في الواقع كانت تلك الغلالة الرقيقة تؤنّق جمالها وتبيّن ملامحها، فتبدو جميلة جمالاً هادئاً صافياً، وغبياً.

كانت بالفعل غبية شكلاً وموضوعاً. لم تكن تملك ذلك الذكاء الذي يطل من أعين أخواتها، ولم يكن فيها خبث أمها الذي يتمحور حول كيفية إطلاق الكلمات الجارحة دون أن تبدو قاصدة لها. ولم تكن في غالب تصرفاتها تشبه أحداً من أهل ذلك

www.aljsad.net

البيت الذي طالما حيّرني، فلا هي ورثت الأصالة العراقية ولا اكتسبت الأنفة الفارسية.

لعل تلك الصفات والتصرفات هي ما دعاني لإطلاق لقب «الغبية» عليها. . لم أكن أنا حينها أفوقها ذكاءً، إذا ما قورنت بمستواي العقلي، لكن ذلك اللقب كان مجرد وصف لحالة احترتُ حينها في تسميتها، فاخترت لها هذا النعت معتقدة بأنه مناسب لها.

في عصر يوم صيفي، من أواخر أيام شهر تموز/ يوليو كانت الحرارة قد ارتفعت إلى درجة جعلت أهل منطقتنا ممن لم يذهبوا إلى الشاطئ ينتقلون إلى الفسحة الخضراء. حيث استلقى الكثير منهم على العشب وقد تجرد من غالبية ثيابه، ونصب بعضهم شبكة وصاروا يتقاذفون ريشة صغيرة في الهواء، وقد فاحت في الجو رائحة الشواء، الذي فضل أصحابه شيّه في حدائقهم الخلفية.

كنت وأسرتي قد خرجنا منذ الصباح الباكر في رحلة إلى شمال الجزيرة التي تقع فيها كوبنهاغن، جزيرة شيلاند، وقضينا النهار في مدينة «هلسينغور» الساحلية. وقد تغدّينا ثم تسوّقنا من تلك المدينة التي كانت تبدو لي غريبة قليلاً عن مدن الدنمارك التقليدية، وربما بدا لي ذلك لأن الدنمارك كلها لا تشبه ذاتها صيفاً. كنت أشعر أنني في اليونان رغم أني لم أكن قد زرت اليونان من قبل، غير أن المرافيء والمراكب الشراعية والشمس الساطعة ذكرتني بصورٍ لموانىء يونانية اطّلعت عليها.

www.aljsad.net

جميلة هي الدنمارك في الصيف. . ولا سيما إذا كان صيفاً حقيقياً تسطع فيه الشمس، لا ذلك الصيف الذي كان يقدم أحياناً حاملاً إلينا عواصف وأمطاراً.

جميلة جداً هذه المدينة رغم أني لا أحبّذ فيها فصل الصيف غالباً.

لكنّ صيفها الحقيقي يُخرج كلَّ مخلوق عن طوره وعادته، فتلقي الشمس حقيقتها على كل شيء ليستحيل زيف كآبته الشتائية صدقاً. . وإذا ما نويتم زيارتها معتبرين كتابتي عنها دعاية، فزوروها صيفاً لتلقوها ترتع في صدقها، فيا لضجة الدنمارك وجنونها صيفاً. . سيتسرّب إليكم جنونها فتحبونها.

ولربما ضاهيتموني صدقاً في حبها.

في ذلك اليوم وحين عدت إلى المنزل لم أكن قد أفرغت جُلّ طاقة عمر الثانية عشرة بعد. فاستأذنت أمي وخرجت إلى الفسحة الخضراء عبر الباب الخلفي.

وجدت «كريستينا» وأختها «أندريا» تلعبان، فيما استلقت قريباً منهما والدتهما الشابة تتشمس شبه عارية. أسرعتُ إليهما فاستقبلتاني من بعيد بترحاب:

ـ هاي هدى.

قلت وقد وصلت إليهما:

ـ هاي كريستينا وأندريا.

www.aljsad.net

تساءلت كريستينا بنغمة الأطفال الممطوطة:

ـ لماذا لم تخرجي من البيت قبل الآن؟

أجبت بلا مبالاة وأنا أنظر إلى حذائي الرياضي:

ـ لم أكن في البيت.. كنت مع أهلي في «هلسينغور».

فتساءلت وهي لا تزال تمطّ كلماتها:

ـ هلسينغور؟

تحمست لإخبارها عن هلسينغور، لكنني سمعت اسمي يتردد من بعيد، فالتفت لأجد فاطمة تركض متجهة نحوي، وكانت ترتدي بنطالاً من الجينز بدا واسعاً على ساقيها الرفيعتين و«تي شيرت» أزرق بأكمام طويلة وقد لفت إيشارباً بلون السماء على رأسها الصغير.. وتدلّت أطرافه بطريقة مهملة حتى حجبت القليل من عينيها الزرقاوين.

استدرت بكل جسمي لأستقبلها وأنا أرفع صوتي ليصل إليها قائلة بالدنماركية:

ـ هاي «فاتيما».. لم أرك منذ مدة.

وصلت فاطمة حيث كنا نقف أنا والأختان الدنماركيتان فتجاهلتهما وهي تقول بالعربية:

ـ لم نكن هنا. سافرنا إلى السويد، ومكثنا عند عمي أسبوعاً.

فأعدت كلامها بالدنماركية كأني أنبهها أن كريستينا وأندريا لا تفهمان العربية:

www.aljsad.net

ـ أها ! سافرت إلى السويد ومكثتِ أسبوعاً عند عمك !

ردت وهي لا تفهم:

ـ نعم.

هنا قلت لها بالعربية وقد تأكدتُ أنها لن تلقف أي تلميح:

ـ تحدثي بالدنماركية لكي تفهم هاتان البنتان ما نقول.

وأشرت برأسي إشارة خفيفة.

ردت وهي تصرّ على ألا تتخلى عن غبائها:

ـ لكنني لا أعرفهما.

فجأة قطع كلامنا والد فاطمة وهو يناديها من بعيد:

ـ فاطمة، فاطمة، تعالي هنا.

على حين غفلة مني أمسكت فاطمة بكفي وصاحت:

ـ حالاً.

ثم وجهت كلامها إليّ:

ـ هيا بنا!

سحبتني من كفي وراءها وهي تعدو.

هتفتُ بكريستينا وأندريا باستسلام:

ـ وداعاً. . أراكما فيما بعد.

دخلنا إلى حديقة بيتهم حيث كان الأب وولداه وأمهما يتحلقون حول لحم يشوونه على شوّاية كبيرة. وبادر الأب ابنته

www.aljsad.net

صائحاً بحدة، وقد تجاهل أن يحييني مداعباً، كما تعوّد أن يفعل حالما يراني بصحبة أحد من أهلي:

ـ ماذا كنت تفعلين هناك؟

ردّت بارتباك:

ـ هناك؟ أين هناك؟

فصرخ في وجهها:

ـ حيث تستلقي تلك المرأة العارية!

قالت وهي لا تزال مرتبكة:

ـ كنت أتحدث مع هدى.

وكأنّ الأب تنبه لوجودي فقال بحزم:

ـ هدى . . عودي إلى بيتكم نحن سنتغدى الآن.

لوهلة، تسمّرت في مكاني وقد فاجأني كلامه. فاجأتني حدّته والإهانة التي وجهها إلّي على حين غفلة. هذا الأصلع العجوز يطلب مني ترك منزلهم، كأنني أنا التي فرضتُ نفسي عليهم.

كم تمنيت ـ كلّما تذكرت هذا الموقف ـ لو أنني صرختُ بوجهه أخبره أن ابنته الغبية هي التي سحبتني خلفها وطلبت مني المجيء على غير رغبة مني. كم تمنيت لو أني رددت إليه إهانته بأي طريقة، كأن أصفع ابنته الغبية أمامه مثلاً، أو أتطاول بقامتي الصغيرة قفزاً وأُلصق كفي بصلعته رداً عليه.

إلا أنني في تلك اللحظة لم أفعل شيئاً. . أحسست بوجهي

www.aljsad.net

وقد استحال كالفراولة الدنماركية من شدة احمراره، خجلاً وغضباً، وأن شيئاً كنغزات إبر باردة يلسع وجهي وجسدي.

خرجت من باب حديقتهم ورددته خلفي. لكنني بقيت واقفة مسندة يداً إلى جدار حديقتهم الخشبي، ثم ذرفت دموعاً في صمت، دموع غيظ وإهانة، أقسم أني حاولت كبحها إلا أنها ذرفت نفسها رغماً عني، وكانت قدمي تضرب الأرض ضربات خفيفة لا إرادية ومتتابعة، فيما أتلقى المزيد من الإهانات حيث خوار أبي حسن يصلني:

ـ كيف تقفين مع أولئك البنات؟

ـ كنت أقف مع هدى، لم أقف معهن.

ردت ابنته الغبية..

ـ إني أقصد هدى أيضاً.. من الآن فصاعداً لا أسمح لك باللعب معها.

ـ لكنها عراقية.

ـ إنها شرّ من الدنماركيات إذا كان هؤلاء أهلها، أبٌ سكير وأخت ساقطة، وأخ عابث أقطع ذراعي إن لم يكن بعثياً.

قالت الأم:

ـ ألم ترَ كيف وقفت تتحدث بوقاحة مع الدنماركيتين بينما تستلقي تلك العارية.. أهلها لا يربون، إنهم يخلّفون ويتركون أطفالهم للدنماركيين ليربّوهم لهم بدل أن يكلفوا أنفسهم عناء تربيتهم.

www.aljsad.net

سكتت قليلاً ثم أكملت كلامها مرددة:

ـ إنهم لا يشبهوننا في شيء.. مو مثلنا!

عدوت إلى بيتنا، والإهانة تضع كفاً في كفي وتعدو معي.. اندفعت بسرعة غير عابئة بأمي التي نادتني ما إن رأتني.. صعدت إلى فوق ودخلت الحمام ثم أقفلت الباب ورائي.

بقيت أدور في الحمّام مثل فرخ تائه وصوتي يعلو مع كل شهقة بكاء أصدرها. خفت أن تسمعني أمي فأمسكت بمنشفة دفنت رأسي فيها لأدفن بالأحرى صوتي.. ونشيجي يعلو بحرقة وقد اختلطت دموعي بعرق الصيف الذي أغرق وجهي المحتقن، فصار وجهي كله يلسعني وجوف حلقي يؤلمني من كتم بكائي.

حالما هدأت قليلاً غسلت وجهي بماء بارد. ثم جلست على مقعد الحمّام فيما دموع صامتة لا أقوى على منعها تذرف.

تذكرت كلاوس.

ذلك الصغير الذي رفض اللعب معي لأنني ـ كما نعتني حينها ـ سوداء.. كم هو سهل أن يطلق الدنماركيون مثل هذا التعبير على الأجانب، حتى أولئك الذين يماثلونهم بياضاً.

ولم أدرِ حينها لِمَ تذكرت كلاوس في خضمّ هذا!

ربما لأني قد رُفضت مرة أخرى، يطلب اليوم ذلك الرجل البغيض من ابنته الغبية ألا تلعب معي، ويقول عن أبي أنه سكّير ثم ينعت أخي بالعابث والبعثي، وأختي بالساقطة. وصوت الأم

www.aljsad.net

الخبيث يرن في أذني قائلة بعجرفة إن أهلي ليسوا مثلهم. . ماذا تراها قد عنت بأن أهلي ليسوا مثلهم؟

حتى الآن لا أفهم مقصد تلك المرأة.

ما هو معنى أن نكون مثلهم؟ بل لماذا يتوجب علينا أن نشبههم أصلاً. ؟

لم أفهم الحقيقة التي انطوت على ما حدث حينها. والشيء الوحيد الذي وعاه عقلي، عقل فتاة في الثانية عشرة، هو أني أُرفض للمرة الثانية في حياتي. . رفضني كل من اعتقدت بأنني أنتمي إليه. فإذا كنت أنتمي إلى الدنمارك فلقد رفضتني مسبقاً، وإذا كان انتمائي إلى العراق فها هو الآخر يلفظني بقسوة أكبر، كلاهما لا يحبّذني، فلست ذات أهمية قصوى تبعث على الاستزادة مني.

سألت نفسي، أتراه موجوداً أصلاً ذاك الذي سيقبلني؟

إن وجد حقاً، ما تراها حدود ملامحه من فعله؟

وهل لي الثقة بشيمه؟

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(٥)

لم أكن قد خططتُ لغربتي هذه. عدتُ إلى البيت في واحد من الأيام التي أعقبت تخرّجي في الجامعة، لأجد والدي وقد حضّر كل ما يلزم لسفري إلى تركيا دون أدنى علم مني. . حتى حقيبتي كانت جاهزة ومحشوّة بملابس لم أخترها بنفسي.

في الواقع، حدث أن حثني الوالد على السفر مراراً، ولاسيّما أن أخوين لي كانا قد غادرا العراق من قبل، لكنني كنتُ أرفض متعللاً بدراستي. آنذاك كانت الشهادة مهمة بالنسبة إليّ أنا الذي لم أعد أؤمن بها اليوم، وأكاد أنسى كل ما تعلمته. وأظن بأني كنتُ أماطل فحسب، لأنه لم تكن بي رغبة حقيقية لمغادرة العراق. ولما انتفت حجّتي، وجدتُ نفسي بين ليلة وضحاها في تركيا تتقلّبني ضمائر المهربين حتى وصلتُ إلى الدنمارك. . أول بلدٍ يقدّم اللجوء أنجح في الوصول اليه.

حين حصلتُ على الإقامة رموا بي إلى مدينة نائية في جزيرة «يولاند»، العرب فيها كانوا آنذاك يعدّون على أصابع اليد

www.aljsad.net

الواحدة. لم ألعن حظي وأنا أجد الغربة تصيبني منذ البدء بالبكم والصمم، ملقية بي في مدينة لا أفهم ولا يفهمني فيها أحد. لم ألعن حظي، بل عالجتُ بُكمي وصممي بانكبابي على تعلّم هذه اللغة الجحود التي لا تستقر كلماتها في الذاكرة إلا لتتسرب منها من جديد.

قيل لي: تكلّم الدنماركية وكأنك تضع في فمك حبة بطاطا ساخنة، هكذا ستلفظ الكلمات أفضل.

أجبتُ بأنني رجل مهذب، لا أتكلم وفمي ممتلئ بالطعام. آثرتُ عوضاً عن ذلك أن أركّز على اللغة ذاتها، دون أن أعير اللُّكنة الكثير من الاهتمام، واستمتُّ من أجل جعل الدنمارك تفهمني وأفهمها، حتى بدأتْ بالفعل تجيد الحديث إليّ بينما أحاول أنا أن أُحسن الإنصات.

في تلك البقعة النائية من الدنمارك حيث ما من عرب لأخالطهم تعلمتُ اللغة أسرع.. بل إنني اكتشفتُ أن لغتي الدنماركية أُصيبت بشيء من العطب منذ انتقلتُ إلى كوبنهاغن، فالعرب هنا كثيرون بما لا يترك لي مجالاً لمخالطة الدنماركيين كما في السابق.

لأنني عراقي مغترب، فلست بحاجة إلى سرد قصة ما. بين هجر الوطن، وطريق الغربة العاثر ثمة ما يصل العراقيين بعضهم ببعض، فكل تجاربهم، وقصصهم وأحلامهم تتشابه ما إن يوضعوا على هذا الطريق.. ولعل البعض يقع إعياءً، فيما البعض الآخر يتابع بمثابرة نادرة، وغيرهم يحلم بالعودة ولا يعود،

www.aljsad.net

فيراوح مكانه. لعل هذه خيارات متاحة لما يمكن أن يحدث!! إلا أنني قررت مذ حطّت قدماي على أول الطريق، أن أعامل الغربة كما لوكنت سأعامل امرأة، مناغماً ما بين الحذر الشديد والإقدام الأرعن. ولأنني لم يحدث أن تعاملت مع إناث بطرق مباشرة، شاملة وطويلة الأمد، وجدتني أعامل غربتي مثل امرأة مسترجلة.. حين تتجرأ على رفع يدها بوجهي أمسك بها بقوة قبل أن تهوي عليّ، وأبقى قابضاً على معصمها حتى أراها تتهالك كأني قابض على عنقها.. وفي النهاية أُفلتها ببساطة، فهي امرأة، ولو كانت رجلاً لقتلته! هكذا كانت نشأتي ذكورية الإيقاع قد تركت بصمة جليّة على حياتي بأسرها وليس فقط تعاملاتي.

أما كان غريباً أنني لم أشاهد ـ حتى كبرت ـ ثياب أنثى عن قرب، فضلاً عن لمسها. ولم أعتد أي صورة أو فكرة ناعمة وأنا محاط بالخشونة من كل جانب. بل إني ما اعتدت مخاطبتهن، فالحديث معهن كان أمراً نادر الحدوث، فحتى قريباتي كنت أتحفّظ عن الكلام معهن بسبب التقاليد التي كانت تتبناها الأسرة، وبسبب الخجل منهن، ذلك الذي رافقني طويلاً وتخلصت من معظمه بصعوبة.

كنت خجولاً بالفعل، رغم أن الخجل بدا صفة مستغربة فيّ، إذ إني كنت أخفيه قدر استطاعتي خلف صمتي وشيء من الصرامة التي كنت أتعمد رسمها على وجهي.

فتى خجول! ورغم هذا وقعت في الحب في سن مبكرة جداً.

www.aljsad.net

هي ابنة خالتي، كانت آنذاك في العشرينيات من عمرها في الوقت الذي لم أتعد فيه الثانية عشرة.

كانت داليا قد تربّت في بريطانيا، فوالدها دكتور مهندس حصل على الدكتوراه من إحدى جامعات لندن، فحدث أن نشأت هناك قبل أن يعودوا للاستقرار في بغداد بعقلية أكثر استعداداً لنبذ تقاليد الأسرة.

حين كانت تأتي لزيارتنا كنا نحن الستة نربض في البيت من أكبرنا إلى أصغرنا. نتحلق حولها متابعين حركاتها غير عابئين بأمي وهي تنهرنا كي نبتعد عنها.. وداليا تبتسم لنا بحنوّ واضعة في حضنها أخي الأصغر الذي كان يبدو مستقراً تماماً.

تقول لها أمي:

ـ لو أنك لا تكبرينهم عمراً لحجزتك لواحد منهم.

فتلقي داليا برأسها إلى الوراء ضاحكة بدلال أخّاذ، ليرتفع ذقنها الصغير المدبّب في الهواء بشموخ لا يناسبه لكن يستحقه تماماً.

كانت رقيقة جداً.. أكثر مما ينبغي لي أن أحتمل.

لعلّها أرقّ مخلوقة عرفتها. كانت غزيرة التفاصيل، لأبسط تفصيلة فيها قصة، فبات عليّ أن أفككها لأحبها، أن أنتبه لكل صغيرة فيها، وأرشفها على مهل. أنوثتها الطاغية لم تكن تسري في عروقي، بل تقطر في دمي قطرة قطرة، لتزيدني انبهاراً بها في كل ثانية أكثر من التي قبلها.

لم أفاجأ بها لأجرعها مرة واحدة وأمضي عنها، بل لُقمتها.

www.aljsad.net

وفهمت روعة أن أُقبل على امرأة بمهل، أتابع تفاصيلها الصغيرة لأكوّنها منها ثم أتركها تتسرّب إلي.. منذ ذلك الحين صرت أفضل أن تغمرني المرأة بتفاصيلها الأنثوية على أن تقتلع عينيّ بجمالٍ صارخٍ.. ومنذ ذلك الحين عشقت التفاصيل.

حين كانت داليا تتحرك، كنت أرقبها فاغراً فمي غير مصدق أن لفستانها ذلك الحفيف المهلك، متعجباً من كوني لم أُعِر من قبل الصوت الناتج من حركة الملابس أيّ اهتمام.

إنها التفاصيل.. رباه.. الساعة الرفيعة في معصمها الناعم، عقد اللؤلؤ حول جيدها حليبي اللون، ذؤاباتها التي تبدو أكثر شقرة، التحول المفاجئ في ملامحها حين تبتسم مرة واحدة، الطريقة التي تلقي بها كلامها فتتسع عيناها بجدية، المفردات البغدادية التي تُكثر من استخدامها حين تختار أن تمرح فجأة، الأفكار التي تنبثق من كلماتها، القوة التي تطرح بها رأيها، تنهدات صدرها المتوالية، إيماءاتها الخجلة، خط الكحل البُنّي حول عينيها العسليتين.

همست لأخوتي أن داليا تضع كحلاً بُنيّ اللون، فتعجبوا من قوة ملاحظتي، وقال عمّار، أكثر إخوتي شقاوة وجرأة وهو يرمي بنفسه على الفراش بوضعية مصلوب:

ـ أي كحل، يا معوّد.. يسحرني جمالها فلا أكاد أركز.

لزمت الصمت التام أمام ملاحظة كهذه، خشية أن يتسرب شك ما لإخوتي، شك بأنني أحبها، فلم أكن قد تأكدت حينها

www.aljsad.net

كما أنا الآن من واقع أننا قد أحببناها جميعاً بطرق مختلفة، دون أن يعلم بعضنا ببعض، أو نفصح عن ذلك.

وحدي أنا كان حبي لداليا مميزاً، أو هكذا أدّعي. إلى درجة أني بكيت مرة بسببها، حين لم يحتمل قلبي ما حدث. كنت عائداً من اللعب خارج البيت ففوجئت بوجودها عندنا، تجلس في غرفة الضيوف مع خالتي التي قدِمت معها. نادتني بعذوبة حين رأتني أدور في البيت بحثاً عن أمي:

ـ رافد.. تعال.. ألا تسلّم علينا.

اتجهت بخطى سريعة ولكن مرتبكة نحو خالتي أولاً، فقبّلتني على وجنتي وهي تصلّي على النبي وتدعو الله أن يحرسني. ثم عدت أبتعد بخطى أسرع فإذا بداليا تناديني من جديد:

ـ رافد.. عابت لك! وأنا لا سلام لي؟!

دلالها قاتل، مجرم، يسفك دون أن ترمش له عين.

اتجهتُ نحوها مادّاً يدي، فأخذتْ كفي في كفها وانحنت عليّ مقبّلة كلتا وجنتيّ. تسمرت في مكاني. لوهلة اعتقدت بأن قد أصابني شلل. اقتربتْ مني، شممتُ عطرها، لامستُ بشرتها، ارتعدتُ، ارتعدتُ.. ثم فررت إلى غرفتي وبكيت.

لشدّ ما طغت أنوثتها. صدري الصغير آنذاك لم يتحمل كل هذه الأنوثة المترفة بدلالها وتفاصيلها. بكيت حين وصل وعيي بأنوثتها حدّه الأقصى. والغريب أني يومها عرفت أن داليا ليست سوى تدشين أول للشغف بأنثى، وأن الكثير ينتظرني مستقبلاً، ربما أصعب احتمالاً من داليا نفسها.

www.aljsad.net

بكيت من شدة أنوثتها ولم أبك يوم تزوجَتْ.. فقط اغتظتُ.. اغتظتُ بشدة. وكدت ألكم عريسها ليلة العرس وأنا أقدم له التهاني حين حل دوري في طابورٍ متكونٍ من أشقائي.. عشاقها.

وعلى الرغم من زواجها وفارق السن بيني وبينها، وفضلاً عن ذلك، بُعدها الذي صار حتماً مع حياتها الجديدة، بقيت داليا في عينيّ الأنثى الأمثل والأكمل. وبقيت معي عادة أن أتابع تفاصيلهن جميعاً بفضول لا يشبع.. حتى أني تزوجت معتقداً بأن جذوة فضولي ستخبو ما إن تحتل بيتي امرأة رباعية الأبعاد.. بوجودها ستمتد أمامي مساحة هائلة من متابعة التفاصيل.

وزوجتي امرأة ذكية، سرعان ما وجّهت نحوي كل ذكائها لينحسر شيئاً فشيئاً عن الكثير من الأمور الحياتية الأخرى ويسلّط عليّ وحدي. وتركتني أحار في أمرها وهي تبدو وكأنها تتغابى في ما هو بديهي بينما تتابع أفعالي وأقوالي بفطنة، أنا نفسي لا أحبّذها.

شذى رقيقة مثل قشة، هادئة لا تكاد تُلحظ، ومتناهية الشفافية. كل شيء فيها شفاف حتى جسدها، وقلبها، وجسدها بلونه فائق البياض، والذي يخيل إليّ أحياناً أني أرى عبره، وغالباً ما أنفقت ليالي الأرق باللهو بمتابعة شرايينها البائنة.. مرة تتبعت شرياناً من فخذها، فانتهى بي إلى ذقنها.

أما قلبها! فيكاد يثقب من شدة شفافيته، التي لا تسمح له

www.aljsad.net

بالانجراف فضلاً عن المغامرة في الحب. شفافيتها الزائدة تحقنها بخدر غريب، فتتركها هائمة لا أفهم لها قولاً أو فعلاً من تلك الأقوال والحركات المائعة التي تصدر عنها.

أحياناً أتساءل إن كان لها قلب تثار به أصلاً، فهو شفاف حد انعدام رؤيته، وتحسّسه.

في البدء، كان لا بد لي بين حين وآخر أن أقبض على معصميها وأبعدها عن عنقي برفق قائلاً:

ـ ما هكذا يحب الناس.

فتجيب مبتسمة ابتسامة فارغة ونظرها معلق بشفتي:

ـ هكذا يعشقون.

ثم تعود ترمي بنفسها على صدري، فأعود لأبعدها:

ـ شذى.. أرجوك كفى.. ستغفين فوقي.

في بداية زواجي سعدت سعادة لا توصف بها. كل التفاصل الصغيرة أمامي، طوع يدي، وفي مرمى بصري أينما التفتُّ.. وكنت أسألها مثل طفل عن كل شيء.

ـ ما هذا؟

فتجيبني وهي لا تفهم إن كانت تزوّجت غبياً أم غشيماً إلى هذا الحد:

ـ إنه كرْيم!!

أسأل وأنا أقلّب العلبة في كفّي:

ـ ولماذا لديك أكثر من واحد؟

www.aljsad.net

تردّ بوهن:

ـ لأن هذا كريم نهار، وذاك كريم ليل، هذا للعيون. . وهذا لليدين، هذا ليس كريم هذا ماسك. . و. .

بعد مرور أقل من سنة شبعت من التفاصيل التي تلقفها عيني، وصرت أبحث عمّا هو أكثر. أبحث عمّا يجعلني أطّلع على وجهة نظرها الأنثوية. كانت داليا قد علّمتني أن النساء كائنات مثيرات للاهتمام في اختيارهن لألفاظهن، في تعابيرهن، في أفكارهن، لكنها ويا للأسف لم تعلمني أن هناك من لا يثرن أي إغراء معنوي يذكر في رجل يتابعهن.

بعد سنة من زواجي لم أجد شيئاً جديداً ألاحق زوجتي بالسؤال عنه. . واكتشفت بالطريقة العملية والقاسية جداً أن زوجتي ليست من أولئك اللواتي يثرن اهتماماً دائماً. . لم تعد شذى تُغري فضولي مذ بدأت أكتشف أنها مسطّحة أكثر من اللازم.

وببساطة تنصّلتُ في البداية من اختياري لها، وألقيت بالسبب على الغربة التي جعلتني أمام خيارات ضيقة. هؤلاء الفتيات، نشأن في المهجر، ولسن مناسبات لنا نحن «المصقولون عراقياً» كما أحسنت هدى بوصف أخيها.

وزوجتي منهن. تربّت هنا وترعرعت تلوك كلامها بلكنة ملتوية وتتكىء على نصف عقلية أوروبية، فيما تترك للجانب العراقي فيها ما تبقّى من عرج عقليتها. . فكيف انتظرتُ إذن أن تثيرني كما أطلب.

www.aljsad.net

وهل لي أن أشفق على زوجتي، مردداً أن لا ذنب لها؟ طيب، وأنا.؟!

أعترف أني رجل متعب ومتطلب.

لا أرغب في ما هو مجرد امرأة هادئة، وجميلة ومرضية، وأحبذ من ترضيني لما هي عليه. ولم يعد بي حِلٌ في امرأة تجاهد إرضائي، وتصوغ إسعادي، بل أطلب امرأة منسابة تتدفق بين يديّ بصراحة لفظها، وعفوية لفتاتها.. في علاقة أكون فيها الساعي والطالب.. أكون سيّدَ عشقي بحق، فلا تبتدئني زوجتي بكل شيء، من الإيعاز الذي ترسله لأضع ملعقة الطعام في فمي وحتى الفراش الذي يضمني وإياها. وصولاً إلى مطبخها العامر.

أكاد لا أصدق أنني أشاطر حياتي امرأة لها مثل هذا الأسلوب للتواصل معي. فأنا بالتأكيد غير موافق على أن أغدو اختباراً لمطابخ متعددة، أي أن يُعبَّد طريق قلبي عبر معدتي، وأرفض رفضاً مطلقاً أن أُجرَّد من إنسانيتي لتختزل رجولتي في شرّ وعاء.

شذى التي ما أثار اهتمامها كأس ماء قبل زواجها بي، كرّست كل حنكة أنوثتها في المطبخ. أكلاتنا العراقية كانت على رأس قائمة طعامها الطويلة. تريد المسكينة أن ترضيني، أنا زوجها القادم من العراق وطعم بارود الحروب لم يبارح فمه بعد.

لكن حتى الساعة لم تفهم شذى أن طبختها وإن كانت عراقية الملامح في ظاهرها فهي تفتقر إلى النكهة التي تختلط في طعامنا حين يُصنع بأيادٍ عراقية بضّة، اختلطت فوق راحاتها رائحة «حوايج الكليجة» «بالسمك المسقوف».. وقد شاء سوء حظي أنا

www.aljsad.net

ـ أو لربما حسنه ـ أن أختبر هذا من مصدره الأصلي فكيف ليَ ازدراد طعامها المهجّن، والمصنوع بالزبدة الدنماركية ؟!

المفارقة أني مع كل عناد فضولي العتيد نحوهن لطالما نبذتُ عن ذائقتي المتفرنجات من فتيات جامعة بغداد حيث التقائي الأول بعالم تنتثر فيه النساء وتنبثق امرأة من تحت قدمي مع كل خطوة أخطوها في حرم الجامعة. .كيف وجدت نفسي إذن أتزوج من لا تعلم بأي لون تصطبغ بغداد، راجياً منها أن تلجم نهمَ فضولِ إنسانيتي بأسرها ؟!

أبث شكواي هذه فقط لأني قد تعبت من حياة تأبى أن تتشكل كما أبغي وأتساءل إن كان تعبي وليد الأقدار التي لا أمان لي فيها، أم أنه وليدي وربيبي أنا فحسب؟!

إذ لطالما كنت تعِباً.

والغريب أن تعبي كان يُؤثر راحتي فيقرر عني ويسوّي التعرّجات التي تنشأ في صدري بسببه. . يبسطها بروية، وأنا لا صبر لي عليه. غير أني ألِفته حتى سمحت له أن يختار عني كبرى قرارات حياتي تلك التي أتت معظمها على غير ما أشتهي. فلا دراستي، ولا عملي، ولاغربتي أو حتى زوجتي أتت بحسب رغبتي. تعلمت معه ألا أعتمد على غيري طلباً لراحة ما، وآمنت أن التعب مجهودٌ فردي لا يحتمل المباركات الجماعية. هو بعضه معشوشب والآخر متصحر، وأنا أضع قدماً هنا وأخرى هناك،

www.aljsad.net

وتتباين مساحتا تعبي هاتان مع اختلاف ليلي ونهاري، فأجدني أتمايل راقصاً، ساعة تتقاطع ساقاي وأخرى تنفرجان فلا أكاد ألمّهما، وساعة أميل بجذعي وأخرى أنتصب مثل فارس قديم.

عجباً..!! كيف تمكَنتْ «هي» إذن من قياس بوري لتسقيه وتسكنه وارف ظِلالها. أم كيف شبَّرت مساحة عشبي بهذه الدقة، لتمضغه في النهاية وتبصقه أرضاً؟!

ما الذي جمعته وطرحته ثم ضربته في ناتج شخصيتي، لتعادلني في النهاية حسابياً، فتغلق عليّ المنافذ وتحبسني ثم تمطر نفسها عليّ غِلاً، رحمةً، أنوثةً، ولهاث امرأة.

وأنا خائف. خائف من الغرق، وهي لا تحبس مطرها عني، إلا قبل غرقي بقطرة.. !!

أكانت عالمة غير معلمة بي؟! أم أنها درستني واختصت في فيزيائي وكيميائي قبل أن تجمح نحوي، رامية قُفّاز روايتها بوجهي.

www.aljsad.net

(٦)

كان لا بد أن تمر سنوات كثيرة لأعرف أن اغترابي يُعدّ عَوقاً، ولدِتُ به وتأقلمت معه دون أن أعرف لذة انعدامه.

لم أكن طبيعية. لكنني أيضاً لم أكن أعرف أني لست طبيعية.. مثل أعمى ولد لا يدري ما تعنيه حاسة النظر، ولم يسمع عنها قبل أن يبدأوا بتهيئته للتواصل بطريقة فريدة، تخص من هم مثله فقط.

أنا أيضاً هيّأوني.. كلهم فعلوا ذلك،.. البيت، المدرسة، الشارع، الدنماركيون، الجالية الأجنبية، الجالية العربية، الجالية العراقية.. كلهم ساعدوا في تهيئتي على التواصل وفق عاهتي.. وتعلمت بسرعة.

لكنني بقيت لا أدري ما يعنيه أن أرى الدنيا دون إعاقة الغربة.

لم أكن لأتخيل أن أكون في مدينة يتحدث كل الناس فيها إليّ بلهجتي العراقية.

www.aljsad.net

لـم أكـن لأتـصـوّر خـروجـي إلـى الـشـارع دون أن أتـسـلـح بـ«كليشيهات» جاهزة أبخّها في وجه أول دنماركي أشك في عنصريته.

كيف لي أن أعيش بعيداً عن عقلية الاغتراب؟! بعيداً عن لونه الذي طبعني به!

كيف سأقوم على قدمين صلبتين بعد أن ارتخت للمهجر ركبتي؟!

لـم أكن أدري ما يعنيه أن أعيش أكثرية بعد أن عشت جلّ حياتي أقلّية.

الآن أعـرف.. بـيـد أنـي فـي تـلـك الـسـن، كـنـت مـا أزال لا أعرف.

لا أدري كيف تتشكل المجتمعات. فأنا وجِدتُ لأواجَه بمجتمع كبير يحاول ابتلاع مجتمع آخر أصغر منه.. المجتمع الذي كوّنته الجالية العراقية بطريقة تراكمية، أي أنها كوّنته فقط لأن الزمن مرّ جالباً معه أعداداً أكبر من العراقيين الذين لجأوا إلى الدنمارك.

كان لا بد أن يوجد مجتمع ما للعراقيين بفعل الزمن والعدد، فوجد.

ويبقى الخيار الصعب قائماً.. إما أن تكون فيه وإما أن تكون خارجه.

حين تختار أن تكون فيه سيواجهك خياران جديدان، فإما الليبرالي على رأسه الشيوعيون، وإما ذلك المحافظ حد التشدد

www.aljsad.net

وعلى رأسه الإسلاميون. . فلقد اختار العراقيون لأنفسهم هنا، أن تكون الوسطية شبه معدومة.

في الثمانينيات عاشت أسرتي في عزلة، لم تحاول خلالها اكتساب أصدقاء أو حتى معارف.

وكان السبب في هذا عائد لأبي، إذ كان لا يزال يرفض الايمان بأي شيء، ويرفض الارتباط بفئة تؤمن بمبدأ قد تفرضه عليه كحالة مسلّم بها نتيجة له.

لكن مع حلول التسعينيات، اجتيحت كوبنهاجن عراقياً، فتململت غربة أمي. . وحدتُها التي أصابتها بكآبة موسمية تقبل غالباً مع فصل الشتاء، لتكون ناصعة مثله، أصبحت مستحيلة في بيت كئيب الطلعة أساساً كبيتنا. . فدخلت أمي في هذا الصغير المغلق، شاهرة أظافرها استعداداً للتشبث به إذا ما حاول لفظها.

ولعله كان عليها اختيار الجانب المتحرر منطقياً لا اجتماعياً. . إلا أنها لم تفعل.

لا أعرف لِم بالضبط. لكني أفسّر الأمر بأن أمي كانت تماشي الموضة الاجتماعية السائدة. . فإذا كانت سبعينيات القرن الماضي هي الفترة الأشد تحرراً وجموحاً، فإن نهاية التسعينيات وبداية الألفية الثانية هي موضة الالتزام الديني بلا أدنى شك. . الغلبة للأقوى، والسلبيون من أمثالنا يماشون الأقوى غالباً.

استنفرت أمي لاتخاذ تغييرات جوهرية.

أشاعت بين رفقتها النسائية الجديدة أنها ترغب في تزويج

www.aljsad.net

أختي. وحيلة المصاهرة هذه حيلة اندماجية قديمة لم يُعدَم عقل أمي العودة إليها.

بادرتها إحدى النساء قائلة:

ـ لكن نخيل لا ترتدي الحجاب، وسيكون نصيبها أفضل إن فعلت.

ارتاعت أمي من فكرة احتشام نخيل التي كان لها مطلق الحرية في ارتداء ما تشاء، ولن ترضخ بسهولة لقرار مفاجئ. . ثم ارتعبت حين تبين لها أن حظوظ نخيل في زواج مناسب ستنخفض دون حجاب.

ـ صعبٌ فرض ارتدائه عليها.

ثم استدركت:

ـ لكن من المؤكد أنها سترتديه بعد الزواج. . إن شاء الله.

قالت المرأة وهي تتنهد، وترفع حاجباً رفيعاً وترخي آخر:

ـ عليك أن تقبلي ما يجود به الحظ إذن.

تزوّجت نخيل. . دون أن تتحجب.

لم يكن صعباً إقناعها بالزواج كما تخوفت أمي، ولاسيّما أن نخيل من اللواتي تنتهي أمانيهن ولا يعدن يطلبن من الدنيا شيئاً ما دمن أصبحن على مرمى حجر من أن يُكنَّين بـ«أم فلان». . غاية أماني نخيل وأمثالها هي أن تضع يدها في يد ذلك «الأبو فلان» وتدور به هنا وهناك حاملة معها لقب متزوجة.

www.aljsad.net

تزوجت نخيل في التاسعة عشرة من رجل يكبرها بسبع سنوات.

كانت فرحتي هادئة كعادتي، ومشاعري خاوية. لم أكن قد صدقت بعد أن رجلاً غريباً سيدخل أسرتي الصغيرة، ليمكث أبداً.. وبقيت لفترة طويلة أنتظر أن يخرج باسل من حياتنا، لأسلّم أخيراً بحتمية وجوده حين رفض أن يُقلع عنا.

استقرت نخيل في مدينة تدعى «رينغ ستيد» حيث يسكن ويعمل زوجها، والتي تبعد أكثر من ساعة عن العاصمة.. ليصبح البيت من بعدِها أكثر هدوءاً ورتابة.

بعد ذلك مباشرة أصرّت أمي على نخيل أن تتحجب، فلم تعارضها كما توقَّعتْ، بل قالت وهي تهز كتفيها بقلة اكتراث:

ـ مو مشكلة.

ويبدو أن أمي كانت موطّنة نفسها على مشادّة من نوع ما فهددت:

ـ لن تحتجي بعد ذلك؟

ـ لا.

ـ ولن تخلعيه؟

ـ قلتُ لا.

ـ منين إجاج هالعقل؟

ردّت وهي تنقل عينيها إليّ:

ـ ما دمت تزوجت و...

www.aljsad.net

قاطعتها أمي بنبرة صارمة:

ـ وهل كنت تنثرين شعرك لأجل الزواج يا قليلة الأدب؟

ضحكت نخيل:

ـ لم أقل ذلك.

رمتها أمي بملعقة الشاي التي كانت بيدها، فتفادت نخيل الضربة مختبئة خلفي، وضحكها يشتد.. أوقعتني ووقعت معي معتنقة إياي، ودغدغتني لتغرق هي في الضحك، ثم داعبت أمي بقولها:

ـ لا أدري إلى متى ستُبقين بوصلتك موجهة نحو الشرق البالي؟!

ثم أكملت بالدنماركية هامسة لي:

.. نحن نعيش في الدنمارك، بحق السماء Vi bor jo i Danmark, for satan-.

اطمئنت أمي إلى أنّ خططها لدمجنا مع الجالية بدأت كلها تتكلل بالنجاح. فخلال وقت قصير كنا قد أصبحنا من روّاد المجتمع العراقي المحافظ.. ولم يكن الأمر يتطلب الكثير.. فقط بعض المظاهر، كارتداء أمي وأختي للحجاب، وحث أخي على ريادة بعض الأماكن الدينية من وقت لآخر، ويا حبّذا لو صلّى فيها، رغم أنه لا يفعل عادة.. ثم إخفاء أبي في البيت هو وأفكاره التي يرفض التخلي عنها مع زجاجات الفودكا التي يفضّلها.

www.aljsad.net

هكذا، ببساطة، سمح لنا المجتمع المتحفظ بمشاركته تحفظه.

* * *

انبرت إحدى النساء تسأل فجأة في واحدة من الجمعات التي باتت أمي تأخذني إليها بانتظام:

ـ ترى كم عمر هدى الآن؟

ابتسمت أمي:

ـ ستكمل الرابعة عشرة إن شاء الله.

صارت المرأة تمد الأحرف كأنها تعني شيئاً لا تقوله:

ـ نعم، لقد كبرت.. إنها كبيرة.

ثم استرسلت بسرعة وهي ترفع حاجباً رفيعاً ـ كلّهن لهن هذا الحاجب:

ـ ألم يحن الوقت لتتحجّب كبقية البنات؟!

أخذت أمي:

ـ أليست بعد صغيرة؟

ابتسمت المرأة بحاجبها وهي ترفعه وترخيه عدّة مرّات:

ـ بناتنا يتحجبن في التاسعة، وهدى تعدّت هذه السن بخمسة أعوام الآن.

سكتت أمي لتنظر إليّ كأنها تقيس الإيشارب على رأسي، وإذا ما كان يليق بي، وبادلتها أنا النظر باستسلام.

www.aljsad.net

هل يعقل أن تجبرني على ارتدائه؟ ألم يكفها أنها ذهبت هي وعماد إلى مدرستي لتطلب طلبات كثيرة دفعة واحدة.

أولاً، مراعاتي في الأكل، فلا ينبغي أن يقدموا لي اللحم أو لحم الخنزير.

ثم أقامتْ مشكلة كبيرة مع معلمة السباحة كي لا تجبرني الأخيرة على حضور الدرس وارتداء المايوه، رغم أني كنت أرتديه في السابق ولم يعترض أحد من أهلي على ارتدائه.

ثم عادت أمي لتطلب من معلمة الرياضة أن تسمح لي بعدم الاستحمام بعد الدرس حتى لا أضطر إلى خلع ثيابي أمام زميلاتي.

باختصار، حصل تغيير انقلابي في عاداتي كان كفيلاً بأن يستغربه زملاء الدراسة ويجعل مني مرعى خصباً لسخريتهم، لاسيما وأنه جاء مفاجئاً ولم يمهَّد له.

وأنا لا أقوى على معارضة أمي.. كانت شخصيتي في الصغر أضعف من أن تقف مستنكرة أو معارضة، ولم تواجه أمي مشاكل معي كون طاعتي لها كانت عمياء بحق ليس حباً فائضاً فيها أو إخلاصا مفرطاً لأمومتها، بل لأني كنت ضعيفة كقشة وسهلة مثل قضمة إجّاصة.

وأنا لم أكن أريد أن أتحجب.

ليس لأني لا أؤمن بالحجاب، ولا لأن السفور يحلو لي. فحتى ذلك الحين كانت مفاهيمي محصورة في نطاق ضيق جداً هو المدرسة حيث سأكون الوحيدة المرتدية للحجاب فيها كلها.

www.aljsad.net

ولو كانت زميلاتي في الدراسة يرتدين نقاباً، لكنت ارتديته مثلهن.

المشكلة في اختلافي! فالتميُّز غير محبّذ في بيئة متوازية القواعد.. وكان لا بد لغاية آمالي أن تكون حلماً بعيد المنال، في أن أماثل أقراني في حياتهم.

مساواتي بغيري فرضت عليّ مثلاً عدم إخبار زملائي عن أخ يظهر في الحياة فجأة. وحين حدث ورأوه معي، كان لا بد لي أن أنكره وأكذب.

ـ إنه يقربنا من بعيد.

لماذا أصْدُق وليس من زملائي من له أخ لم يره من قبل؟!

بات الخجل من ملامح اختلافي يلجم نفسي عن الحياة بأسرها.

أخجل حين تحار المعلمة في طعامي إذا ما ذهبنا في رحلة، وأخجل لأني الوحيدة التي لا تحضر درس السباحة، ولأني الوحيدة التي لا تستحم مع بقية الفتيات بعد انتهاء درس الرياضة، ولأنني لا أشارك الطلاب في السفرات التي يبيتون فيها خارج المنزل.

ولأنني الاختلاف الوحيد القائم في صف فيه بضعة عشر طالباً، كنت وحدي مبعث المشاكل، دون أن يكون لي ذنب فعلي لأكفّر عنه.

والناس لا يعينون غيرهم.

www.aljsad.net

كم تمنيت لو أن زملائي يرحمونني من أسئلتهم، من الفضول الدنماركي المعهود.

كانوا يديرون أعينهم الملوّنة في حيرة مفتعلة، متعمدة، كي يبرهنوا على اختلافي، ثم يطرحون أسئلتهم الغبية عليّ.. أسئلة تافهة، أكاد أجزم أنهم كانوا يعلمون بإجاباتها، لكنهم يتعمدون ذلك..!

من أجل كل هذا كان ارتداء الحجاب بمثابة كارثة بالنسبة إليّ.. وأنا بطبيعتي أستسلم للكوارث، فاستسلمت.

لم تتغير طريقة ملبسي بشكل لافت.. ولم تزد قطع القماش التي أرتديها عن تلك القطعة الصغيرة التي بدأت أضعها على رأسي وألفّها حول عنقي.

حملتُ اختلافي فوق رأسي وآثرت أن أبتعد وأنزوي. وعذاب تميّزي يمتص من شخصيتي الكثير، وانطوائي يمتص منها أكثر، فضعفت هي الأخرى أكثر وأكثر.

ليتني كنت في وطن أملكه، أفرض فيه شروطي وأُقصي كل من يتهمني بالاختلاف. أكون أنا السيدة فيه.. فهذا وطني، وأنا أقرر.. أنا أتحكم، وأنتم يا من هناك لا يعجبني اختلافكم هذا الذي تظهرونه فاغربوا عني.

لكنني لست كذلك!

أنا التي عشت جلّ حياتي أشتهي وطناً دافئاً، وأبتغي عمراً جديداً أعيش فيه ذلك الوطن.

يا إلهي!!

www.aljsad.net

ما هذه الأوطان التي تلفظ؟ تُلقي بك على قارعة غربة ضيقة، بينما ترفل هي في مساحات شاسعة من وطنيتها؟

ذاك الوطن المغبّر بالحروب لا يعرفني، ولا أنا عرفته. . . وهذا الناعم المرفّه لا يقبلني ولا يكاد يتعرف إليّ، رغم أني على مر سنين حياتي لم أعرف غيره بدلاً.

ما إن تتجرأ على تفضيل أحدهما على الآخر حتى تنشطر الكرة الأرضية إلى نصفين: واحد يبصق في وجهك لقلّة وفائك، والآخر يهلل للشيء ذاته. . لقلة وفائك.

الجمع بينهما غير مستحب. . مكروه أن تضيف لأصلك أصلاً، ومكروه أن تكاسر غربتك بماء فاترٍ مثل اختلافك. . لا تدع العراقيين يضحكون منك، لأنك ببساطة «بزر نستله»، ولا تدع غربتك تتسع وأنت تجافي أوروبا كلها بتمسكك بجذور شرقيتك.

ولائي كان جلياً بالنسبة إليّ. لكن الناس، كل الناس، طالبوني به في وقتٍ تبعثر مشاعري على بساط مراهقتي. . فعلمت أني ـ كي أعيش بسلام ـ كان لزاماً عليّ أن أجتث بلدي من قلبي. وعشت جزءاً من مراهقتي سعيدة بقرار اجتثاث المشاعر هذا. . ولم يتطلب هذا القرار شجاعة ما، بل على العكس جاء طبيعياً مثل رمشة عيني.

ولأني ركلتُ أرضية الأوطان الصلبة من تحتي وعرّيت أساسي، تخيّلت أن لا بد لي أن أرحل ما دمت قد تجردت من قاعي، إذ لن أبقى طافية في ما تبقّى من العمر، والرحيل وحده

www.aljsad.net

سيوقف نزفي إلى الأبد، وسيحجم غربتي ويصنع لي وطناً ضيقاً يحويني.. وطن كل مساحته متر في مترين، هذا هو الوطن الذي سيرضى بي.

حلمت بالموت فعلاً. كنت أصغر من أن أفكر فيه، وكان هو أعظم مني ولا شك.. لعلي تجرأت عليه تملقاً لعظمته، وأنا لا أتخيله يتنازل ليجيء حدّي ويقتلعني ببساطة من أحضان سنواتي الأربع عشرة؟

طلّته هائلة، انتظاره مرغوب، ومجرّد تفكيري فيه يعظّمني. إنني أكبُر معه ومع تفاصيله.

لا أدعي أني لم أكن أهابه أو أهاب المجهول الذي يحويه.. لكني كنت قد وصلت بتفكيري إلى الاستسلام لمجيئه الحتمي.. واكتشفت أثناء تعمقي في التفكير فيه أن الموت هو الحالة الوحيدة التي اتفق عليها كل الناس!

مدهش أن ينكر الإنسان خلقه ولا ينكر فناءه.

ولأنني طَلعٌ سكندنافي كان لا بد أن يكون موتي سكندنافي المعالم.

أنا ممن تربّوا على أن الموت مغامرة رائعة، تنتهي بموتي مرة أخرى فقط لأحيا من جديد.

في «نَنغيالا».. ما إن أغمض عيني حتى أصبح في «نَنغيالا»، وسيكون بانتظاري كل سكانها هناك، ولا سيّما «كارل ويوناتان قلب الأسد».

www.aljsad.net

في طفولتي قرأت قصتهما مراراً، وشاهدت الفيلم الذي صُنع على خلفية الكتاب مرّات لم أحصها. أحببتهما كثيراً، وبكيت في كل مرة كنت أقرأ قصتهما أو أشاهدهما يموتان. ثم تحمست بشدة لحياتهما الجديدة بعد موتهما.. كانا في عالم مثل عالمي، عالم عصري إلى حد ما، بكل رمادية العصرنة وكآبتها، غير أنهما انتقلا بغمضة عين إلى عالم تملأه الدهشة ما إن ماتا!

تحمست، تحمست بشدة.. ثم خبا حماسي على حين غرّة ما إن فكرتُ في وحدتي هناك.

إنني لا أعرف أحداً هناك! حتى جدي وجدتي لأبي لم ألتقهما وأتوقع أني سأعاملهما كأغراب إن حدث والتقيتهما.. كم سأكون وحيدة إذن!

ثم إني سأخلف أهلي وبضعة أشياء ورائي، كفيلة بتربية حزن عارم عليها.

أن تَفقِدَني أكثر الأشياء التصاقاً بي لأمر مريب على طبيعة الحياة ويدعوني لعدم الثقة بها.. كدت أبكي من وطأة الوداع وأنا أتخيل أن جسدي سيفارقني.

لم ألحظ من قبل أن الأجساد تفارق أصحابها حين تموت.. ليس قبل أن أموت خيالياً.

تموت الأجساد؟! هكذا، بهذه البساطة بعد أن رافقت أصحابها طوال حياتهم!

عشر سنوات، عشرون سنة، أربعون، ثمانون، مئة.. وما أنا بلا جسدي؟ روح؟!

www.aljsad.net

أي روح..؟! إنني لست سوى بشر وترهقني التفاصيل الحسية.. أما الغيبية فيصعب عليَّ فهمها إذا ما أصرّت على وجودها السرابي مكوِّنة لي أجزاءً قسرية من حياتي.

* * *

لم أمت في الرابعة عشرة.. رغم أنّ رفقة الموت كانت قد خلفت بصمتها الزرقاء على جبيني لتمتص حيوية سني مراهقتي.. كانت مراهقة خابية، متبلدة، إلا إذا كانت التغييرات التي حدثت خلالها تملك من الديناميكية ما يجعلها تحرّك قليلاً من رتابتها.

الغريب أني أحب الحديث عنها، وكالعادة لا أدري لماذا.. لذا أترك قلمي ليسترسل.

ماذا أذكر..؟!

مظهري الخارجي مثلاً.

إنه لا يفرق كثيراً عن الآن.. في الواقع لم يتغير شكلي كثيراً أثناء فترة المراهقة، ولا بعدها، إلا من بضعة مظاهر أنثوية ظهرت متأخرة وإن لم تكن حتى لتبدو عليّ لصغر حجمي.. فلقد توقف نموّ طولي عند الميتر وأربعة وخمسين سانتيمراً.. وإنه لأمر مثير للشفقة ألا أرث قوام والدي الفارع، كما فعل كل من عماد ونخيل. ورغم أني قد أبدو راضية بقوامي الصغير المنمنم، فلطالما تمنيت أن لو حظيت ببضعة سنتيمترات أخرى أضيفها إلى ثقتي.

عيناي سوداوان وشعري أسود، كنت في السابق أتركه طويلاً يصل حتى ظهري، وغالباً ما كانت أمي تحثني على قصّه.

www.aljsad.net

ـ الشعر الطويل لا يليق بقصيرة.

كانت تردد.

هكذا حتّمت أمي عليّ أن تتقاصر جميع معالمي. ولأني لم أكن أواجهها بالرفض كثيراً، حاولت التهرب من مواعيد الحلاقة التي نظمتها لي، لكنها حالما اكتشفت تهرّبي أجبرتني على الذهاب معها إلى حلاّقة بترت لي شعري الطويل بلا رحمة.

بكيت كثيراً وأنا أجلس بين يدي تلك المرأة ، أرى نعومة شعري تتساقط بكثرة على الأرض. بكيت بلا دموع ودون صوت، ذلك البكاء الذي يتصاعد في الصدر فيحرقه ويتوقف عند الحلق فيلهبه. .لم تقصص لي شعري فحسب بل قصَّت لساني وجزءاً بائناً مني.

بات شعري بعدها قصيراً، يطول قليلاً عند رقبتي ويقصر عن كتفي، مع غُرّة كثيفة أخفت عيني اليمنى تحتها. وساعد أنفي وفمي الدقيقان على إكسابي ذلك المظهر الطفولي الذي كنت أضيق به. . في حين أن بشرتي السمراء المشربة بحمرة، كانت تعلن بكل ثقة عن انتماءات أخرى لا تمت إلى البلد الذي أعيش فيه بصلة.

كنت حينها أُعرَف بالهدوء، ذلك الهدوء الذي يحمل الناس على إلصاق تهمة الأدب والأخلاق عنوة بي. ولما كنت لا أجيد مهارات تغدق عليّ مديحاً ما فقد أسعدتني تهمة كتلك، فتماديت فيها لأنطوي شيئاً ما على نفسي مفضّلة ألاّ أبحث عن أقران لي أتخذ منهم أصدقاء دائمين.

www.aljsad.net

بين حين وآخر، كنت أعير نفسي لصداقات وقتية، أعود وأسترد نفسي منها حالما أشعر بالاكتفاء، لكنها لم تكن تكفي طاقة عمري الغضّ.

الغريب أني فيما الذكريات تنهال عليّ دون ترتيب بأحداثها المتشابهة ورمادية قِدمها، كانت تتزاحم في رأسي ذكريات أشكك في مصداقيتها.. بعد مرور كل تلك السنوات لم تعد ذاكرتي بقادرة على كشف كذبي القديم.

أحداث تلك الفترة من حياتي يصعب عليّ تبيُّن زيفها من صدقها لفرط ما تدرّب كذبي.. قصصي الوهمية مثلاً تلك التي كنت أحاول من خلالها مجانبة زملائي وإثارة اهتمامهم. ترى أيها وقع فعلاً وأيها لم يقع؟ هل يعقل أن تبلغ جميع زميلاتي، وأنا لا.. أنا ابنة المناطق الحارة لم تزرني الدورة الشهرية إلا وأنا في السابعة عشرة، بينما هؤلاء الأوروبيات ذوات الدم البارد الذي على وشك أن يتخثر في عروقهن، بلغن طور أنوثتهن قبل أن يسمعن بها!

تُراني أُلامُ على كذبي في مسألة كهذه!

كان طبيعياً أن أتصرف من تلقاء نفسي حفظاً لماء وجه أنوثتي، فادعيت أمام زميلات الصف بأني قد بلغتُ، مثلي مثلهن.. حتماً، إنه لحق لي أن أتمرد على طبيعة جسدي، وأنا أجده يخذلني في أول امتحانات الطبيعة له..كم هو فاشل.

www.aljsad.net

حتى أني أحياناً كنت أدعي ألماً في بطني قبل بدء حصة الرياضة لتعفيني المعلمة من الحصة، تماماً كما كانت بقية الفتيات يفعلن، بينما صبري يكاد ينفد وأنا أنتظر اليوم الذي أصبح فيه مثلهن. مثلهن واقعاً وليس احتيالاً على معلمة الرياضة.

في الخامسة عشرة أخذتني أمي إلى طبيب أكد أن حالتي طبيعية لا مرضية.. وأنا التي اعتقدت بأنه سيعطيني دواءً يشهر في وجه أمي أنوثتي، خيّب ظني ولم يفعل.

حين تحققت أمنيتي أخيراً بعد ذلك بسنتين طويلتين لم أفرح.. بعد سنوات من الادّعاء عشت فيها كذبتي يوماً بيوم، أحسب الأيام حوالى ٢٤ يوماً أبدأ على إثرها ادعائي الصادق، فأتعمّد الذهاب إلى الحمام أثناء الدرس، أو أفتعل بعض الإعياء أو الاكتئاب. بل إن حقيبتي كانت تحتوي على فوط نسائية، أتصدّق بها على زميلاتي إذا ما كن بحاجة إليها، ثم أرفع واحدة وأنا أقول بقلة حيلة في تجمّع للفتيات في الحمّام:

ـ هذه آخر واحدة.. سأحتفظ بها لنفسي.

إنه لكذب يعلّمك حقاً كيف تكون صادقاً مع نفسك.

لم يكن أمراً غريباً أن يتدرج الزيف في حياتي حتى يتخذ بُعداً واقعياً مني، إلى درجة كنت أصاب فيها بألم في بطني وظهري بالفعل.. بل إلى درجة أن يصيبني اضطراب واكتئاب وعصبية ما قبل الدورة.

* * *

www.aljsad.net

أفكار عصيبة التحليل، ومواقف مبهمة النهايات، وتصرّفات تصدر عني، دون أن تكون مني حقاً.

ولا أفهم نفسي.. لماذا أفعل ما أفعل؟ لِمَ لا أصرخ مثلاً وقتما أشاء بدل أن أوجّه نظري إليّ وأجمع صرخاتي كلها في قلبي، ثم أركله بعيداً هو وغضبته التي يحتويها؟ لِم حين أثور يجن جنوني، دون أن أتجرأ على الإقدام على فعل شيء يذكر؟ ثم لِم أندم من بعدها؟ أندم إن كنت فعلت أو لم أفعل شيئاً! لماذا لا يرفق بي ضميري؟

لعلّ حادثة نيكولاس أبلغها تعبيراً عن استشاطاتي المفاجئة، تذكرني بنفسها دائماً، كأنها تشهدني عليّ.. على نفسي التي انتقمت فقط لتندم وتذلّ أمام ذاتها، إذ كلما تذكّرت هذه الحادثة يعتصر قلبي إحساس فظيع بالخزي من فعلتي، رغم أني كان من حقي أيضاً أن أكون مرتاحة تماماً تجاه ما فعلت.

كان يناير.. وكنت في المرحلة الأخيرة من الابتدائية، في الصف التاسع.

وقفت في الباحة المدرسية مع زميلة لي باكستانية تدعى «سيدرا». كان الدوام قد انتهى حينها بالنسبة إلى طلاب المراحل الأولى فغادر أغلبهم. أما طلاب المراحل المتقدمة ففضلوا البقاء في صفوفهم أثناء الاستراحة بسبب البرد والثلوج التي غطت الأرض.

السماء الملبّدة بغيوم سوداء كثيفة، المحرض الدائم على مشاعر الاكتئاب الملازمة لسكان الدنمارك، لم تكن لتدعو إليها

www.aljsad.net

أحداً في تلك الظهيرة، فاختبأ الطلاب في صفوفهم. . يومها كنت قد رافقت سيدرا لأسبوع، فكان لا بد إذن أن أشاركها وقفتها في الصقيع حين أرادت تدخين سيجارة.

فجأة ظهر نيكولاس الصغير شقيق كلاوس صديقي السابق. كان تلميذاً في الصف الرابع في ذلك الوقت، أي في حدود العاشرة من عمره، يشبه أخاه من ناحية النمش المنتشر في الوجه غير أن من الصعب تبيّن ملامحه التي طُمست بسبب وزنه الزائد. لم أتعجب من وجوده في هذه الساعة بعد أن غادر من هم في مرحلته، فلقد تعوّد بعض التلاميذ الصغار البقاء للّعب في المدرسة أو حولها.

كان نيكولاس يرتدي بنطلون جينز قديماً ومتسخاً ومبتلاً ـ وهي آثار لعبه بالثلج ـ وجاكيتاً سميكاً قديماً ومتسخاً ومبتلاً أيضاً. وقد أهملت كتفاه حقيبته المدرسية فتدلت حتى أسفل ظهره، وحشر طرف بنطلونه في حذائه الطويل العنق ربما عن غير قصد لأن الطرف الآخر كان يمسح معه الأرض أينما ذهب.

بدا أن الصغير كان يبحث عن بعض الإثارة في يومه ذاك، ربما بسبب الجو البارد الكئيب الذي أقعد رفاقه في البيوت، فما إن رآني حتى صاح بصوت تحشرجه شقاوته:

ـ البلهاء ذات الإيشارب.

وكان واضحاً أنه يقصدني أنا، فصحت بصوت قوي حازم:

Hold din kæft! . . . «أقفل فمك»

وصاحت سيدرا بإهمال:

www.aljsad.net

ـ إبتعد أيها الصغير الحقير.

فتابع كأنه لم يسمع وهو يخلع عنه حقيبته ويطرحها أرضاً:

ـ لماذا ترتدين هذه الخرقة؟ تبدين مضحكة جداً.

تحفزت وأنا أراه يجمع الثلج بين يديه المحمرّتين من البرد:

ـ إذا لم تصمت فسأملأ بنطالك بالثلج بعد أن أمرّغك عليه.. إبتعد من هنا.

رد وهو يبتسم بوقاحة وقد تكوّر الثلج بين يديه:

ـ سأخبر أخي إذا فعلتِ.

أجبته وقد أثارني تهديده السخيف لي:

ـ وأنا لديّ أخ أكبر من أخيك، لكنني لن أخبره، لأني سأتدبر أمرك وأمر أخيك بنفسي.. يا أنثى الخنزير.

كأنه لا يصدقني، عاد يردّ بهدوء:

ـ لماذا ترتدين هذه الخرقة على رأسك؟ ألأن الجو بارد؟ أم لأنك تعتقدين بأنك تعيشين في صحراء؟

ثم قذف بكرة الثلج نحوي ففوجئت، لكني صددتها بيدي.

قال ببساطة:

ـ هذه ثلوج وليست رمالاً.

هنا كان غضبي قد بلغ مرحلة جعلتني أركض نحوه وأدفعه في صدره فأطرحه أرضاً، ثم أركله وأنا أصرخ:

ـ أتمنى أن تخبر أخاك الشاذ، لأني سأفعل به ما أفعله بك الآن.

www.aljsad.net

وتدفّق سيل من الشتائم من فمي وأنا أركل رجليه وخاصرته، ثم جاءت سيدرا بإهمالها السابق نفسه تشاركني في ركلتين وهي تردد:

ـ دنماركي قذر.. لا بد أنك تعيش في حظيرة خنازير أيها الفلاح.

ثم عادت للفرجة.

غير أن نيكولاس لم يحاول صدّي بل بدا راضياً بعد أن نال الإثارة التي نشدها. وحالما شعرت بالاكتفاء منه تركته، فقام لينهض وهو يردد بطريقة منغمة:

ـ البلهاء ذات الإيشارب.

ركلته بقوة على مؤخرته فعاد ليقع، ثم نهض بسرعة وشبه ابتسامة وقحة على شفتيه، وركض نحو حقيبته والتقطها. وحينما ابتعد بما فيه الكفاية ليكون في مأمنٍ مني صرخ بصوته الذي تحشرجه شقاوته:

ـ البلهاء ذات الإيشارب.. بلهاء.. ساقطة.

ورفع إصبعه الصغير يشتمني به.

لا أفهم سبباً لتذكري هذا الآن. ربما كان من المفروض ألا أسرد هذه الواقعة.

لعله كان يجب أن أجنّب نفسي إحراجاً أنا في غنى عنه.. لكنني صدقاً لا أفتعل أمراً وأنا أكتب، فهذا مما أملته عليّ

www.aljsad.net

ذاكرتي، وهو من الحوادث القليلة التي تتعفن في الذاكرة فيصعب تنظيفها منها، لتبقى رواسبها شاهدة على مرورها القديم.

قد تنفركم قصة نيكولاس مني، لكوني ضربت طفلاً صغيراً، كل ذنبه أنه شقي.. واعلموا أني بإمكاني شرح الأسباب التي دفعتني لذلك.. لكنني لن أفعل.. سأترك تحليل واقعة كهذه وسبب سردي إياها لكم.. فلربما اخترعتم أسباباً مقنعة لضربي نيكولاس.. ولربما وجدتم أسباباً مقنعة أكثر لتشمئزوا مني.. قد يكون كل ذلك، لأن كل ما ستتوصلون إليه عن طريق تحليلكم هو برأيي سيكون صحيحاً.

عندما أمشي في شوارع كوبنهاغن الخالية وأقابل سكراناً أو حشاشاً يشتمني ويطلب مني بكلمات تترنح بين شفتيه مغادرة البلد لأنه ليس ببلدي.. مغادرة بلد لا أعرف سواه بلداً وملجأً حقيقياً لي.. عندما يحدث مثل هذا معي، يُثقَل ضميري بمشاعر المهانة والسخط من حياتي بأكملها.. ويؤنبني بشدة لأني لم أجرؤ على الرد ولو بكلمة واحدة أعيد معها شيئاً من كرامتي التي هدرت وهي تتراقص على شفتي سكران.

غريب أمر هذا الضمير الذي لا يرضى بهذا ولا يرضى بذاك.. فلا هو استراح وأراح عندما كنت في موقف خوّلني أن أرد بشتائم وركلات.. ولا هو راضٍ قانعٍ بسكوتي وابتلاعي لكلمات، تغرقني في عرق من الخزي.

www.aljsad.net

لا أفهم لِم حالما يسكر الدنماركي يبدأ بمطالبتنا بهجرة عكسية.. بترك كل شيء وراءنا لاسيما ماضينا والرحيل.. يخيفني خاطر أن أفيق ذات يوم في مدينة قد سكر جل سكانها إثر ليلة معربدة.

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(٧)

حينما تكون زوجاً مرّ على حمله هذا اللقب قرابة التسع سنوات ستكون مطالباً بإثبات نجاح زواجك واستمراريته، متمثلاً بطفل يشهر ذلك النجاح في وجه مجتمعك. وتبقى هذه المطالبة الجليّة في أعين الناس لتذكرك بالنقص الذي تعانيه حياتك بأكملها لا زواجك فحسب. لكن حينما تُسلب هذا الامتياز ربانياً لا عن إرادة ستتعلم كيف ترى أبّوة ما في أعين أطفال ما يشعرونك ببنوّة ما.

اعتبرت نفسي محظوظاً حين بدأت أرى بوضوح طفلة طلعت عليّ عبر كلمات تنتثر على ما هو مجرد صفحات، في وقت صارت تؤَرِّقني فيه هذه المسألة. وسرعان ما شعرت أني بت رهين هذه الصفحات حتى وقعت في شرك من حب غريب لشخصية الصغيرة، فأصبحت بالفعل أستنزف معها مشاعر أبوية لم أكن قد تعرّفت إليها بالطبع، إلا أنها فاجأتني بحقيقيتها وجدّيتها.

www.aljsad.net

لم أكن أدري أن فعل الكتابة، ولاسيّما تلك التي فيها سرد ووصف، يمكنه أن يخلق للكاتب ألواناً حياتية لم يكن ليعرفها، يسكنه فيها ثم يطرده منها، كما يشاء.

هذا كله وأنا مجرّد مترجم، فكيف لو أني صرت أبتكر وأخلق الأحداث والأشخاص بنفسي!

بخبث رجل فضولي، انتظرت أن تكون الرواية اعترافاً طويلاً لمكامن الأنوثة في هذه المسماة هدى. لكنها تُغرقني في الحديث عن طفولتها ولدهشتي الشديدة أجد نفسي متلهفاً ومتابعاً دون تذمر. بل اكتشفت أني مترجم جيّد، ذو صبر طويل، أُحسِن عملي، ويمكن أن يعتمد عليّ.

صرت أشعر برباط شديد المتانة يصلني بهذه الفتاة. وشيئاً فشيئاً انسبتُ مع حكايتها بحيث أصبحت بالنسبة إليّ واقعاً يكاد من شدة واقعيته أن يتلبّس خيالاً.. لكأني أراقبها، فهي مرئية ومحسوسة بالنسبة إليّ.. وكلماتها ترن في رأسي فأكاد أسمع صوتها حياً نابضاً.

أمرٌ عجيب! صار شعوري بها يتطور، فأحسّها حقيقة كاملة تملأ يومي، وليست مجرد طيف يزور خيال كاتب.

تقفز في قهوتي صباحاً، وتهرول بين قدميّ عند خروجي من المنزل متوجهاً إلى عملي.. تجلس إلى جانبي في سيارتي وتنغّم بصوتها الطفولي الرقيق قائلة بأنها قد ربطت حزام أمانها، فأطلب منها بلطف أن تغادر السيارة لأني ذاهب إلى العمل، فتهبط وعلى

www.aljsad.net

وجهها أمارات غضب مفتعل ثم تمرر خنصرها على شفتيها الرقيقتين علامة على مخاصمتي.

تتعثر خطواتها الدقيقة بين خطواتي وهي تستقبلني حين أعود إلى البيت، وتتراءى لي وهي تسألني ما إذا كنت أحضرت لها شيئاً معي، فأبتسم لها بحيرة وأقول بنبرةٍ عاتبة:

ـ كيف.. أنت سراب لا وجود له.

تردّ بجدّية لا تناسب طفولتها:

ـ إنني معك.

وإنها لكذلك.

إنها معي طوال نهاري وحتى المساء.. حيث تتسلل بهدوء إلى جانبي معلّقة ذراعها الصغيرة بذراعي داسّة رأسها في عنقي وهمسات أنفاسها تتردد عليّ فتدغدغني. وحين أفيق ولا أجدها تكاد دموع غيظ تطفر من عيني لحقيقة أن الصغيرة ليست سوى طيف هالك، وأملٍ لم يُخلق ليبقى أصلاً.

لقد اعتدتها، كما اعتدت شاي الصباح، وقهوة ما بعد الظهيرة، وسجائري التي تطلّبت مني الكثير كي أقلع عنها، فإذا كنت أصاب بالصداع حين لا أشرب الشاي صباحاً أو القهوة ظهراً، فإني أكاد أصاب بانفصام في الشخصية إذا لم تنشق الصغيرة عن شرنقة طيفها.

ولأنني اعتدتها، اعتدت الانكباب على قصتها لأستزيد منها أكثر، وأنا واعٍ تماماً لكوني متجهاً نحو إدمان من نوع فريد قد

www.aljsad.net

يكون الخلاص منه أكثر عسراً من غيره، إلا أنني لست بعابئ. . صرت أحتاج إليها بكل ما لا أملكه من أبوّة وبكل ما أملكه من رجولة.

ترى هل أصبحت مثل «بجماليون»، أخلق تمثالاً فأقع في حبه؟! صحيح أن وضعي مختلف لأني لم أقع في حب امراة كاملة الأنوثة، بل تعلّقت بطفلة أكتب عنها ما هو مجرد رواية. . لكن، ليتني كنت مثله، لكم أحسده فهو أكثر حظاً مني بلا شك، إذ كان لآلهته أن تنفخ الروح في تمثاله بينما أنا لا أملك حتى التمثال لتُنفخ الروح فيه. . ما لدي لا يعدو كونه طيفاً يومض ويختفي. تباعاً.

ما عدتُ أتخيّل أسلوباً آخر لحياتي بعد أن تعودتها بهذه السرعة الغريبة.

كيف سيتغير روتين يومي، بعد أن تترك صغيرتي قلمي وأوراقي لتنصرف خارج عالمي؟!

أتساءل غالباً ما إن أفيق من غيبوبة انجذابي الحاد. . فخرافة نعمة النسيان هذه لا تنطلي عليّ.

إحساسي وأنا أشهدها تكبر أمامي ومتابعتي إياها وهي تنضج، تلك نعمة حقيقية.

أُثمن وأقدّر لها كل ما زوّدتني به من أحاسيس، حتى قلقي

www.aljsad.net

عليها، ذاك الذي بدأ يأكلني وينهش جوفي بهدوء جارح. فإذا كان كل آباء الدنيا يستشعرون مشاعرهم تدريجاً مع تطور نمو أبنائهم فإنني استشعرت كل هذه المشاعر دفعة واحدة.. مثل جرعة مركزة من القهوة تفترش مرارتها لساني وتلذعه بشدة.

لي الحق باعتبار نفسي أباً، فأنا الوالد لهذا النص.. أنا والدها، فلولاي أنا أكانت لتعرف؟

ربما كنت الوالد غير الشرعي، بما أني مجرّد محوّل للنص من لغة لأخرى، لكن نصّها لم يكن ليرى النور من دوني!

ثم إنني لن أتحرّى المثالية لكوني أباً غير شرعي.. أبداً، هذا لا يهمّني إطلاقاً!

ما أفهمه وأعرفه، أنني أخيراً.. أب.

بل أبٌ فخور.. كلماتها فخري.. من ذا الذي له مثل كلمات صغيرتي؟!

ثقتي بها تتصاعد مع نضجها. وغضبي آنيّ، سرعان ما أتجاوزه بعد أن أنفّس عنه بنهرة أو اثنتين، حالما أجدها تتصرف على غير ما أتمنى.. كل هذه المشاعر تنطلق مني لتدور حولي وبي فيما أنا جالس إلى مكتبي أكتب، متعمداً جعل ذاتي محورها.

ولَكَم راودني إحساس خبيث بتحوير الأحداث المؤتمنة بين يديّ لتتناسب وما أشتهي من نهايات لطفلتي التي كبرت أسرع مما أبغي.

www.aljsad.net

يمكنني فعل ذلك بسهولة، بجرّة قلم بسيطة تكاد لا تذكر، فليس ثمة من يحاسبني. يمكنني ذلك، ولا أفعل، قناعة مني بأن الأولاد يأخذون نصيبهم على قدر أفعالهم لا على قدر تمنيات آبائهم.

حينما تباغت تفكيري هدى التي تراسلني، أشعر أنها لا تتطابق والصغيرة التي أعيش معها خالطاً الخيال بالواقع.. فعقلي الذي وطّن نفسه على هذا المزج يصعب عليه أن يرتكز على أحد الأمرين تاركاً الآخر إلى غير رجعة. من الصعب عليّ تخيلها واقعاً ملموساً مثلما كان صعباً عليّ في البداية الاقتناع بعدم وجودها. وأخيراً استسلمت للخلط بين وجودها واحتماله.. بل لقد أرضت هذه الحالة الجانبين فيّ، فاطمأنت نفسي لها.

عليّ أن أعترف بأني أفضّلها صغيرة أكثر.. ليتها تبقى على حالها الصغير هذا، لأني لم أهنأ بطفولتها بعد، فكيف لي أن أتجاوز وإياها هذه المرحلة بمثل هذه البساطة.

***

لم أعد أفهم، فمشاعري تتباين وتتقافز بين رغباتي التي تعددت بشكل حيرني وأخافني معاً.

كوبنهاغن الصغيرة هذه تضخمت أمام التهاب حالة بحث انتابتني فجأة، ودون سابق إنذار.

تساءلت كثيراً، كيف لصغر هذه المدينة أن يُذوّب هدى فيه؟

www.aljsad.net

ولماذا أراني أبحث عنها بعد أن كنتُ أهابها قبل يومين فقط؟!

كوبنهاغن المنبسطة الأرضية أين أمكن لها التواري فيها؟

لا جبال شاهقة، لا تلال ضخمة، ولا منحدرات بائسة، فأين فوق دفء هذه البسيطة تتمدد هدى يا ترى؟

وهل تراه الثلج قد نفذ إليها لتنكمش وتنزوي عن عالم المدينة؟

أي بيت بين هذه البيوت هو ذاك الذي يقوقعها لتعتكف فيه؟

عليّ حقاً أن أعلن إعجابي ببراعتها في الاختباء في مدينة لا يتكلف سكانها عناء الاحتجاب.

لكني رغم هذا.. ألقيت بنفسي في حالة بحث تخز رتابة يومي فينتفض.

في كل مرة يصادف فيها مروري في شارع «نوربرو» توقظ جموع الفتيات المحجبات غريزة التصيّد فيّ، صيدها من بينهن، على الرغم من كون أداتي ضعيفة، وهن كثر.. حيث تتقاطع إحداهن في جسد الأخرى فيصبح من الصعب عليّ إطلاق سهمي على جسم ذابت معالمه في آخر.

في جسد أي منهن تراها تلتف؟

وتحت أي من قطع القماش الصغيرة هذه يحتجب رأسها الجميل؟

لو لم يكن بي قليل من حياء مباغتة أنثى لا أعرفها في الشارع لهبطت إليهن أسأل عنها. لعلها بينهن.. لعلهن بينها!

www.aljsad.net

تورّمت حالة البحث فيّ مع عودتي إلى البيت، ثم صارت تنزف مني لتبلغ كل ما يلامس يومي.

لم أعد أنقّب وحدي عن أنثى قلبت أيامي، بل صار كل شيء يبحث معي، مفاتيحي، موسى حلاقتي، أزرار قميصي، فنجان قهوتي.

بل إنه ليخيّل إليّ أحياناً وأنا أرى زوجتي تدور في المنزل، أنها هي الأخرى تفتش معي.

صار من الصعب عليّ أن أبرك بهدوء في مكان واحد.

كيف وقد سُخّر الكون كله مجنّداً للبحث معي!

هل يعقل أنني أجد نفسي أقلّب قنوات التلفاز دون الثبات على قناة، فيما إحساس لا أتوقعه ينبئني بأني أبحث عن وجهها على الشاشة.

وهاتفي النقال أتعبتني أزراره القليلة وأنا أحدق فيها.. رقمها، لا أظنه فلكياً كي لا أستجمعه، ثمانية أرقام بحق السماء كيف لي ألا أفقهها!

قبل أن أعي سخف تصرفاتي، أقفز إلى الحاسوب. فتسخن حيرتي أمام محركات البحث. تنتصب هذه الأخيرة أمامي بإغراء، وأنا مكبّل بالعجز أمام قدرتها وشموليتها. أنظر إلى أزرار الحاسوب، كم هي محدودة، لكن أي كلمة من أحرف قليلة تراني أطبع. وكل الأحرف ترفع يدها تطلب مني انتقاءها فكل الأحرف لها قدرة على الإجابة، وأنا ليس بمقدوري حثها عليها.

www.aljsad.net

جلست أحدق في الأزرار بقوة، آمرها، فلا تطيعني، حتى لانت نظرتي، استرخت، ثم تذللت دون فائدة، ويائساً كتبت اسمها مجرداً هدى.. فأي سخرية تلك التي جعلت من هَدي اسمها يُضلّني؟ صفحات كثيرة تدفقت في وجهي دون أن أكون محتاجاً لتريني «غوغل» شطارتها.. لم أتعمد استفزازها قطعاً، وهي تصرّ على إسماعي حسيسها وزفرات صفحاتها الهائلة. ببساطة لطمتني «غوغل».. انتصرت عليّ.

درت في البيت مفتشاً.

افتعلت إضاعة غرض ما. انكفأت على ركبتيّ أنظر تحت السرير، ثم فتحت دولاب ملابسي وقلبت محتوياته مادّاً كفي بين طيّات الملابس لأسحب ثيابي المنزلية من بينها.

فلم أجد ما يعينني.

غيرت ملابسي، ووقفت حائراً في منتصف الغرفة، وحين استسلمت، تسللت أخيراً إلى السرير.

جاءني صوت شذى:

ـ رافد.. ألا تتغدى؟

أجبت بصوت أعرف أنها لا تسمعه:

ـ لا.

ونمت.

حين أفقت كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً.. كرهت أني نمت من العصر حتى الآن.

www.aljsad.net

باغتني على الفور إحساس بالجوع. قمت من سريري بسرعة.. اتجهت إلى المطبخ وفتحت دَرْفة الثلاجة بعنف علّي أفاجأ بهدى متجمدة بين رفوفها. وحين لم أجدها، قلّبتُ عيني في محتويات الثلاجة لأجد شهيتي قد اختفت.. درتُ بعيني في المطبخ، ثم تناولتُ تفاحة ورحتُ أقضمها على مهل.

ـ هل أنت جائع؟

فاجأتني شذى.

رفعت بصري إليها وابتسمت لشعرها المنكوش ومنظرها النعس.. أحبها هكذا.

ـ لماذا قمتِ؟

رددتُ على السؤال بسؤال وأنا أبتلع ما في فمي.

قالت ببساطة وهي تقترب مني متثائبة:

ـ لأرى ما أيقظك.. هل أنت بحاجة إلى شيء؟

ـ أبداً.. عودي إلى الفراش.

لكنها لم تعد. بل احتضنتني ملقية رأسها على صدري ومغلقة عينيها، كأنها ستعاود نومها على وضعها هذا.. رائحة شعرها طازجة، وجسدها ساخن، ليّن ومُغرٍ، مثل خبز فرن صباحي.

انبثقت فكرة ارتفع حاجباي لها ورددت في نفسي:

ـ هل يعقل؟!

www.aljsad.net

إلا أني نفذتُ على الفور، دسست يدي في شعرها، فتشت جيداً، وخرجت بكفّ خاوية.

لا أحد!

لِم لا تكون هدى معششة هنا؟

كيف أنسى احتمالاً كهذا.

نظرت إلى وجهها، حدّقتُ فيه أستنطقه امرأة أخرى، لكنه كعادته لم يعط جواباً شافياً. فانتقلت يدي إلى وجهها، طفت بها عليه، خلف أذنها، تحت ذقنها.. انحدرت مع انسدال عنقها حتى أخدود صدرها، دسست يدي بين منحنيات جسدها دون أن أعثر على أخرى تقبع في زوايا هذا الجسد، الذي ما تزال صاحبته مغمضة عينيها بهدوء مستسلم لي.

أدرتها نحوي.. هبطت بشفتي على شفتيها، بحثت، فتشت، نقّبت، راجياً التقام هدى بفمي من ظلمة كهف زوجتي، لأرتدّ في النهاية إلى الوراء دون أن تتعلق أنثى بلساني!

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(٨)

كنت قد أنهيت السنوات التسع في المدرسة الابتدائية وانتقلت إلى مدرسة ثانوية أذهب إليها بالباص.

أخيراً سأودّع عالم الطفولة.

سأترك هذه المدرسة التي تعج بالأطفال القذرين ورائحتهم المعهودة، رائحة الزبدة القديمة التي تقدّم لهم في الاستراحات، ممزوجة برائحة رمال ملاعب الأطفال العفن، لينتج عنهما رائحة غريبة تنفذ إلى الأنف بحدّة، فأحسّ بها تكاد تنهش دماغي.

سأترك هذا، غير آسفة على أي ذكريات. فالذكريات لم تكن قد اتخذت أشكالاً مجسّمة بالنسبة إليّ حتى ذلك الحين. كنت ما أزال في نهايات الخامسة عشرة وقد انتقلت إلى مدرسة سأكون أنا فيها من الصغار الذين ـ كما سمعت ـ يثيرون اشمئزاز الصفوف المتقدمة كثيراً.

في اليوم المدرسي الأول وبعد أن وزِّعنا على الصفوف،

www.aljsad.net

التقيت «زينة» للمرة الأولى. جاءت من تلقاء نفسها وجلست إلى جانبي ببساطة، جذبها إليّ الإيشارب الذي أضعه على رأسي وكانت هي أيضاً تضع واحداً مثله.

سألتني بلهجتها الكوبنهاغنية السريعة:

ـ من فلسطين؟

ـ لا.

ـ لبنان؟

ـ لا.

ـ من أين إذاً؟

ـ من العراق.

لمعت عيناها وهتفت بفرح:

ـ أنا أيضاً.

هكذا.. بهذه البساطة كان لقاؤنا الذي ولدت على إثره صداقتنا، لتعيش كطفلٍ غير شرعي.

استغربتْ هي عدم التقائها بي من قبل، مدعية أنها تعرف أغلب الأسر العراقية في كوبنهاغن. وفهمتُ بسرعة من كلامها أنها معروفة من قبل كثيرين، لأنها من أسرة معروفة هنا.

تصادقنا دون أن نتعمد، دون أن نختار.. فصداقة المهاجرين، ولاسيّما العراقيين منهم، غير قابلة للاختيار.. إنها مجرد حالة تفرضها الغربة مثل غيرها من الحالات.

والجالية العراقية في الدنمارك تشبه نظيراتها في الدول

www.aljsad.net

الأوروبية المجاورة إلى حد كبير. . الانقسام بين الإسلاميين والشيوعيين هو ذاته تتراوح درجاته بين التطرف واللااهتمام على حسب ما توفّره الدولة التي يحل فيها المقام.

والدنمارك توفّر الانعزالية والتقوقع بتطرف!

وليس عجباً أنني لم يحدث أن التقيتُ عراقياً مسيحياً مثلاً حتى أصبحت في العشرين من عمري. وأين ألتقي المختلفين عني ما دمت أتنقل بين مَن هم أقرب شبهاً بي على طول خط حياتي؟

وبما أن العراق تتعدد طوائفه فإن كثيراً من مصنّفاته لم ألتقها إلا بشكل عارض، في سن كنت فيها أكبر من أن أسمح لذاتي بتقبل ذلك الطارئ الجديد على حياتي.

مسيحيون. .سُنّة. . أكراد. . تركمان. . مسميّات غريبة عني مثلها مثل غرابة أن يكون المرء يابانياً أو هندوسياً. . وغرابة الأمر تكمن في تخيّلي أشخاصاً يتكلمون اللهجة ذاتها التي أتحدث بها في البيت لكنهم لا يعيشون على شاكلتي.

عندما أسمع كلمة مسيحي مثلاً أتخيل كاثوليكياً متديناً من جنوب أوروبا. . فكيف إذاً يكون المرء عراقياً ومسيحياً في الوقت ذاته؟!

أم كيف له أن يكون سُنّياً وكلمة سنّي تقفز لها في مخيلتي صورة لرجل سعودي بلحية غير مشذبة وثوب قصير يرميني بالكفر والزندقة والخروج عن الملّة. . رغم أني لم ألتقِ هذا النموذج أيضاً، إلا أنه حُشر في رأسي على أنه كذلك.

www.aljsad.net

حُشِّدتُ فكرياً وجغرافياً ومنهجياً. تسعون في المئة من تحشيدي هذا جاء عن غير قصد، طالني عن طريق الممارسات والانعزال الذي تعتمده الجالية فاعتمدني هو الآخر.

ما من كلمة مرّت أمامي في طفولتي إلا وقد التقطتها وبنيت عليها أفكاراً.. كل كلمة أبني عليها وأظل أبني وأبني حتى تصبح ناطحة سحاب، لأكتشف فجأة أن أساسها يكاد يشيخ ناخراً فيه السوس والعفن.

قوقعة في قوقعة. مثل حلزونية أن يكون تلفاز داخله تلفاز، داخله تلفاز، داخله تلفاز.

قوقعة عن الوطن، تعقبها قوقعة عن أبناء الوطن، فقوقعة عن الأفكار والمعتقدات والمبادئ. كل شيء في غربتنا هذه متقوقع على ذاته.. حتى نفسي متقوقعة على نفسها، فاصلة ذاتي عنها فلا تدري هذه بتلك.

لعل الغربة تعطيك كثيراً حين تكون فرداً، وتأخذ منك أكثر حين تصبح جماعة.

حالما تكون جزءاً من جاليةٍ عراقية تسكن كوبنهاغن ستتعلم كيف تختار في خضمّ متاهة من الحلقات.

أنا مثلاً، بما أني منها، فإني على علم بخريطتي تماماً.

أولاً أنتمي إلى أسرتي - أي أمي - التي قررت فجأة أن تتخذ من الإسلام نقطة تنطلق منها إلى العالم، فأنا اذاً إسلامية.

ثم أنا شيعية. ولدت هكذا ولم أفكر في يوم أن أختار تصنيفاً آخر عوضاً عمّا ولدتُ عليه.. هنا ينبثق أمر مهم، إذ لست من

www.aljsad.net

الأُسر الشيعية التي لها سير نضالية ضد النظام البعثي تتفاخر بها.. لا شهداء تتزين بهم الأسرة، لا إعدامات ولا سجون، اللهم إلا أخ لأمي أعدم بتهمة انتمائه إلى الحزب الشيوعي، فيا للعار إذاً أن يُعدم لنا قريب بتهمة كهذه فيما نحن نحاول الانتماء إلى جالية متأسلمة! سيعتبر تأريخ أسرتي مخزياً، وسأصنّف على أني أقل منزلة ضمن الحلقة التي تضيق علي شيئاً فشيئاً.

هكذا تسير الأمور. ولن أزيد عليها سوى بـ «الخ، الخ، الخ»، حتى تطوّق الحلقة الأخيرة عنقي ضمن حلزونية الحلقات هذه.

على نهج هذه الثقافة الشاذة أسقطَتْ عليّ سماء المهجر، «زينة».

تلك الفتاة الطويلة.

لعلّها لم تكن طويلة جداً، لكنها كانت بالتأكيد أطول مني. إذ كنتُ أضطر إلى رفع رأسي وأنا أكلّمها، كأنها وهي تنظر إليّ من علٍ تسكب سلطتها وشخصيتها في جوفي، بينما أترك أنا ذلك الكم الهائل من السلطة ينهمر فيّ، وأقف طائعة صاغرة.

عندما كنا نمشي أنا وهي جنباً لجنب، كان يشتد عليّ إحساسي بصغر حجمي، حجمي صغير جداً، بل إني كنت أكاد أتلاشى أمامها فلا أعود أشعر بذاتي.. كل ما أشعر به هو حجمها، كأنه حجم كبير من الإرادة يكاد يسقط عليّ.

لم تكن زينة رائعة الجمال.

www.aljsad.net

أو لعلها كانت.

لا أدري حقاً فقد تعودت شكلها.. عيناها كانتا تثيران حنقي ودائماً ما كنت أغالب النظر فيهما، فالوقاحة الناضحة منهما كانت تطفح بشكل ما لتلفّها كلّها فتغلّف تلك الوقاحة أنوثتها وجمالها بطريقة غامضة.. عيناها متوسطتان يخيل للناظر إليهما أنهما واسعتان من شدة ما تفتحهما على آخرهما، وكثيراً ما تخيلت أنها تود ابتلاع كل شيء بعينيها، لتتلّقف كل ما بوسعها تلّقفه.

بيد أن الذي كان يستفزني أكثر من أي شيء ويثير حفيظتي هو نصيبها الوافر من الذكاء. إذ رغم تحفظي كنت مبهورة به.

يستحيل إغفال صفة كهذه فيها هي التي حيكت كل ذّة من ذراتها مع الأخرى لتنسج منها ذكاءً على شكل فتاة.. ثم إن استنفارها ومشاعرها العدائية المباغتة تجاه ما جعله سوء حظه لا يعجبها، لم يقللا من قيمة حضورها.

الكل كان على علم بكيفية أن يكون المرء «زينة»، حتى أن أغلب الأهالي من جاليتنا كانوا يحذّرون بناتهم من رفقتها. إلا أنها رغم سمعتها المشوّهة هذه كان الكل يحبّ مرافقتها. ولا أدري ما الذي كانت تفعله كي تجعل كل من يراها يودّ ألا يتركها، وما إن يبتعد عنها حتى تعافها نفسه.

شيء غريب، حيرني كثيراً. ولذا فقد استلزمني الكثير كي أتحرر منها.. من زينة.

* * *

www.aljsad.net

مدرستنا كبيرة. طرازها حديث يتناغم وجيلنا العجول، الجاهز للابتعاد بقدر جهوزيته للارتماء في أحضان السنوات القادمة.

طلابها ينقسمون إلى فرعين كغالبية المدارس الثانوية في الدنمارك: فرع ثانوي ينقسم هو الآخر إلى أدبي وعلمي.. وفرع آخر كنا ندعوه اختصاراً بال «هوو أف»، حيث يكون طلاب هذا الفرع عادة أكبر سناً من طلاب الثانوي.. فهم غالباً يكونون ممن فضلوا تأخير مواصلة دراستهم.

كان من الطبيعي وجود طلاب تصل أعمارهم حتى الخامسة والعشرين وأحياناً أكثر، إذ من الممكن لطلاب ال «هوو أف» أن يتخرجوا في سنتين فقط لا ثلاث مثلما نفعل نحن طلاب الثانوية.

في مثل هذا القسم تخرّج عماد بمعدّل أذهل مدرّسيه.. فاستحق عن جدارة دخول كلية الطب.. من جديد!

في الحقيقة أن معدله كان يخوّله دخول أي كلية تتفوق على كلية الطب بالمعدل المطلوب.. لكنه رفض العروض الأخرى وأصرّ على دراسته القديمة.

راودني خليط من عدم الاكتراث، والشفقة، والإعجاب معاً، وأنا أرى عماد يصر على دخول كلية الطب مرة أخرى. ويا له من إصرار.. بعد أن ضيّع ثلاث سنين من عمره يدرس فيها الطب في العراق، ثم قضى سنتين لدراسة الدنماركية، تتبعها سنتان في

www.aljsad.net

الـ«هوو أف». . ليبدأ من جديد الدراسة نفسها التي تركها في السابق.

لم يفقد حلمه مطلقاً. ووصل به الأمر أن انتقل للسكن وحده كي يتفرّغ لدراسته تماماً. أو هذا ما اعتقدته أنا في البداية.

ترك المنزل. . ففرحت.

لن أعود مجبرة على تحمله فيه. فبعد سنوات من لا مبالاته بي بادلته قلة الاكتراث ذاتها وصرتُ أتعمد ألا أصطدم به مؤثرة المكوث في غرفتي. رغم أنه هو الآخر نادراً ما كان يترك غرفته لانكبابه على دراسته.

أحياناً كان طموحه يغيظني، فأجده أكثر جموحاً في طموحه مما تتطلبه الحياة.

أنا لم أكن أفكر بتلك الطريقة. . أعلل الأمر بأني تربّيت ودرست في مدارس دنماركية تشجّع على العمالة أكثر من الدراسة الأكاديمية. ولعلها لم تُغرس مثل تلك القيم فيّ منذ صغري، مما لم يجعلني أكتسب الأحلام المهنية ذاتها.

كنت أحلم بأن أصبح معلّمة في روضة أطفال. هذا طموح هو أيضاً، لكنه لا يرتقي إلى ما يتطلبه ويحترمه مجتمعنا. . ولاسيّما أنني من أسرة أكاديمية.

حين أفصحتُ عن رغبتي، سخرتْ أمي:

ـ إجتهدي في دراستك أولاً. . والله يحلّها.

ثم كأنها تكلّم نفسها، قالت وهي مشغولة بطي ثيابي النظيفة:

www.aljsad.net

ـ أخوك سيصبح طبيباً وأنت تنظفين قذارة أطفال الدنماركيين!

ـ ليكن.

نهرتني:

ـ ليس ما هو أقل من كلية محترمة.

سكتت قليلاً وهي تنشر قطعة من ثيابي أمام عينيها لتكمل بنبرة أعلى:

ـ وما لها الهندسة والصيدلة!!

لم تجد أحلام أمي منفذاً إلى رأسي:

ـ لو غدا كل الناس أطباء فمن ذا سيطببون؟

ـ لن يحدث ذلك.. ما دام هنالك من يفكرون مثلك.

ثم أردفت بقولها:

ـ تذكري دائماً.. نحن لسنا عمالة مستوردة مثل غيرنا من الأجانب.. نحن قدمنا إلى هنا كلاجئين.

ولم أفهم ما دخل هذه الجملة في موضوعنا.

* * *

مع بداية المدرسة الثانوية انقطعت صلتي بالدنماركيين فجأة.

لم أعد أتسكع مع كريستينا وأندريا، من وقت لآخر.

لم أعد أشتم نيكولاس الصغير كلما رأيته. ولم أعد أكلم

www.aljsad.net

أخاه كلاوس بتعالٍ مفتعلٍ كما تعودت. . لم أعد أكلمه أصلاً رغم أنه لحق بي ليكون معي في الثانوية نفسها .

إنقطعت صلتي بهم تماماً، جيراناً وزملاء مدرسة، لأجد نفسي في موجة أخذتني في طريق لا أعرفه ولم أتعمد السير فيه. . مثل الطواف حول الكعبة، تنحشر بين الجموع لتدور هي بك، مطمئنة إياك لكونك لن تنحرف عن مسار طوافك، فتتحرك قدماك دون إرادة منك. . في وقت يكون فيه التفاتك خطأً يستوجب إعادة إعمار الطواف من جديد، فتبقى منجذباً إلى الأمام.

وأنا، رغم أنه لم يحدث أن طفت حول الكعبة من قبل، اللهم إلا كعبة غربتي، إذ تكفي هذه الأخيرة لتعرّفني كيفية أن تسير قدماي دون إشارة حقيقية مني لهما بالسير. . أنا صرت أسير دون أن أنتبه لكوني أنخرط شيئاً فشيئاً في جو متوتر، مشحون بالعنصرية.

لم أفهم مني كيف سمحت لي باتخاذ موقف مع هذا الفريق على حساب الآخر. . بل إنني لم أتخير موقعاً في خضمّ هذا الصراع، ووجدتني أتحيّز حتى قبل أن أفهم مني سبباً لتحيّزي.

لعل السبب هو كوننا قد أصبحنا في السن التي يتجسّد لنا فيها اختلافنا.

لعله وعينا المفاجئ لانعدام تساوينا، ما جعلنا ننفصل تماماً. الدنماركيون في ناحية. . والأجانب في ناحية، فإذا ما حاول فرد

www.aljsad.net

من المجموعتين حشر نفسه بين الآخرين استُهجن ونُبذ من فريقه.

وأنا غشيمة.. لم أتسلح بعلمٍ مسبق عمّا سأقابله في جوٍ كهذا.

انكفأت في يوم على طاولة أساعد زميلة دنماركية، وكنا قد انتهينا تواً من درس الرياضيات. سألتني الفتاة عن مسألة لم تفهمها.. وفيما أنا منهمكة في الشرح أحسست بمن يجذبني برفق من الخلف.. التفت لأجد زينة وقد أطبقت على ذراعي.

ـ ماريا.. لا تشغلي فسحة الفتاة.

ثم سحبتني خلفها، وكنت ما أزال تحت وقع المباغتة. حين ابتعدنا همستْ في أذني:

ـ لا تتكلفي مساعدة ساقطة كهذه مرة أخرى.

ـ لقد سألتني عن..

قاطعتني بسرعة:

ـ قولي إنك أنت أيضاً لم تفهمي الدرس.

تأبّطتْ ذراعي وهمهمت:

ـ لا تتكلفي الرد على عاهرة دنماركية.

لم أفهم لِمَ جرّتني زينة لصداقتها، لأني قطعاً لست من النوع الذي يُغري بالرفقة، ولاسيّما أنها على صلة بالكثير من الفتيات

www.aljsad.net

وعلاقاتها قد تشعبت بين الصفوف وطاولت حتى طلاب الـ «هوو أف»، أولئك المتعالين علينا نحن صغار المدرسة.

لماذا أنا إذاً؟!

منذ اليوم الأول الذي تعرّفت فيه إليها، وحتى وقتٍ قريب، وزينة تُعرّفني.. عرّفتني إلى كثير من الفتيات وإلى عددٍ لا بأس به من الشبان. ولأني لم أكن لآبه حقاً للأولاد فإن لا مبالاتي هذه كانت كفيلة بأن تعصمني منهم.. على الأقل عُصمت من أولئك الذين عرفتني زينة بهم.

ما أثار اهتمامي هو عالم الفتيات الذي فَتَحَتْ زينة شهيّتي عليه. لكن مجدداً لم يعدُ الأمر أكثر من مجرد حب الاستطلاع. وأنا بطبيعتي أحب المشاهدة دون الاقتحام المباشر.

أعترف بكوني قد أحببت رفقة الفتيات اللواتي عرّفتني زينة بهن ولا ريب، لكن رفقتي الخاملة لم تشجعهن عليّ.

كن قد حاولن.. حاولن قدر استطاعتهن. لكن هيهات! ليس بمقدور أحد الاغتراف مني فأنا نهر معكّر، لا يُقبل عليه إلا من هو على وشك الموت عطشاً أو الموت تطفّلاً، وكِلا الصفتين لم توجدا فيهن، فتركنني وشأن حاجتي إليهن.. فإذا ما وجدن إقبالاً مني عليهن كن خير من يسند ميلان توقي بأنوثتهن المتفانية.

كان عالمهن مختلفاً.. كان بالأحرى لكل منهن عالم بذاته.

«لمى» اللبنانية.. تلك التي تتأفف من الدراسة وتعبث بهاتفها

www.aljsad.net

النقال كثيراً وتضيّعه كثيراً والمدهش أنها كانت تجده غالباً.. ومرة وجدتُه أنا على أرضية حمام البنات.

كلما خطرت لمى في بالي، ابتسمتُ لذكراها. أحببت فيها قصر قامتها فهي تشبهني في ذلك.. شعرها المنفوش دائماً وهذرها كانا لائقين أحدهما بالآخر. كانت تتكلم كثيراً.. هي تتكلم وشعرها ينتفش.. تتكلم كثيراً وشعرها ينتفش أكثر.. كلاماً لا أفهم نصفه فهي تفضّل الحديث باللغة العربية. وأنا لا قِبل لي على ضخامة الألفاظ في لهجتها اللبنانية وإن كانت تلفظها برقة غير مفتعلة.

ثم إنني اكتشفت تفضيلها العربية حين حدثت مشادة بينها وبين فتاة دنماركية فصارت لمى تصرخ محتجة بين ثانية وأخرى بالعربية، فيما زينة تحاول عبثاً إسكاتها ولملمة الموقف.

كانت تهيج صائحة «يا عمي... يا عمي..».. ورددت كلمات مثل:

ـ بنت الحرام، وليه ما عملتلا شي... يخرب بيتا.

فعرفت تواً أن لمى عكسنا في ما يتعلق بهذا، إذ كلنا حين نهيج نندفع للرطن بالدنماركية.

بالنسبة إلي، أفضّل الدنماركية حين أغضب، فهي وحدها تكفل لي حرية الشتيمة والتنفيس عمّا بداخلي بأي لفظة تخطر على بالي.. بينما تحجّم العربية غضبي وتلكلكه فيّ، ثم تتركني غير قادرة على تجاوز تكويره المرتكز في صدري.. فكل الشتائم العربية حتى الصغيرة منها تُعد عيباً قاتلاً، على عكس الدنماركية

www.aljsad.net

التي لا تعني لي أكثر من مجرد لفظة، على الرغم من معانيها المخزية.

ذكر عماد مرة أن العرب عبّاد لألفاظهم تثيرهم الكلمات أكثر من المعاني ذاتها.. يومها اعتقدت بأن عماد يتفلسف كعادته، لكني أصدّقه اليوم أكثر.

كيف حدث أن كانت لمى على قدر وطنيتها والتزامها بالحديث باللغة العربية، وهي المولودة مثلنا هنا؟! أفسر الأمر بأهلها الذين أحاطوها بوطنية مكثفة الجرعة عن تلك التي تمارس في منازل الأخريات منّا.

والوطنية هنا لا تعني الشغف الواجب بالوطن كما هو معروف بالنسبة إليكم يا من تهيمون في أوطانكم ترفاً.. الوطنية هنا هي أن تعرف أكثر القليل عن وطنك، وأن تلوك مفاهيمه الأصلية على قدر استطاعتك، وأن تمضغ لغته بين فكيك ثم تخزنها خلف لسانك مثل القات.

ولا بأس إن كنت فلسطينياً أن ترتدي كوفية فلسطينية، وتحمل قضية عمرها ستون عاماً على كتفيك.. أو إن كنت عراقياً، أن تعلّق الخارطة حول جيدك وتشتم «صدام» معتبراً إياه السبب الأساس لتعكير يومك، ثم تخلق معركة مع ذباب وجهك مبرهناً على عراقيتك.. أو إن كنتَ إيرانياً، أن تتعمد ترك لمحة من لكنتك الفارسية على لغتك الدنماركية، ولا ترضى أن يُفرش بيتك بغير سجاد حملته معك من إيران.. أو إن كنت تركياً، أن تأسف على بقية خلق الله لأنهم ليسوا أتراكاً، وتستمر في

www.aljsad.net

الحديث بالتركية مع الأغراب حتى وإن أقسموا لك بأنهم لا يفهمون جنس كلمة مما تقول.. أو إن كنت باكستانياً، أن تعلن بين حين وآخر فخرك العظيم بانفصالك عن الهند، وترتدي ثيابك التقليدية بعد الظهر لتتبختر بها في شوارع كوبنهاغن عصراً، ثم تأكل الكثير ، لا بل الكثير جداً من الكاري.

لا بأس..! لا بأس في كل هذا.. فهذه المظاهر تُفقر ولا تغني في بلدٍ طَبَعَك بما يريد.

وطنيتك هنا لا معنى لها.. فأنت بعد كل ما أنت عليه من وطنية لست سوى، أجنبي.

أجنبي بحق.. معدوم الرائحة الوطنية التي تفترضها في نفسك أمام دنماركي لا يرى فيك سوى دخيل.. سيّئ المذاق أمام أبناء جلدتك الذين من المؤكد أنهم لا يغفلون مدى تهجينك.

لمى كانت تبدو أكثر وطنية منا ولا شك.. فهي تدبك الدبكة وتستمع إلى مغنية اسمها فيروز، وتطبخ طعام منزلهم بنفسها في الوقت الذي كانت الأخريات منّا نادراً ما يدخلن المطبخ.

وتَعجَب بين حين وآخر من أُسرتها الكبيرة في لبنان.. أولئك الذين يسخرون من كُمّ قميصها الذي لا يقصر عن الحد الذي حدده والدها له.. أولئك الذين لا يصدّقون أن ابنتهم أوروبية المنشأ لا تسهر في الملاهي كما يفعلون ولا يتخطى موعد رجوعها إلى المنزل الثامنة مساءً.

www.aljsad.net

لكن تبقى زينة وحدها عَمد فتنتي. سمعت مرة بأن الخوف من الشيء هو الوجه الآخر للفتنة به، وأنا كنت ولا شك مفتونة بزينة بقدر تحفظي منها.. كنت كذلك دون أن أفهم.. وكنتُ حائرة، لكنني في النهاية تركت زينة تجرفني.

www.aljsad.net

(٩)

لَكَم ألوم نفسي في كل مرة أتذكر إخبارها إياي أنها في يوم ما لامست كفي.

لو كنت فقط أعلم أن حدثاً تافهاً كهذا يمكن أن يخبّئ خلفه شخصاً سأهتم بأمره كل هذا الاهتمام، لكنتُ قبضت على كفها مانعاً إياها من الإفلات مني.

أتساءل، أين تراني كنت حين اقتربتْ مني؟

كيف كان يومي ذاك، وهل عدت إلى المنزل ثم بكل بساطة أكلت وشربت وتمددت في فراشي لأنام معتبراً يومي عادياً كفاية لأتصرف فيه على طبيعتي؟

يا لعظم غفلتي!

معترفاً لنفسي صرت أتوق لرؤيتها الآن!

لشدّ ما أتوق للتعرف إلى ملامحها التي تبهت أحياناً في مخيّلتي لتعود تتضح فتبدو جلية لي. ثم تتناوب في رأسي

www.aljsad.net

الأشكال بين طفلة وفتاة وامرأة. وإن كنت في السابق أسعد لتجسّد كهذا فإني الآن لم أعد قانعاً بأقل من واقع حي.

لشدّ ما تباينت مشاعري وقراراتي خلال أيام قليلة. بل خلال ساعات معدودة.

تتوالى عليّ صباحات كوبنهاغن النَديّة، ذلك الجو الذي عهدته كئيباً، صار يحثني على التشبث بالتفكير فيها، وصرتُ لدهشتي أفرح لجوّ كهذا.. رذاذ المطر الذي تزاحمه أشعة الشمس أحياناً أصبح يُلهيني تتبّعه عن كآبة اليوم بأكمله.. ومزاج كوبنهاغن العبثي بات يسعدني دون أن أفهم، بل إن الحقائق بتفاصيلها الصغيرة كلها باتت تثيرني بشدة.

فتثيرني حقيقة أن المدينة تحدّني وإياها ضمن حدود واحدة، وأننا نتشاطر الجو ذاته، فأبتسم في داخلي لها، وأتخيل شكل يومها ورطوبة الجو تندي عالي جبينها. وتتسع ابتسامتي وأنا أتاكد من إحساسي العارم بها حين أتخيل انتقاءها ثيابها..

يوم ممطر لا يضطرني كي أحزر ما ترتديه. يوم ممطر، لن أعدم إحساسي بها تتفتح فيه.. لا عدمتها.

تثيرني حقيقة أني لو «شئت» التعرف إليها لما تطلب مني الأمر أكثر من أن أقود سيارتي باتجاهها حيث تختبئ في صغر هذه العاصمة. هكذا يتم الأمر ببساطة، فضيق المدينة لا يحتمل عبث الطرقات بي، ولا سيّما أني بت أشعر باطمئنان نسبي نحو كوبنهاغن الآن.

www.aljsad.net

إنها المدينة التي حاكت بروية ثياب غربتي الثقيلة. وكان لا بد أن تكون ثياب صنيعتها رمادية وثقيلة، فهي المدينة التي أثقلتني غربة وزوّجتني رماد أيامها.

الشمس ها هنا حيية، لا تتواقح بفرض نفسها مثلها حيث نشأتُ. كأنها قد أشبعتني نوراً حين عهدتني بغدادياً، نوراً يكفيني سنوات كوبنهاغن كلها، فاستغشت بدورها ثيابها تاركة ابنها يواجه مصيراً ضبابياً ومثلجاً.

كان عليّ أن أجمّع نفسي من جديد كي أعيش في مدينة غير بغداد. كان يجب أن أعيش أحداثاً كبيرة وضخمة، تُنشئ مني رجلاً غير الذي عشت عمري كله أربّيه لأكونه.

ولهذا عانيت في البدء إحباطاً كاد يودي بي.. ما قيمة حياتي كلها إذا لم تنفعني؟! ما قيمة تجاربي، أيامي، حزني، سهري، عذابي، فرحي.. ما قيمة كل هذا أمام مدينة جديدة لا تعرف عني شيئاً من ذلك كله؟!

ولكي أشفى من إحباطي وأُقبل على حياتي الجديدة بصدر منشرح، كان عليّ أن أصنع لنفسي ذكريات جديدة، أحشرها عنوة في رأسي.. أدشن نساء جديدات وغريبات، أختبر معهن حباً لا أفقهه.. أستمع إلى أغانٍ جديدة، فكل الأغاني التي أحفظ لا تهيج في ذاكرتي غير صور بغداد، وبغداد لم تعد لتنفعني هنا.. أنا رجل آخر بدونها، رجل جديد، بات عليه أن يوطّن ذاته ويربي طفلاً جديداً يقبع في جوفه على التأقلم ومدينة لا تشبهه إطلاقاً.

www.aljsad.net

لهذا، كان لا بد لي أن ألتقي هدى.

ولهذا، لم يكن بإمكان مدينة غير كوبنهاغن أن تجمعني بها.

لهذا، يستحيل على بغداد أن تتمخض عني وعنها لتجمعنا معاً. . لا يمكنها لضخامتها، وعراقتها، وجمالها، وندى نهرها، وسحر تاريخها. . . بغداد هذه، بكل عظمتها تعجز عن جمع امرأة مثل هدى برجل هو ابنها.

النساء وحدهن يمكن أن يعرّفنك بمدينة. . والبهيات الطلعة منهن، تلكم اللواتي يشعرنك بتميّز فائق فقط عبر حضورهن، هؤلاء يشبهن المدن التي يقطنّها. . تماماً كما تشبه هدى كوبنهاغن، وكما لا تشبه بغداد.

لأنني بت أشعر بقوة الوصل بيني وبينها، جمح خيالي مرةً حد أن فكرت في ما كان سيحدث لو أنه وجد مقياساً ما يحدد مكان وجودها من مكاني، فأعلم تواً مسافة بعدها عني.

كنت سأقترب، أقترب منها أكثر. حتى أثناء وجودي في بيتي كان سيخوّلني مقياسي ذاك للاقتراب منها على قدر استطاعتي.

مثلاً. . بدل أن يكون بُعدها عني أربعة عشر كيلومتراً وستة أمتار وسبعة وثلاثين سانتيماً، أجعله بانحناءة بسيطة أربعة عشر كيلومتراً وستة أمتار فقط.

أكثر ما يثيرني شعورٌ ينتابني كلما كنت في مكان عام. . المراكز التجارية، الشوارع المعروفة، السينمات. . شعور خبيث، مثير ومقلق في الوقت ذاته.

www.aljsad.net

أفكر في إمكانية رؤيتها إياي فيما أنا لا أفعل، أو بالأحرى لا أعرف كيف تبدو لأتعرّف إليها إذا ما رأيتها حقاً، فتستبيحني في غفلتي.

انتابني هذا الإحساس بقوة في أحد الأيام.. كنت وقتها في بداية مشواري مع قصتها وأزعجني يومها أن تتحكم هذه الفتاة بأيامي، عن بعد.

كان يوم في «فيسك تورفيت»، يخيّل للمرء فيه أن سكان كوبنهاغن كلهم أخلوا المدينة ليجتمعوا في هذا المركز التجاري.

حين جلست وزوجتي في مقهى «ماماميا» بمحاذاة الحاجز الذي نشرف منه على بقية المجمع، فيما القادمون من الكراج العلوي يطلّون علينا من السلّم الكهربائي، كنت شبه واثق بأنها تتبعني بعينيها وأني قاب قوسين أو أدنى منها. حتى شعرت بحرج كبير تحت وقع نظراتها التي لا أعرف من أي اتجاه تنصب عليّ.. اضطربتْ جلستي وشعرتُ بقلق جارف.. تشنجت يداي فسمّرتهما على الطاولة. خشيت من حركتهما أن تشيا بي وتشيرا إليّ فأقف صائحاً رغماً عني «هذا أنا، أنا هنا، هنا».

قمت فجأة معلناً لشذى بإصرار أننا سنعود إلى المنزل الآن. ردّت وهي تنظر إليّ بدهشة أنها لم تُكمل مشترياتها بعد. لم أتوقع أن تخذلني. نظرتُ إليها متعجباً لبرهة ثم تركتها ببساطة معلناً لها أني منتظرها في السيارة. تبعتني وهي تسأل:

ـ شبيك؟!

لم أجبها.

www.aljsad.net

أنا متضايق، وضيقي يتعبني.

لطالما كنت تعباً.

كيف لا تضيق نفسي بي وأتعب، وأنا على وشك أن تراني هدى متلبساً بحياتي الطبيعية.

هل أقول لشذى إني لا أودّ أن أُرى وأنا أقوم بدور الزوج الذي يصحب زوجته يوم العطلة للتسوق!! كرهت أن تراني هدى بصحبة زوجتي لسبب لم أفهمه كلياً.

حاولت على الأقل السيطرة على ملامحي وأنا أضع قدمي على السلّم الكهربائي صاعداً إلى الكراج، لألتفت بعد ذلك فأجد شذى تقف خلفي مباشرة، تلتصق بي بقدر ما تتيحه التصاقة مكان عام.

أسرعت مبتعداً عنها. حشرت نفسي بين الناس وصرت أهرول. ثم عدت ألتفت ورائي إليها، فقابلتني من بعيد بنظرة قوية عادت لتبعدها عني وهي تحدث هزة عدم مبالاة بكتفيها.

أبطأتُ من خطوي عند البوابة الزجاجية الكبيرة. توقفت أنتظرها. وحين اقتربتْ مني كادت تتخطاني بعدم اكتراث.. تشبثتُ بكفها شابكاً أصابعي بأصابعها. أسلَمتْ أصابعها لي ولم ترفع عينيها.. ولم تنظر إليّ.

www.aljsad.net

(١٠)

كنت أردد دائماً أنني على استعداد لفقدان أي شيء. حافظة نقودي، هاتفي النقال، حقيبتي المدرسية، علبة ماكياجي الصغيرة.. أي شيء، عدا هوية وسائل النقل.. فلو ضاعت هذه مني فلن أخرج من البيت، وهو ما لا أحتمل.. يقتلني أن أبرك في المنزل ليوم كامل.

وأنا إذا ما فقدت هوية التنقل تلك سأفتقد رحلات الباص التي أقوم بها من وقت لآخر. إذ إني أكاد أعرف أغلب خطوط الباصات التي تتنقل في مدينة كوبنهاغن من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها.

قضيت أوقاتاً لا بأس بها أفتعل إضاعة نفسي بين تشعب خريطة الباصات، فأجلس في باص ما وأترك نفسي فيه حتى ينهي رحلته.. ثم لا أعود في الخط المعاكس بل أربط بين باصين أو حتى ثلاثة، لأعود بعد وقت ليس بالقليل إلى حيث بدأت.

وما زلت حتى اليوم أسرق مني أوقاتاً أتسكع فيها بين

www.aljsad.net

الباصات. بل إنني أتعمد الطريق الطويل الذي يسلكه الباص عوضاً عن السرعة التي ينقلني بها القطار، فأنا أكره جمود مناظر الأخير وانحرافاته المقيتة، ولاسيما خطوطه الواضحة المباشرة. أكرهه أكثر حين تسوَدّ كآبته فينحدر بي مندفعاً تحت الأرض أحياناً.

تبدو لي الأشياء من نافذة القطار تكعيبية الشكل مثل لوحة لـ«بيكاسو».. وأنا لا أحب «بيكاسو»، إنه يصيبني بحالة كلوستروفوبية عبر حدوده البائنة وزواياه الحادة التي تضيق. هذه الزوايا التي ينظر منها إلى فنه، مختلفة بقدر يهينني.. أليس مجنوناً هذا الرجل الذي فضل رسم حبيبته مصابة بحول، معللاً رؤيتها هكذا أثناء تقبيلها؟! بالتأكيد ليس لي الاتفاق وزواياه وهو يدعي حولاً في حبه. فكيف لي إذن الثقة بحدة بصره الإبداعي إذا ما كان الحول نافذة له؟

ولعلي فقط لا أحب بيكاسو لأنني أفضل «مونيه».. فألوانه المتأوّدة بعضها ببعض تشبهني أنا المصنوعة من ألوان تتدامج بثقة وحيرة معاً. مثل انطباعيته المتطرفة، مثل رشقات فرشاته ونمنمته على الـ«كَنفاس».

مثل نمنمته أنا.

حياتي مواقف صغيرة وأحداث صغيرة وأشياء صغيرة، صغيرة، تتجمع لتشكل حياة.. ثم تتفرّق فتشكّلني.

ورغم كوني لا أفضل القطارات السريعة على الباصات المتأنية إلا أنني أحبذ محطات القطار. بل لربما فضّلتها على

www.aljsad.net

محطات الباصات، تلك التي تحفز الجو كي يغير عليّ، بثلجه وأمطاره ولسعاته الباردة تقرض وجهي وأنا واقفة في عراء الانتظار.. فمحطات القطارات تحيطني في المقابل بدفء نسبي، بعضها يمكنها أن تلهم دفئاً عارماً، مثل تلك الكبيرة التي تتوسط عاصمتنا الصغيرة.

محطة كوبنهاغن الرئيسية تلك، نحن سكان العاصمة مشهورون بعشقنا لها.. لقطاراتها العديدة، وأرصفتها القديمة، ومقاهي الطابق العلوي فيها، والساعة التي تتوسطه، والمحلات المنتشرة هناك، والحمّامات تحت الأرض.

الوجود فيها ليلاً مختلف عنه نهاراً.. كيف تمر في المحطة الرئيسية دون التعرّف إلى وجوه السكارى المتناثرين فيها ليلاً؟ أم كيف يمكنك إغفال فوران علامات النشاط الصباحية إذا ما شاءت لك صباحاتك إلقاءك فيها؟

المحطة الرئيسية ثمرة كوبنهاغن ولا شك.. عشعشت روح المدينة في ثنايا ماضيها القديم، ما جعل فتاة مثلي تمقت القطارات، تعشقها رغم كل هذه الأرصفة العتيقة التي ما إن يغادرها قطار حتى يقف آخر مكانه.

حتى اليوم ورغم الوسائل التكنولوجية التي سهّلت علينا اللقاءات، ما زلنا نفضّل الأسلوب القديم الذي قدّمته لنا المدينة على طبق تراثها.. فنقف تحت الساعة الكبيرة في منتصف الطابق العلوي، ننتظر. فقط ننتظر، وإنه لموقف ساخر من الزمن أن

www.aljsad.net

تقف لممارسة انتظاراتك تحت ساعة.. كأنك تتعمد الفرار من قهر الانتظار فلا تقف عند الساعة بل تتخير موقعاً فاضلاً حقاً، وتقف تحتها مباشرة.. وهي المدورة عالية المقام والموقع، ليس في وسعها أن تطأطئ رأسها المدوّر للبحث عنك، فتتركك لملاذك الخفيض وسخريتك، لتتابع هي شموخها القديم.

في صباح أربعاء خرجت باكراً إلى المدرسة، وحين قارب الباص الوصول هبطت فجأة، دون أن أدري عني أو أقرر بيني وبيني، أسرعت إلى موقف باص آخر، انتظرت حتى جاء..

يكاد الباص يكون فارغاً ويغري برحلة من تلك الرحلات. فجلست في المقعد قبل الأخير واضعة حقيبتي على المقعد المجاور رغم خلوّ الباص من الركاب.. اكتشفت أن لم تكن بي رغبة لمتابعة ساعتين كاملتين من درس اللغة الدنماركية. بل لم تكن بي أي رغبة في ذلك الصباح الباهت أن أفهم الفروق الأساسية بين المدرسة الانطباعية والوجودية في فن الكتابة.. ليس والصباح باهت!

بعد ساعتين من الدوران في الشوارع والتنقل من باص لآخر، وصلت إلى المدرسة في وقت الفسحة الأولى. وبحركة روتينية اتجهت إلى السبّورة الكبيرة المعلقة في القاعة الرئيسية فوجدت تنويهاً بأن درسي اللغة الألمانية لصفي قد ألغيا.. إذاً، لدي ساعتان جديدتان من الفراغ. ولو كنت أعلم الغيب فلربما كنت بقيت في الباص ولم أهبط إلى المدرسة من الأساس.

www.aljsad.net

أرسلت رسالة إلى زينة أسألها أين هي، فردت بأنها قد خرجت من المدرسة مع بعض الفتيات مذ علمت بالحصتين الفارغتين، وستعود لاحقاً للحصص المتبقية.

وجدتُ في النهاية أني سأبقى وحيدة لساعتين حتى تعود زينة، فجلستُ إلى إحدى الطاولات المنتشرة في القاعة الرئيسية أحلّ مسائل رياضية، فيما حلَّ تدريجاً هدوء وصمت في أرجاء المدرسة ما إن انتهت الفسحة.

أثناء انهماكي في ما أنا فيه، سمعت صوت خطوات «هويليا» السريعة التي دائماً ما تطرقع.. أتت زميلتي التركية، متجهة نحوي غارقة في معطفها، ترتفع بعجرفة فوق كعبها العالي.. كان عالياً جداً إلى درجة أنها لم تكن بقادرة على ثني ساقيها وهي تمشي، فصارت مشيتها أشبه بمشية إنسان آلي وهي تنقل ساقيها هكذا بثقل. وقفت عند طاولتي وحيّتني بسرعة. سألتها دون أن أجيبها على تحيتها وأنا أراها مرتدية معطفها تأهباً للخروج:

ـ ستخرجين؟ هل أنهيت حصصك؟

ردت:

ـ سأخرج!

ثم استأنفت بعناد، وعيناها الجميلتان تتسعان:

ـ ولم أنهِ جميع حصصي بعد.

سألت وأنا أرفع قلمي:

ـ ذاهبة لمقابلته؟

www.aljsad.net

وبدا أنها ضاقت بأسئلتي فقالت وهي تضع يدها على هاتفي النقال الذي كان على الطاولة أمامي:

ـ هل لي أن أستعير هاتفك؟

ـ تفضلي.

قالت مع ابتسامة مرهقة:

ـ لم ينته الحظر على هاتفي بعد.

لم أفهم:

ـ أي حضر؟

ردت موضحة:

ـ أمي أخذت مني هاتفي ومنعتني من الخروج لغير المدرسة.

رفعت حاجبيّ:

ـ لماذا؟

ـ ألم تعلمي؟

ـ بماذا؟

ـ حدث أن أرسلتُ رسالة لهاتفها الجوال بالخطأ.. كان من المفترض أن أرسلها لـ «غويكان».

فغرت فاهي وعيني معاً:

ـ مجنونة.

قالت بملل:

www.aljsad.net

ـ لم أفعل متعمدة.

اتصلتْ بـ«غويكان» أمامي لتحدد الموعد. . وأنهت حديثها بقولها:

ـ أنا في طريقي.

سألتها بفضول:

ـ ستلتقيان؟

ـ نعم.

ـ في المكان المعتاد.

ـ بل سأضطر إلى انتظاره تحت الساعة. وقد نجلس في المقهى المجاور.

عدت أكرر:

ـ مجنونة.

هل يعقل أن يتم لقاء بين فتاة وشاب أجنبيين تحت ساعة محطة كوبنهاغن على مرأى ومسمع من الناس؟! وهو مكان مفضل لدى المتسكعين من الجالية الأجنبية ولاسيّما أولئك الذين لم يحصلوا على الإقامة بعد. ثم إن العرب يجتذبون العرب، والباكستانيين يجتذبون الباكستانيين، والأتراك يجتذبون الأتراك وهكذا دواليك.

سألت وأنا أستعيد هاتفي منها:

ـ هل ضاقت بك الدنيا؟

قالت:

www.aljsad.net

ـ هذا أفضل.

استندتْ إلى طاولتي بكف، فيما هي تقضم أظفار الكف الأخرى:

ـ لن يشك فيّ أحد إذا ما رآني مع غويكان هناك. الناس مثلك لن يصدقوا أن لقاءً كهذا يمكنه أن يكون مفضوحاً إلى هذا الحد.

استحسنتُ الفكرة فوراً:

ـ رائع!

ـ أليس كذلك!

ـ ومتى ستعيد أمك هاتفك.

ردت وهي تقرّب أظفارها من عينيها:

ـ لا أدري.

ثم رفعت رأسها إليّ:

ـ أتصدّقين أنها منعتني من استخدام الكومبيوتر أيضاً خوفاً من أي تواصل ألكتروني مع غويكان.

أنهت قولها بضحكة.

ـ وكيف ستمنعكِ من استخدام كومبيوترات المدرسة؟

سألتها.

اصطنعتْ مرحاً:

ـ لا بد أنها لا تدري كيف تفعل.

www.aljsad.net

ثم اعتدلت في وقفتها وهي تزرّر معطفها:

ـ عليّ الذهاب حالاً كي لا أتأخر.

ثم وهي تتجه إلى الباب الرئيسي صاحت:

ـ هاي هاي.

ودعتها:

ـ هاي هاي.

سرحت خلفها حتى اختفى آخر جزءٍ من معطفها وحقيبتها المدرسية المدلاّة إلى جانبها، ثم عدت إلى حل مسائلي الرياضية.

بعد قرابة الخمس دقائق جاء رضا، جاري وابن تلك الأسرة الإيرانية أو لعلها عراقية، والذي كان معي في المدرسة ذاتها يدرس في الصف الأول في الـ «هوو أف».

وقف أمامي مثلما فعلت هويليا قبله بدقائق.. وقال ولُكنته الفارسية تقفز فوق كلماته فتربكها:

ـ لماذا أنت هاربة من درسك؟

كرهت اتهامه. أجبته بالدنماركية وأنا منهمكة في مسائلي الحسابية لا أرفع رأسي إليه:

ـ لديّ حصة فارغة.

بقي واقفاً.. فرفعت رأسي متسائلة لأجده يبتسم ابتسامته القذرة التي أكرهها، تلك التي تنسكب من شفتيه على فكيه بغزارة.

www.aljsad.net

كان فيه كلّ ما يمكنني أن أبغضه في شاب.. جسد ضئيل، وشعر أشقر لا لون حقيقي له يصطخب فوق رأسه، وعينان ملوّنتان بألوان صاخبة مزعجة، وفم دقيق تطل منه أسنانه الغارقة في لعابه اللزج.

من المؤكد أن مظهره لم يكن وحده ما يزعجني فيه. بل لربما أزعجني بكله.. بشخصيته التي تبدو راكدة دون استقرار، فأتوتّرُ أمامها وأرتبك، وبذكرى قديمة لاهتماماته الأنثوية.

تراه أقلع عنها أم ما يزال يزاولها؟ لا أعني جمع ورق الرسائل الملوّنة فحسب، بل كل ما له علاقة بغرابة أطواره. وإن كان قد أقلع حقاً، أتراه ترك اهتماماته تلك بعد اكتشاف مواطن الذكورة لديه؟!

بعد أن طال سكوته وأتعبتني ابتسامته، سألته وأنا أستحث ذهابه:

ـ هل من شيء؟

ابتسم بنعومة أرعبتني:

ـ أودّ التحدث إليك.

قلت بهدوء حادّ:

ـ لا يوجد ما يقال.

ـ أنا لديّ ما أقوله.

رفعت رأسي إليه بملل وأنا أبسط كفيّ على أوراقي كأني أخفي أمراً:

www.aljsad.net

ـ رضا. . أنا حقاً مشغولة الآن. هذه المسائل التي تراها عليّ تسليمها للأستاذ بعد الاستراحة الكبيرة. . فهلاّ تركتني وشأني.

فردّ عليّ وابتسامته القذرة تغيظني إلى درجة كدت فيها أبكي من شدة الغيظ:

ـ يمكنني مساعدتك، أنا شاطر جداً في الرياضيات. . سأفيدك.

قلت وأنا أشنج أصابعي بعصبية:

ـ لا أريد مساعدتك. . ابتعد أرجوك.

كأنه لم يسمعني، رد وابتسامته الحقيرة ما تزال معلقة على شفتيه لم يزد أو ينقص اتساعها ملّيماً واحداً:

ـ قبل قليل رأيت صديقتك تستعير هاتفك.

قلت بسرعة ظناً أني سأتخلص منه:

ـ أتريد استعارته؟

ـ لا. . لا.

ثم أكمل بهدوء:

ـ فكرتُ أن بإمكاني مساعدتك.

ـ Med hvad

ـ بأن نوطّد علاقتنا.

ـ من؟

رد ببساطة:

www.aljsad.net

ـ أنا وأنت.

فغرت فاهي:

ـ أجننت؟

استدرك لردة فعلي:

ـ وما الغريب في أن نكون أصدقاء.

ضغطت على أسناني:

ـ رضا.. اذهب.

قال ضاحكاً محدثاً صوتاً رقيقاً:

ـ الفتيات نسخ مكررة.

دون تفكير صحت بحدة:

ـ عُد إلى درسك.. أفضل لك.

ثم لعنت في سرّي مفرداتي الشحيحة وقدرتي المحدودة على التعبير، ملقية باللوم على بديهتي التي غالباً ما تتعطل في المواقف المتشنجة، فتضطرني في النهاية إلى التفوّه بأول وأسخف ما يخطر على بالي.

لكن رضا ردّ وهو ما يزال يبتسم، حتى أني كدت أرميه بمحفظتي وهو يستمر في استفزازي:

ـ كما تريدين.. وآسف لإزعاجك. أرجوكِ قولي إنكِ لم تغضبي مني.

ولا أدري أي شيطان أملى عليّ عناده تلك اللحظة فصرخت قائلة:

www.aljsad.net

ـ ما شأنك وغضبي؟

ثم أكملت في سرّي: أيها الحقير!

وكان قولي هذا مبرّراً حقيقياً لوصلة من الإلحاح الذي يتقنه رضا:

ـ إنك غاضبة بالفعل.. أرجوك.. أنا لا أود أن تبقي غاضبة مني.

وضعتُ رأسي بين كفيّ باستسلام واضح.

ـ هدى.. هدى.

ظل يكرر:

ـ هدى.. أرجوكِ.. هدى.

واستمر:

ـ هدى.. لن أذهب قبل أن تردي.. هدى.

رفعت رأسي قائلة بتوسل:

ـ لا تكرر اسمي هكذا.. سأمزق اسمي.. سألعنه.

ـ حسناً، ردي عليّ.

صمتُّ، ليس بي قوة لأجيب.

ـ هدى.

ـ ماذا تريد.

ابتسم بظفر:

ـ قولي إنك تسامحينني، وسأذهب.

www.aljsad.net

قلتُ باستسلام:

ـ أسامحك.

ـ تسامحينني من قلبك؟

ـ أفعل.

أعصابي تتمزق من طريقة إلحاحه. وأعرف أنني كلما عاندته لجّ هو أكثر. والأدهى من هذا أني كلما أذعنت له ازداد إلحاحه أيضا، مبتكراً أعذاراً أخرى.

مواطن السوء في هذا الفتى مطلقة لا نهاية لها.

وأنا أكرهه. لعلي لم أكره أحداً مثلما كرهت رضا.. ابتسامته القذرة التي تتجمد لها ملامح وجهه كانت ترهقني وتجعل أنفاسي تضيق تدريجاً، وأعصابي تُستنزف إلى درجة أشعر فيها بألم في جسدي كله ما إن يرحمني في النهاية بتركه إياي. ورحمني يومها بعد أن أمسكت برأسي بين يدي

وصرخت بصوت حاد فتركني قائلاً:

ـ يبدو أننا عدنا أصدقاء.

وبصقت خلفه في سري.

عند حلول نهاية الدوام اقترحتْ عليّ زينة أن تبيت عندي في عطلة نهاية الأسبوع، لكي نكمل بحثاً يقدّمه عادة طلاب الصف الأول ويتعلّق بدرس اللغة الدنماركية.. وكنا نحن قد اخترنا أن نكتب معاً عن رواية «فتاة الفانيلاّ» للكاتب الدنماركي «إيب ميكيل».

www.aljsad.net

بعد نهاية دوام يوم الجمعة توجهنا معاً إلى بيتي.

حديث زينة آسر لا يُمل تسترسل في حديثها ولا تتحكم في ما تنطق به.. تتحدث عن مشاكل أبيها وأمها.. تتحدث عن إخوتها الذكور وعما يفعلون.. تتحدث عمن تدعي أنها أحبتهم وأحبوها، وقد كانوا كثراً نسبة إلى عمرها في ذلك الوقت.. عمر السادسة عشرة.

أخبرتني من ضمن ما أخبرتني أن أول صديق لها في حياتها كان في وقت لم تتعدّ فيه العاشرة من عمرها. سألتها بتطفل عمّا كانت تفعل معه وهي في هذه السن، فردت ضاحكة أن لا شيء، كان مجرد استكشاف.

رَدَدتُ فضول نظرتي إليّ في خيبة أمل واضحة، ثم ابتسمتُ فزينة تعرف تماماً كيف تتملص من الأسئلة التي لا تودّ الإجابة عنها، وقد عرفت في ما بعد أنها كانت تحدّث الناس على حسب أهوائهم وما يرضي أذواقهم.

سهرنا في تلك الليلة مشغولتين بين جدّ الدراسة ولهو الحديث الذي لم ينقطع.

زينة تكاد تعرف أغلب الأسر العراقية في كوبنهاغن بل لقد أضافت بعض الأسر اللبنانية والفلسطينية إلى قائمتها التي تطول دائماً ولا تقصر. والمثير في الأمر أن لكلٍ من هذه الأسر قصة ما تعرفها زينة بطريقة ما.

كنت أتعجب من قدرتها على معرفة التفاصيل وكان كلامها يصل أحياناً إلى مناطق حميمة في بيوت هؤلاء الناس، فأجدني

www.aljsad.net

أستزيد منها ونحن ممددتان على سريري، أنا على ظهري أستمع إليها وهي على بطنها مرتكزة على مرفقيها. . وشيئاً فشيئاً خَفَتَ دويّ صوت زينة المتردد في رأسي، ثم صار وكأنه يأتيني من بعيد. وحين أفقت لوعيي، كان اليوم التالي قد حلّ.

كنا قد جلسنا تواً إلى المائدة في المطبخ لنتناول فطوراً أعدّته أمي، حين سمعنا صوت الباب الخارجي يفتح. عرفتُ على الفور أنه عماد الذي تعوّد أن يفاجئنا بقدومه، فرفعت زينة الإيشارب الذي كان يحيط رقبتها، لكي تغطي به شعرها. دخل عماد علينا وقد ارتدى بنطلوناً كاكياً وبلوزة كحلية تكاد تكون كالحة، حاملاً كالعادة حقيبة حشاها بثيابه المتسخة.

شعرتُ بالحرج من مظهره وهو يقف بهذا الشكل أمام صديقتي، لاسيّما وأنا أراها تنظر إليه من فوق لتحت، فعرفتُ أنها قاست بتلك النظرات السريعة عرض كتفيه وتمعّنت في لون عينيه، وبالتأكيد لم تُغفل ثيابه غير المهندمة التي يصرّ على ارتدائها في الأيام العادية، صائحاً بحدة إذا ما طلبت منه أمي ارتداء أفضل منها ألاّ وقت لديه للتهندم فهو مشغول بالدراسة ولا يكاد يحك رأسه.

عندما وجدتُ عماد ينظر إلى زينة بتساؤل وهو يراها ببيجاما منزلية، تنبهتُ من شرودي الذي أغرقني فيه حرجي، فقلت باستسلام أقدّم كليهما للآخر وأنا أعود لأتخذ مجلسي إلى الطاولة:

www.aljsad.net

ـ هذه زينة. . زميلتي في الصف.

ثم ارتفعت بنظري إلى عماد وقلت بملل:

ـ أخي الأكبر، عماد.

قال عماد بسرعة وهو يتخذ مجلسه إلى الطاولة:

ـ أهلاً وسهلاً.

ثم أكمل متسائلاً بالدنماركية وهو يمد يده إلى قطعة خبز:

ـ ومن أين أنتِ؟

ردّت زينة بنبرة واثقة ولُكنة دنماركية أصيلة:

ـ أنا من «هوي توستروب».

إبتسم عماد:

ـ أقصد أين ولدتِ؟.

ردّت زينة متخابثة:

ـ في كوبنهاغن.

نظر عماد إليها بِلَوم، فضحكت وقالت بالعربية:

ـ أنا أصلاً من النجف.

رفع عماد صوته:

ـ «و النِعم». . لكنني لم أتصوركِ عراقية للوهلة الأولى.

ـ ماذا تصورتني إذاً؟

ـ مغربية. . إيرانية.

ـ مغربية !! هذه أول مرة أسمع بها. . لكن إيرانية، فهذا ليس ببعيد فأمي لها جذور فارسية.

www.aljsad.net

ـ إذاً رميتي كانت شبه صائبة.

وهكذا، أهملا وجودي وطفقا يتحدثان.

حالما جلسنا في الصالة ونزل أبي من فوق محيياً، جاءت أمي وأمرتني أن أضع ثياب عماد المتسخة في الغسالة.. فقمت من مكاني بتبرّم لم يلحظه أحد.

بدأتُ أفصِل ثيابه البيضاء عن الملونة التي كنت أضعها في الغسالة مباشرة، وفجأة لامست كفي شيئاً وشهقتُ شهقة خفيفة حالما رفعته لأراه.. كانت قد استقرت في كفي حمّالات نسائية من نوع فاخر. وقبل أن أفكر ناديتُ أمي وأطلعتها على ما وجدت، فأخذَتها مني بوجه صارم ولم تنبس بكلمة.. ألقيتُ أنا عليها سؤالاً بديهياً وقد بدأتُ أفهم سبب وجود مثل هذه القطعة في حقيبة عماد:

ـ ماذا تفعل هذه هنا؟

ردت ببرود:

ـ لا شأن لك.

أثارني قولها، فواجهتها بما عندي:

ـ أخي يساكن امرأة!

لبثتْ ساكتة.

فعدتُ أهمس:

ـ إذاً أنت تعرفين.

www.aljsad.net

وخزتني بنظرة مستسلمة لكن قوية.

فهتفتُ:

ـ وتسكتين؟!

قالت كلاماً سمعته مشوّشاً فقاطعتها:

ـ إذا كان ما يفعله ابنكِ صواباً أو حقاً من حقوق ذكورته فلِم تخفينه عني؟

ثم أضفتُ وأنا أرفع من صوتي قليلاً ثم أعود أخفضه:

ـ لا أكاد أصدق أنك تذهبين بنفسك إلى بيته لتنظفيه؟!

لبَثْتْ أمي صامتة وقد أكسبت نظرتها لوماً، ثم استندتْ بيدها إلى طاولة المطبخ ووضعت اليد الأخرى على خاصرتها كأنها تتحداني:

ـ لست راضية .. لكن...

حزرتُ ما تنوي قوله، فعدتُ أقاطعها لا أريدها أن تكمل:

ـ لا يمكنك منعه مما هو خطأ وحرام، وتمنعينني من أمور عادية هي من حقي!

ثم أكملتُ باندفاع:

ـ لا يهمني أن يفعل ما يشاء. فقط لا أود الاستماع إلى نصائح بعد الآن.. يمكنك أن توفريها لابنك.

احتدّتْ قائلة:

ـ بلا لغوة.. اخفضي صوتك.

وكان فمي قد فرغ من الكلام أصلاً، وجفّ لساني. فتركتها

www.aljsad.net

واتجهت إلى الصالة قائلة بصوت عال، دون أن أنظر ناحية عماد:

ـ زينة. . سأصعد إلى الأعلى. . هل ستأتين؟

نظرت إليّ كأنها تلومني، ثم استأذنت عماد وتبعتني.

* * *

صارت أمي أكثر ليناً معي، على الرغم من أنها لم تكن مضطرةً إلى ذلك. فهي لديها السلطة لجعلي أتقبل ما تريد هي دون نقاش. لكنها اختارت أن تؤالفني عوضاً عن ذلك.

وأنا لا يمكن رشوتي بشيء. فقد كانت طلباتي قليلة ومشاعري كانت تبدو متبلّدة. غير أني استفدت كما يجب من تأففي من أُسرتي. وأمعنتُ في نأيٍ كان يناسب شخصيتي الباردة تماماً.

صار مزاجي المتقلب نحو أُسرتي يبرّر جفائي ومكوثي في غرفتي لساعات طوال. وصرتُ نادراً ما أشارك والديّ في شيء. . حتى طعامي كنتُ أتناوله في غرفتي. وحين تتوسّل إليّ أمي لأخرج كنتُ أصرّ على اعتكافي وقلة كلامي. . بل إني أحياناً لم أكن لأتكلف رداً بكلمة.

والغريب أني بتُّ أتضايق من لطفها المفرط، لأني لم أجده يليق بها، ولم أعتد مثله.

حقاً، لم يكن لي كثير من الرغبات. ولم تكن رغباتي إذا ما

www.aljsad.net

وجدت مستعصية أو غير منطقية. ففي الوقت الذي كان أغلب الآباء يخافون على أولادهم من هذا الجديد الذي يسمّى «تشات»، علمت أمي بأني أمارسه، وحذرتني دون أن تحاول إقصائي عنه.

وحين طلبتُ منها أن تشتري لي كمبيوتراً شخصياً أضعه في غرفتي ترددتْ قليلاً أمام طلبي الذي رميتُ به إليها دون اكتراث.. التَفَتَتْ إلى أبي فلوّح بكفه وهو يغرس سيجارته بين شفتيه، وطفقت هي تنظر إليه، فقال بصوت عال:

ـ بابا، دجيبيلها شما تريد!!

ردّت بحذر ونبرة لائمة:

ـ لتضعه في غرفتها؟!

ـ ليكن..كم هدى عندنا!

قالها بصوت أعلى. فاستسلمت أمي.

خففت أنا إليه أرشوه بحَضنة، ليستقبلني برائحته المخمَّرة وابتسامته المصبوبة في وجهه:

ـ حبيبة بابا.

قالت أمي:

ـ ضعني دائماً في واجهة المشاكل. وكن أنت الأب الحنون.

رد أبي باسماً، وقد استقر رأسي على صدره:

www.aljsad.net

ـ أي مشاكل؟! أنا لم أضعكِ.

إنسلّتْ هي إلى المطبخ وعلى مُحيّاها ذل ألمٍ بدا مقيتاً وسخيفاً في آن.

حركتُ رأسي فوق صدر أبي وأغلقتُ عينيّ لوهلة. عدتُ بعدها لأفتحهما وقد شعرتُ وأنا غارقة في حنانه بشفقة عليها.. كدتُ أتبعها، لأحتضنها وربما أمازحها، كما كانت تفعل نخيل من قبل، ملقية عني جفائي. لكن حضن أبي كان دافئاً حد أن كسّلني عن النهوض، فعدتُ وأغمضت عينيّ، آخذة نفساً عميقاً، مشبعاً بدخان سجائره.

حينما حلّت نافذة على العالم في غرفتي، ألقيتُ نفسي منها بفرح.

وخلال أيام قلائل، أدمنتُ النت.

لم أكن أعتقد بأن إدماناً ما يمكنه أن يحل على المرء بهذه السرعة العجيبة. ولأن الإنترنت بكله لم يكن يعني لي سوى غرف الدردشة، بات إدماني لها جلياً.

صرتُ أدردش دون انقطاع. حتى أثناء الحصص في المدرسة كنتُ أجلس أستمع إلى الدرس وأنا أدردش في رأسي. أتخيلُ الأيقونات والرسوم والوجوه المبتسمة، والأخرى المنزعجة، ثم هذه الساخرة، وتلك العابسة.. الشعارات المتقافزة على الشاشة، الخطوط التي تزين اسمي.

كل هذه الأشياء صارت من حيثيات شكل الحرف.. ليس

www.aljsad.net

فقط ذاك الذي تطبعه لوحة المفاتيح، بل كل حرفٍ يسمح لذاته بأن يُرسم أمامي، حتى هذا الذي خطّته المعلمة على السبورة تواً.

لم تعد حروف اسمي مجرد أحرف قليلة تدل عليّ، إذ بات من الضروري أن تُزركَش هذه الأحرف بخطوط كثيرة تتلوّى بين ثنايا اسمي، وقد انتثرت حوله نقاط كثيرة، وقلوب وورود. هكذا ليبدو اسمي ضخم المعالم، وأكثر مهابة، وله استقرار إلكتروني نسبي، ومتربع على زينته كما شئتُ له أن يكون.

طريقة الكتابة النتيّة المختصرة بدأت تنال حتى من الملاحظات التي آخذها أثناء الحصص، وتكاد تقضي على إنشائي المدرسي الذي صرتُ أخطئ فأختصركلماته بحرف واحد مثلاً، بدلاً من الكلمة كاملة إذ تعودتُ هذه الطريقة في الكتابة رغماً عني.. وصار الاختصار النتيّ يطاول حتى لغتي المحكية. فكنتُ أخرج على الناس بجملٍ مبتورة، ناقصة حرفاً هنا وفعلاً هناك.

في الاستراحات التي بين الحصص، كنت أخلِّف زينة ورائي وأعدو إلى الغرفة المخصصة للكمبيوترات لأدردش.. وحين أعود إلى البيت ألقي حقيبتي على الأرض وأفتح جهازي مباشرة لأعاود الدخول إلى الموقع الذي أدمن هو أيضاً وجودي فيه.

في غرف الدردشة كنت أخرى!

لم أكن أفصح عن أصلي بالطبع. وتركتْني أخترع أوطاناً أنسب نفسي إليها، ولاسيّما أن الأمر غير وارد اكتشافه، بما أني أكتب باللغة الدنماركية سواء بقيت كما أنا عراقية، أو اخترت أن

www.aljsad.net

أصبح بوسنية أو فلسطينية، على حسب الكذبة أو الفبركة التي يدعوني إليها الشخص الذي أحادثه.

استهلكتني الدردشة.

كنت لا أكاد أنام. . أبقى طوال الليل أطبع على لوحة المفاتيح حتى لا تعود أصابعي بحاجة إلى إشارات من عقلي، فكانت مع طلوع الفجر تبدأ بالتحرك من تلقاء نفسها وقد عرَفَت طريقها بتقنيةٍ واضحة. . وحينما كنتُ أفاجأ بأن وقت المدرسة قد حان وأنني لم أخلد إلى النوم بعد، كنتُ أقوم من مكاني بصعوبة لأقف تحت ماء بارد أستدعي شيئاً من الانتعاش ثم أرتدي ثيابي وأذهب إلى المدرسة أقضي النهار بصعوبة شديدة.

وفي الوقت الذي كنا بدأنا نسمع فيه عن الكثير من الحوادث التي تعرّض لها المراهقون بسبب الدردشة. . كتلك التي دفعت بمراهق إلى الانتحار حين تعرّف في مواقع الدردشة إلى أناس أقنعوه بذلك، أو تلك التي تعرضت فيها فتاة في الثانية عشرة للاغتصاب حين أخضعها رجل خمسيني التقته في غرف الدردشة لمقابلته. . في ذلك التوقيت انسللتُ بسبب ملل أصابني ـ في إحدى الليالي ـ من غرفتي المفضلة، لأدخل غرفة مخصصة لمن هم فوق الأربعين من العمر.

راودني خاطر خبيث في أن أعرف ما سيفعله هؤلاء إذا ما دخلت باسم فيه من الشقاوة ما يوحي بعمري.

ما إن دخلت تلك الغرفة الأربعينية حتى أُمطِرتُ بالرسائل

www.aljsad.net

الخاصة. . في بعضها سخروا مني، وفي البعض الآخر سألوني عن سبب يقظتي حتى الآن، ثم حثوني على ترك المكان لصغر سني. ولم تخلُ تلك الرسائل الخاصة من أسئلة بذيئة، ففوجئت لوهلة، أنا التي كنتُ حينها أظن البذاءة صفة محتكرة من قبل المراهقين فحسب.

أغفلتُ الكثير من الرسائل واخترتُ منها ما جذبني. . بعد أقل من ساعة انتهى بي الأمر إلى مكاتبة شخص واحد فقط، كان يدّعي أنه في السادسة والخمسين، وأثار أسلوبه اهتمامي. كان صريحاً ومرحاً في الوقت ذاته. . وقد سألته بجرأة خلال حديثنا عن السبب الذي يدعوه لمكاتبة فتاة في مثل سني، فأجابني بجرأة هو الآخر:

ـ لأني أنجذب لمحادثة فتيات في سنك.

كتبتُ أسأله وقد اعتقدت بأنه يجاريني:

ـ لماذا لم تدخل إلى الغرف المخصصة لهذه الأعمار إذاً؟

كتب:

ـ أخبريني أنت أولاً. . لماذا دخلتِ إلى هنا؟

كتبتُ صادقة:

ـ بصراحة. . لأتسلّى.

كتب:

ـ أليس لأنك تفضّلين رجالاً ناضجين؟

ولا أدري أي شيطانٍ دفعني كي أكتب مجيبة:

www.aljsad.net

ـ طبعاً. . وهذا أيضاً. . أنا لا أفضل إلاّ الناضجين.

ابتسمتُ ابتسامةً عريضة وأنا أبعث إليه بتلك الرسالة.

كتب:

ـ كيف تبدين؟ صفي نفسك.

ـ أنا سمراء. شعري أسود وعيناي سوداوان.

حزر أني لست بدنماركية:

ـ لستِ دنماركية على ما أظن.

ولا أعلم لِم آثرت الصدق هنا فكتبتُ:

ـ لا. . أنا من العراق.

ـ حيث يوجد حرب دائماً!

ـ نعم.

ـ صفي جسدك.

ـ همممم؟. . أنا قصيرة، جسدي غير ممتلئ، وطولي ١٥٤، ووزني ٤٢كلغ.

وتصورتُ أنه يجاملني حين كتب:

ـ جميل.

في نهاية حديثي معه بعد أكثر من ثلاث ساعات، وجدتُ نفسي أعطيه «الإيميل» الخاص بي ومن ثم أضيفه إلى قائمة «الماسنجر». . كان «توربن» من أولئك الأشخاص الذين يجذبونك عبر ما هو مجرد شاشة كومبيوتر. . ويكاد يكون آسراً في حديثه حتى أني بعد فترة قصيرة من معرفته تخلّيتُ عن غالبية

www.aljsad.net

من أحادثهم لأتفرّغ له.. هو وحده وصرتُ لا أكتفي بتلك اللقاءات عن طريق الإنترنيت، فأعطيته رقم هاتفي المحمول ليتصل بي في الأوقات التي لا أكون فيها في المنزل. لكنه لم يكن يتصل إلاّ في ما ندر. ويفضل كتابة الرسائل والمحادثات «النتيّة».

وقد تتساءلون الآن بدهشة أن كيف لفتاة في السادسة عشرة أن تقيم علاقة مع رجلٍ في السادسة والخمسين.. وكيف لرجلٍ في مثل هذه السن أن يهتم بأمر مجرد فتاة صغيرة، هذا إذا لم يكن متصابياً أو مجنوناً أو ربما شاذاً. ولعل توربن كان كل هذا بالفعل.. لكنني لم أكن لأعرف.

كانت الستة عشر عاماً في نظري آنذاك سنّاً تخوّلني لحمل لقب فتاة مجرّبة وناضجة. ثم كيف لي العلم بنيات شخص مثل توربن وهو لم يذكر أمامي أي كلمة أو موضوع يوضّح ما بدواخله؟

لم يكن بذيئاً مثل غالبية مرتادي مواقع الدردشة. لم يبدُ مفتعلاً. وبالتأكيد لم يكن متعجلاً في إطلاق نياته.. بل صبوراً رقيقاً في حديثه وشعرت معه بأمان لم أفهم سره.. بل صرتُ أشعر معه باستقرار نسبي كلما حادثته، حتى بات يعوضني ما ينقصني من اهتمام، لاسيما وهو يبدو مستعداً للإصغاء والرد بما يناسبني تماماً.

قبل أن يمر شهر على معرفتي به، كنتُ قد حدّثته عن كل شيء. عن نفسي وعائلتي وظروفي. واعتقدتُ أني أنا أيضاً قد

www.aljsad.net

عرفتُ عنه كل شيء.. أخبرني أنه مطلق سبق له الزواج لكن ليس له أولاد. يعيش وحده في «فيلا» تقع في قرية صغيرة قريبة من إحدى المدن الكبيرة في جزيرة «يولاند» ويعمل في مجال الاتصالات. هذا بالاضافة إلى الكثير من التفاصيل التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وبعد فترة من التواصل معه، أقنعني توربن بتبادل الصور أيضاً. وبالفعل أرسلتُ إليه واحدة. صورة لي وأنا في الثالثة عشرة تعمدت أن تكون باهتة وغير واضحة تماماً.

وبعث لي هو أيضاً بصورة.. ثم أعقبها بصورٍ كثيرة في ما بعد.

بدا لي من النظرة الأولى وسيماً رغم سنوات عمره.. طويلاً، عريضاً، تبرز عضلات صدره من وراء قميصٍ أزرق، فيبدو كرياضي سابق.. شعره أشقر فيه أثر من بياض وبشرته دكناء قليلاً مقارنة بالدنماركيين، بها تجاعيد قليلة أو ربما ظهرت قليلة في الصورة. أخبرني مرة أنه يحرص على ارتياد حمّامات الشمس لأنه يمقت بشرته البيضاء ويفضّلها مسمرّة.. وكان محقاً، فسمرته المصطنعة تلك كانت متناغمة مع لون عينيه الخضراوين أو الزرقاوين، لا أعلم بالضبط .. ولم أعرف قط.

www.aljsad.net

(١١)

رؤيتها كانت خرافية!

المساحات الوقتية القليلة التي احتلتها سقطت سهواً من عمري، لاسيما ونحن نختبئ عن العمر تحت غلالة ليل.. وإن كان الليل والبرد يحتويانا بكرمهما المعتاد، فكيف أمكن للدقائق أن تنفر بعضها من بعض كما فعلت؟ نهشتني بجشعها الدقائق وأولتني عناية خاصة، فكانت رقيبة عليّ وقطعت مفاجأتي بسرعة هائلة فيما ليل كوبنهاغن يميل علينا منوّراً.

الثلج هنا يلوّن السماء بلونٍ صارخ البياض وهي لا حول لها ولا قوة أمام طغيان نقائه.. وأنا لا حول لي ولا قوة أمام طغيان امرأة آية هي، تحفل بأنوثة بريئة.

ما حدث كان عادياً أكثر من اللازم، رغم بعده الخرافي.

كيف أمكن للقيا أن تكون بسيطة التفاصيل هكذا؟

أما كان من المفترض أن نلتقي بشكل مقيّد الأطراف، مصلوب الأحداث والأقوال؟!

www.aljsad.net

كان مفترضاً أن نحضّر للقائنا. . نطهو اللقيا بروية ذوّاق وعجلة نهِم، فأُطلعها على ما سيميز ثيابي، وتخبرني عمّا ستزيده على أناقتها، لكي لا تضيّعنا أشكالنا.

لا ريب أن زمننا هذا هو أكثر زمنٍ قُدّر فيه للناس مواعدة بعضهم بعضاً دون سابق معرفة. . لا ريب أنه لذلك ملفّق المعالم حد الملل من تنبؤاته الضعيفة.

زمن اللقاءات العمياء هذا لا يناسبني.

وهي العالمة غير المعلمة بي كان من السهل عليها أن تعرف عني ذلك، ففصّل قدَرُها أحداث لُقيانا على مقاسي تماماً.

ما زلت دهشاً من كيفية إمكاني التملّص من فلك زمن العمى هذا لأدور في مجرّتها الخاصة. . أهي القدرة الهائلة التي تتمتع بها هذه المرأة؟ هل تراها التقطتني لتلعب بأفلاكي فقط ولتكوّنني من طين أفلاكها عوضاً؟ توجدني، ثم تضعني حيث تُريد لي أن أكون تماماً؟

إني طوع صبيانيّتها بصبري الذي آن له أن يضفي علي تباهياً مُبَرَراً. . هو الذي رافقني طويلاً وارتقى برويّتي وزيّن جزءاً كبيراً من عقلي.

كان حتماً لأقدارها أن تكون خارجة عن القانون. . فكانت.

ليس عجباً أن يكون لقاؤنا عبثياً كما أقدارها. إذ لم يفرض زمن التلفيق سلطته علينا، لربما فقط لأنها الطرف الآخر من علاقة ضبابية الملامح والمواقف، حادة البصر في ما يخص أعماقنا.

www.aljsad.net

كل مخجلات عصرنا من تكعيبية الأحداث إلى امتطاء سرجها وتسييرها، لم تتجرأ على الوقوع معنا. وأنا جد مندهش أن كيف تمرّدتْ هي على معطيات زمننا غير الجميل، ولا أملك إلا أن أعجب لنفوذها الكبير لدى القدر.

لستُ ممن يشغلون أنفسهم كثيراً بمقارنة سوء حظوظهم من حسنها. لكن ما تراني أسمّي عروجي على محطة بنزين في منطقة «أويستربرو» في وقت من الليل كنتُ عائداً فيه إلى البيت بعد سهرة مع أصدقاء لي.

الوقت متأخر، وأنا تعب، و«أويستربرو» بعيدة عن بيتي، وسيارتي مؤكد أنها لم تكن لتموت جوعاً الليلة.. فما الذي حدا بي إلى هذا الموقع المحدد من كوبنهاغن «الضخمة»؟!

ليست صدفة.. فأنا كنت قد كفرت بالصدف منذ زمن، وليس بوسعي استعادة إيماني بها فجأة، ومتى ما أمرتُ.

لو أنني لم ألحظ أن سيارتها كانت موجودة قبل وصولي لربما كنت اعتقدتها طاردتني ثم جعلت الأمر يبدو صدفة.. لكن عليّ أن أعترف بأنها هي أيضاً كانت على قدر المفاجأة.

فيما كنتُ أملأ خزان وقود السيارة، لم أتنبه لاقترابها المفرط مني، فقط سمعتُ اسمي:

ـ رافد؟!

يدي على مقبض الوقود المتدفق في سيارتي.. التفتُّ

www.aljsad.net

ورحت أحدِّق في الفتاة لأجيب بعد ثوان قليلة برأسي محيياً وموافقاً معاً. فقفزتْ هي فوق ترددها بنبرة قائلة:

ـ أنا هدى.

قالت هذا وهي تضغط بكفها على صدرها كمن يبتهل.

ارتفعت كفي الطليقة تشير إشارة عدم ثقة وحيرة:

ـ هدى.

لم أقصد التساؤل وإنما انطلق اسمها من شفتي بشيء من الدهشة، وردت هي بهزة ضعيفةٍ من رأسها. وفقدتُ كل كلمات الترحيب التي أعرف، لأجود في النهاية بـ:

ـ مرحباً.

ابتسمتْ ابتسامة واسعة وهي تهز رأسها بثقة أكبر هذه المرّة.

وتركتُ نفسي أنظر إليها بوضوح لأعيها كلها.

بدَت ناضحة بالشباب وهي تبتسم. وأحسست تواً كم أنّ ابتسامتها قلبية، وأنا أنظر في عينيها مباشرة.. بؤبؤا عينيها اتسعا على آخرهما في نظرة طفولية، وصدغاها ارتفعا فأكسباها إشراقة، وخدّاها تكوّرا بلطف أسفل عينيها.

جمالها بريء، غير صارخ. وهو رغم براءته عادي، سقط في قلبي دون وعي مني، ثم من بعدها بدأ يُفرّخ في قلبي بتتابع مذهل، مثل قنبلة عنقودية انتشر فيّ.. وأنا أحب جمال المرأة الذي لا يدعوني إليه بشدة، وأفضل ذلك الذي أمرّ به في طريقي دون انتباه ثم أعود فألتفت نحوه كأني لمحت عزيزاً.

www.aljsad.net

أثارني قوامها، وتذكرت وصفها له.. منمنم.. يا لنمنمته!!

لو أنني أطبقت عليها بجسدي لطقطقت أضلاعها تحتي دون شك.

لم ينجح معطفها السميك الذي أحاط خصرها بحزام عريض أن يغش مظهرها ومدى ضآلة جسدها. ثم ما لبثت أن أعجبتني فكرة جسدها الضئيل.. هكذا كما هو، في متناول اليد، وعلى قدر كفي.. كله بحجم غَرفَة، وتكفي نصف ذراعي لإحاطته.

فجأة تذكرت بحماس، أن هذه هي بشحمها ولحمها، بخطوط مستقيمة وواضحة لا ضبابية كما تعودتها في الأشهر الماضية.. هذه هي أمامي امرأة نشدتُ طيفها كثيراً قانعاً به عن أصلها، فأبتْ إلا استحضاري إياها حقيقة كاملة. بهذه البساطة سارت الأمور.. كأنني لم أنم لأصحو، ولم أنم لأصحو، ولم أنم لأصحو، إلا لأجدني وجهاً لوجهٍ وإياها.

بالله كيف أراها والليل ساكن؟

لِم لم تستشط السماء للقيانا فتهوي من فوقنا؟ كيف لم يهِج البحر لمرآنا فينهال علينا تسونامياً جديداً من هول ما أحدثنا!

لماذا الطبيعة على طبيعتها ونحن نلتقي؟ فهي لا تنفعل، ولا تثور، ولا تنفجر.. والسماء لا تمطر والأرض لا تفيض.. ثم الأرض لا تبلع والسماء لا تقلع، والماء لا يغيض، ولا وجود لـ «جوديٍّ» أتكئ وإياها عليه.

لا شيء.. عدا الثلج وهدوء المدينة ليلاً.

www.aljsad.net

كوبنهاغن ساكنة أكثر مما ينبغي، وهي لا تكتفي بذلك فقط بل تصيبني بعدوى سكونها.

الليل ليَّل كما لم يفعل من قبل. سكن فعلاً واجتمعت كل مظاهره عليّ، إلا من سواده الذي بهت بفعل الفداحة التي ارتكبها الثلج.

كل شيء هادئ وأنا ألتقيها.. حتى من بعد أن عرفتُ أني في حالة لُقيا استمر السكون، والأشجار ما تزال منتصبة، وسيارتي ما زالت على وضعها، وكفي ما تزال على مقبض الوقود.. وهي ما تزال واقفة أمامي على بعد أقل من مترٍ مني.

أستغرب أن حدثاً كهذا اتخذ ثواني بسيطة من الوقت.

كيف تهين الثواني موقفي؟

لماذا تسمح لنفسها بأن تدس أنفها في الأحداث الكبيرة. كان ينبغي أن تُخلق أعمار بأكملها من أجل حدثٍ كهذا. كيف لا تكون الأزمنة على قدر الأحداث!

لستُ متأكداً إن كان دماغي قد قام بعمله كما ينبغي، باعثاً بإشاراته إلى يدي كي تمد إليها، فلا أذكر أني فكرتُ قبل أن أفعل ذلك.. ونقلتْ هي بصرها إلى كفي في نظرة لمحتُ فيها تردداً. فسحبتُ يدي بسرعة وأنا أقول بارتباك:

ـ آسف.

أبعدت عينيها عني وقالت بلا مبالاة:

ـ لا عليك.. لعلي كنت سأصافحك.

www.aljsad.net

لوهلة بدت لي أجرأ مما أعرفها.

قالت ونظرتها تتأرجح بين وجهي والأرض:

ـ آاااممممم.. كيف أنت؟

إبتسمتُ رغماً عني. هذه الـ «آاااممممممم» أعرفها تماماً.. إنها «آاااممممم» زوجتي. وقد تعودتُ سماعها من العراقيين الذين نشأوا هنا، غالباً ما يبدأون بها حديثهم.

لمحت إضافة إلى ذلك اللكنة الطفيفة التي تشوب لفظها العربية.

ـ بخير الحمد لله.

ثم كأنني أذكرها بشيء قلتُ:

ـ الوقت متأخر.

ـ كنت في زيارة.

ردت ببساطة وقد فهمت تلميحي.

أومأتُ برأسي كمن فقد الكلام، ثم تذكرت فجأة أن عليّ دفع ثمن الوقود فاستمحتها عذراً دقيقتين، عدتُ بعدها لأجدها تقف عاقدة يديها على صدرها في حركة تشي ببردها.

لم أملك إلا أن أبتسم لها، كأنني أفاجأ بها من جديد:

ـ انتهيتِ من ملء وقودك؟

سألتها وعقلي يدور بسرعة.

ـ لست بحاجة إلى وقود. كنتُ على وشك أن أشتري شيئاً فحسب.

www.aljsad.net

ـ أوَلن تشتريه؟

ردّتْ بسرعة:

ـ كلا.

شجّعني ردّها، وفهمتُ منه تلميحاً:

ـ نجلس في مقهى؟

ردت بهلع:

ـ كلا.

لم أشأ مجادلتها:

ـ حسناً. . ماذا نفعل؟.

فكّرت قليلاً ثم قالت:

ـ آامممم. . ما رأيك في «لانغ لينيه»؟ إنها قريبة من هنا.

ـ في هذا الوقت؟!

ردّت وهي تتجه إلى سيارتها بخطى سريعة:

ـ بل أنسب مكان في أنسب وقت.

استسلمت لها ووجدتني أسير خلفها بسيارتي. . فلتختر ما تشاء من الأماكن، المهم أن أجلس إليها.

حين توقفتْ للإشارة الحمراء، انتقلتُ إلى جانبها. فأنزلتْ زجاج سيارتها مبتسمة، وفعلتُ أنا مثلها. قالت وهي تبدو متجاوزة خجلها الذي استقبلتني به:

ـ لا تخف. . الشوارع خالية سنصل بسرعة.

www.aljsad.net

قلتُ وأنا أشعر بها محببةً جداً إلى قلبي:

ـ لا تهتمي بذلك.

اتسعت ابتسامتها برضا. وكنتُ أنا أغالب ابتساماً يشغلني عن متابعة فرحتي بها، فجاءت ابتساماتي مرتبكة وهادئة تارة ومتسرعة تارة أخرى.

كنتُ في قرارة نفسي أفضّل أن أجلس وإياها في مكانٍ دافئ تحيطنا فيه جدران تقينا البرد والثلج. لكنني قدّرتُ مخاوفها من أن تُرى برفقة رجل غريب.

ركنّا سيارتينا في الشارع الضيق المحاذي للساحة القريبة من البحر، حيث تعتلي «حورية البحر الصغيرة» صخرتها. هبطتُ من السيارة وقد أربكني سكون المكان.

ـ أما زلتَ لا تتدثر رغم كل هذا الصقيع؟

أجبتها متيقظاً لجملتها، ونحن نصعد الدرجات القليلة إلى الساحة الصغيرة:

ـ لا أشعر ببرد شديد.

كنا قد صرنا في الأعلى. الساحة الصغيرة تمتد أمامنا بيضاء من كل سوء. والحورية تجلس جلستها الشهيرة ترنو بنظرة ـ كما بدت لي ـ شبه منكسرة.

ـ أتجلسين؟

تركتها تجلس بعد أن أزاحت الثلج عن المقعد. ووقفتُ

www.aljsad.net

أمامها مباشرة ببلوزتي غير الواقية من برد ليلة كهذه. ولم أعرف أين أضع كفيّ، فدسستهما في جيبي البنطلون.

ـ زوجتي تصرّ على ترك معطف وسترةً لي في السيارة، رغم علمها أنني نادراً ما أستعملهما.

قلتُ جملتي دون تفكير، ثم ندمتُ فوراً.

كانت أنهت ارتداء قُفّازين أسودين، من ثم أطبقت كفّاً بكفّ وأسندتهما معاً إلى ذقنها كأنها تبتهل إليّ:

ـ ما اسم زوجتك؟

ـ ظننتك تعرفينه.. أنتِ التي تعرفين عني قلة تدثري، لا بد أنك تعرفين اسم زوجتي.

أزاحت عينيها عني:

ـ لقد رأيتك لا تتدثر.. ولم أسمعك تنادي زوجتك.

ـ أين رأيتني؟

ـ كوبنهاغن صغيرة.. وأفراد جاليتنا أغلبهم معروفون لبعضهم البعض.

قاطعتها منحنياً قليلاً لأقترب من وجهها:

ـ لِمَ لم أعرفك إذاً؟

ردتْ ببرود أوروبي:

ـ هذا شأنك.

ابتعدتُ عنها لأنظر إلى الأرض وأصمت.. وكنت أشعر

www.aljsad.net

بعينيها، تلتصقان بي. فعدتُ أرفع عينيّ إليها فقابلتني بنظرةٍ فيها لوم باسم ثم نهضت واقتربت مني قائلة:

ـ ما رأيك أن نقترب من الحورية.

ودون أن تسمع ردي، تخطتني وتابعت سيرها.

لم تكن تسير، وإنما كانت تنبض بتلك الخطوات، كأنها تتنفس خطواتها.. وانتبهت لكونها تمشي على أصابع قدميها، فخمنتُ أن لا بد أنها عادة اكتسبَتها بسبب قصرها. بيد أني احترت وأنا أراها منتعلة حذاءً دون كعب.. لماذا تمشي إذن على أطراف أصابعها؟ هل لتبدو أكثر إغراءً، كما هي الآن؟!

نظَرَت هي إلى وقع قدميها ثم قالت:

ـ أكره أن أعكّر بياض الثلج.. أحب الفرجة على مساحات ثلجية دون شوائب.

ـ عكسكِ.. أفضّل اقتحام ما يعجبني.. مجرد النظر لا يكفيني.

توقفَتْ، فتوقفتُ. قالت بطريقة عابثة وهي ترفع رأسها وتنظر في عينيّ مباشرة:

ـ تفقد المناظر جماليتها حين نوجد فيها. تخيّل جمال غابة أمازون من فوق.. لكن إذا ما سوّلت لك نفسك الوجود فيها فعلاً، ستلودغك ثعابينها.

تحديتها:

ـ وفي ذلك متعة أخرى.

www.aljsad.net

ـ في أن يلدغك ثعبان؟

ـ في أن أعيش تجربة.

نفختْ من أنفها بسخرية وتابعت مسيرها.. كنا قد اقتربنا من الحورية، فقفزتُ عن الدكة التي تفصل بين موقع الصخور المحيطة بالحورية والساحة.

أرادت هدى أن تعبر ورغم أن العلو لم يكن شاهقاً إلا أني وجدتها تتردد.. مددت يدي إليها بحركة لا إرادية، فتراجعت في مكانها.. وللمرة الثانية مددت لها يدي فرفضتها.. نظرتُ إليها معتذراً فابتسمتْ برفق، ثم اقتربتْ قليلاً وأسندتْ كفها إلى كتفي وقفزتْ.

جف حلقي للمستها.. وفار دمي في عروقي وأظن شعري قد تبعثر فوق رأسي!

لو أنها صافحتني، لربما لم أكن لأعير الأمر كثير اهتمام.. ولولا أنها وضعت كفها في كفي كي أعبّرها لما انتبهت ربما لملامستها قطعة من جسدي لكن أن تتخير هي موقعاً منه، تستند إليه بكفها الصغيرة التي أحسستها طفولية الوقع بشكل كاد يبكيني، فإنها إذن لَلَمسة تفوق ارتطام جلدي بجلدها دوياً.

حاولت أن أكمل حوارنا، وحين تحدثتُ تهدّج صوتي:

ـ حوريتك هذه رضيت لنفسها عذاباً هائلاً كي تعيش تجربة حب تعلم أنه مستحيل ومحكوم عليه بالفشل.

www.aljsad.net

انتشرتْ على مُحيّاها سعادة لطيفة:

ـ أول مرة أجد عراقياً من الذين نشأوا في العراق يعرف قصتها. . أهنئك.

أطلقتُ ضحكة صغيرة:

ـ لا تفعلي. . أنا مخيّب للآمال كفاية كي أخبرك أني لم أكن لأعرف قصتها لو لم تخبرني زوجتي بها.

حاوَلَت أن تواري خيبة أملها ببسمة:

ـ إذن أنت مثلهم. . لم تكن تعرف قصتها؟

ـ بل أنتِ التي مثلهم. . تعرفين قصتها.

تجاهلتني بالتفاتة سريعة نحو البحر.

ـ لم تقل لي. . ما اسم زوجتك؟

قلت وأنا لا أرفع عينيّ عن وجهها:

ـ شذى.

ـ اسم لطيف.

ـ ألا تجدينه على وزن هدى مثلاً؟

ـ الأسماء كثيرة والأوزان قليلة.

ابتسمتُ موقناً أنني لا أستطيع مجاراتها دون افتعال جهدٍ ما.

سألتها:

ـ أليس غريباً أن تعرّفيني بنفسك الليلة؟

نظَرتْ إليّ كمن لم يفهم.

www.aljsad.net

ـ كان بإمكانكِ الإفلات.. فأنا لم أكن لأتعرف إليك على أية حال.

ردت ببراءة:

ـ لا أدري حقاً.. لكني غير مؤمنة بالحظوظ والصدف.

لم أرغب في تصديقها وبدلاً من أن أخبرها بأني أنا أيضاً غير مؤمن، قلت بارتياب:

ـ ما تراي سأجد في جعبة نيتك إذاً؟

نظرت إليّ بحيرة:

ـ ليس عندي ما أفاجئك به.. أنا مملة بما يكفي.

وألقت نظرتها في البحر وسكتت.

سألتها وأنا أفتعل مرحاً:

ـ طيب.. أخبريني متى كانت آخر مرة التقينا فيها؟

التفتت إليّ.. نظَرتْ في عينيّ بقوة أربكتني وحفّزتني كثيراً، وكنتُ منهكاً كفاية فوضعتُ كفاً في جيبي معتصراً الفراغ بقبضتي المختبئة.

ـ سنوات.. مرت سنوات.

ورنّ هاتفي ليقاطعني قبل أن أنبس.. ندمتُ على عدم تركي إياه في السيارة، ووجدتني مضطراً إلى الإجابة عليه تحت وقع نظراتها.

كانت شذى.

ـ تأخرت..!

تذاكيتُ قائلاً باقتضاب:

www.aljsad.net

ـ لن أفعل.

ـ متى تعود؟

ـ بعد قليل.

أغلقتُ الهاتف.. سألتني:

ـ زوجتك؟

ـ نعم.

ـ آسفة على تأخيرك.

ـ لا تقلقي.

ـ أنا أيضاً تأخرت.. عليّ أن أذهب.

تحرّجت استبقاءها، وآثرت الاستسلام على الفور.

سارت أمامي.. فراقبتها وهي تتعمد السير على ما رسمته خطواتي السابقة، واضعة قدمها الصغيرة على مكان خطواتي بحذر. ابتسمتُ لفعلتها رغم ضيقي من هروبها السريع مني. ابتسمتُ لها كثيراً تلك الليلة، أكثر مما تتحمله هيبة رجلٍ مقابل امرأة.

ـ يبدو أنكِ لا تودين تعكير الأرض أكثر مما فعلنا.

التفتت مبتسمة وهي توازن سيرها:

ـ فعلاً.

بدت صفحة وجهها أثناء التفاتتها السريعة تغالب نور الشارع، وأغرتني كثيراً حد أن أجبرتُ نفسي على الانتقال ببصري إلى الأرض، ثم إلى الشارع، ثم رجعت به إلى الحورية، ثم

www.aljsad.net

مررت به على المكان، ثم توقفت به عندها، ثم عدت أنقله عنها.

فتحت باب سيارتها واتخذت وضعية مَن على وشك الوداع.. قلتُ لها:

ـ فلتتحركي قبلي.

أومأت برأسها وودّعتني ثم اختفت.

لبثتُ أستمع إلى صوت محرك سيارتها حتى تلاشى هو الآخر تاركاً إياي للسكون، فشغّلتُ سيارتي وهيّجتها ضاغطاً على البنزين بقوة عدة مرات، ثم تركتها تهدر فيما استرحت في جلستي دون نية السير بها.. كنت قد بدأت أشعر بمدى إنهاكي، وأكاد لا أصدق أن عليّ القيادة لثلث ساعة حتى أصل إلى البيت.

استرخيتُ في جلستي مغلقاً عينيّ، وبقيتُ على وضعي هذا لدقائق لم أحصها، لأنتفض بقوة على رنين هاتفي. نظرت إلى الساعة فوراً قبل أن أجيب، وعرفتُ بأنها شذى تسأل عن سبب تأخري.. أخبرتها أنني في طريقي وتجاوزتُ نبرتها المنزعجة.

شغّلتُ مسجّل السيارة، علّه يلهيني عن التعب وذلك النعاس الذي بدأ يتسلل إليّ، فانطلقتْ أنغام على وقعها تحركتُ بسيارتي التي بَرَكَتْ في محلّها أطول مما ينبغي.

وكنت أندفع بسرعة غير قانونية في طريق انسابت خالية أمامي حين باغتتني الكلمات:

يا حريمة.. يا حريمة

www.aljsad.net

انباكَت الكلمات من فوق الشفايف

يا حريمة. . يا حريمة

سنينك العشرين ما مرها العشق. . والعشق خايف

يا حريمة. . يا حريمة

لا ولك. . لا، لا على بختك

ماني سالوفة صرت، بين الطوايف

يا حريمة. . يا حريمة

تعجبتُ لهذا التناغم الذي ترقص عليه أحداث الليلة.

يا حريمة. . ! ووجدتني أبتسم ساخراً.

حتماً من المؤسف أن أترك نفسي لعبث مواقف صغيرة كالتي كانت الليلة. وأُثقل بالحدث، وأتحمل ما هو دون طاقتي بأضعاف.

لماذا سمحتُ لها أصلاً أن تصوّرني أمام نفسي على أساس خال من العشق، كأنني لم أختبر نساءً على مر حياتي. . بينما عقلي يجاهد في إرضاء رجولتي وتطمينها.

لا أفهم كيف أنني سمحت لها أن تسيرني على شوك الشكوك في نيات قلبي؟ حتى لم أعد أعرف إن كنت عاشقاً لامرأة، أم متعلقاً بطفلة، أم حانياً على مراهِقة.

ولا أفهم. . لا أفهم منبع السخرية الشديدة التي جعلتني أستمع إلى أغنية شديدة الحس العراقي، في الليلة ذاتها التي ألتقي فيها امرأة تدّعي العراق وهي بعد لم تتأكد منه. تمنيت لو أنها

www.aljsad.net

حقاً استمعتْ إلى هذه الكلمات. . كان الأجدر «بحسين نعمة» أن يقدم نفسه لها الليلة بدلاً مني.

كان الأجدر أن يعيّرها بسنينها العجاف الخالية من العشق، بدلاً من أن يعيرني.

هي التي احتارت في ابتكار أساليب عبثية كي تدور وتدور برأسي فتدوّخني. . دون أن تلقي بالاً لكوني رجلاً لديه صندوق مفاجآت ذكورية بإمكانها إسعادها لو شاءت.

حسين نعمة. . فليُسمِعها رأيه إن كانت به جرأة على نقل أغنياته لابنة عراقنا أوروبية الملامح هذه.

لكن هيهات!

ما لفتاة الدنمارك وأغانٍ كهذه؟ كيف تصلها هذه الكلمات وهي على الأرجح لم تسمع بمغنيها، وقد لا تفهمها. وإن حدث وشكلت الكلمات مفهوماً حرفياً فإني أشك في كونها ستخدش قلبها وعياً بها.

يا حريمة . . !

نساء أوروبا كلهن لا يرضينني، ولا يشبعن فضولي. لا أكاد أحزر البرود الذي يكتنفهن، ثم لا أكاد أصدقه.

إنني حقاً، وبكل بساطة، لا أحب الأوروبيات. . لا أستسيغ الشعر الأشقر والعيون الملوّنة التي تصيب قلبي بزمهرير من عاطفة لا تجيش، وتبقى رابضة في قلبي حتى العفن. فكيف أتقبل هؤلاء اللواتي تم تهجينهن عبر سنين الغربة؟! إنهن يثرن

www.aljsad.net

اشمئزازي، مثل شاي وضع فيه ملح. . ولدهشتي الشديدة أجد نفسي أتزوج واحدة منهن، ثم أنجذب لأخرى.

يا ألف «حريمة». . !

إنني جد آسف على تبعثر هذا الكم الهائل من مشاعري.

ليتني لم أتعرف إليها ولم أختبر سنينها العشرين التي أشك في كونه قد مرّها العشق، والعشق خائف.

العشق خائف.

العشق خائف.

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(١٢)

سرعان ما قرعت الامتحانات الأبواب منذرة بنهاية السنة. تَأكدتُ بأني سأمتحن في درسين فقط، أُنهي بهما سنتي الأولى في الثانوية، هما البايولوجي والكيمياء.

قررت بيني وبين نفسي ألا أدرس، لا لسببٍ معيّن، فقط شعرت بأني لا أريد أن أدرس.

ثم فجأة، وقبل الامتحان بأسبوع واحد، اخترت مناقضة نفسي.. أن أدرس وأيضاً لا أدري لماذا ولا أي سبب حقيقي ألهمني فعل ذلك. فانكببت على كتبي، قبل أيام قليلة من الامتحان.

الورقة التي استلمتها من المدرّس توضح أن موعد دخولي للامتحان في اليوم المحدد له سيكون في الواحدة والثلث بعد الظهر. كان اسم زينة في بداية لائحة الأسماء، وستمتحن باكراً في العاشرة صباحاً بالتحديد.

www.aljsad.net

يومها، قمت من سريري في الثامنة، بعد أن أيقظني نور الشمس الذي سطع بقوة نافذاً إلى غرفتي. لم أكن قد نمت أكثر من ساعتين، وكدت أبكي وأنا في فراشي من شدة التعب ومن عناد الأرق الذي لم يفارقني حتى الفجر.

وقفت تحت الدش أغتسل بماء بارد كعادتي. كانت ساقاي ترتجفان وتفلتان تحت وقع حملي بين فينة وأخرى فاستندت إلى الحائط أستعين به على حمل جسدي الضعيف.. كنتُ قد هزلتُ وخسرت الكثير من وزني في الفترة الأخيرة.

انتهيت من حمّامي وهبطت بهدوء إلى تحت وأنا أسمع أصواتاً تصدرها أمي تنبعث من المطبخ. وقفتُ عند بابه دافنة كفيّ في جيب بنطلوني القصير من الجينز. وكنتُ ما أزال لافة شعري بمنشفة كبيرة بدَت كعمامة ضخمة فوق رأسي الصغير.

تنبهت أمي لوجودي وإن لم تنظر إلي. قالت وهي تتحرك في المطبخ بأن فطوري جاهز، فأومأتُ برأسي، ولم تكن بي رغبة لفتح فمي فزممته.

عادت هي تقول بنشاط:

ـ إذا كنتِ تفضلين تناول الإفطار مع أبيكِ، فإنه على وشك الوصول.

لم يكن قد عاد من جولته الصباحية المعهودة. أبي يصحو كل صباح في السابعة ليخرج يتمشى ولا يعود قبل التاسعة.. في طريق عودته يشتري خبزاً فرنسياً من الفرّان الذي في مركز مدينتنا، وأحياناً يتأخر أكثر فينتظر حتى يفتح السوبر ماركت أبوابه

www.aljsad.net

ليشتري لنفسه زجاجات «كارلسبيرغ» وفودكا، هذا إذا كانت زجاجاته التي يحتفظ بها في ثلاجة صغيرة في غرفته قد نفدت. كان يحرص على ألاّ يرى أحد منّا مشترياته الخاصة تلك، ولاسيّما أنا ونخيل.

حقاً.. لم يصدف أن رأيته قط وهو يشرب.. لم يحتسِ الخمر أمامنا مطلقاً.

من المؤكد أنه لا يفعل ذلك خجلاً، فأبي ليس بالضعيف الذي يتستر خجلاً من فعلٍ ما.. ويمكنني أن أفسر الأمر بأنه احترام لنا وله.. أو فلنقل احترام للازدواجية التي نعيشها.

أومأتُ لأمي مرة أخرى أن نعم سأنتظره.. فرفعتْ عينيها إليّ لتفتحهما على آخرهما وتقترب مني قائلة بصوت مرتاع:

ـ ما الذي أصابك؟ وجهك مصفرّ.

ضقت بتدخلها وأجبتها باستياء:

ـ كنتُ أدرس.. ألا تعلمين!

سألتْ غير عابئة للضيق الذي في نبرتي:

ـ لم تنامي؟

لم أجب. لم تكن بي رغبة في الإجابة. تركتها واتجهت إلى الصالة. فتحت التلفاز وأزلتُ المنشفة عن شعري القصير تاركة رطوبته تلامس رقبتي ولا نية لي بتمشيطه.

عاد أبي من الخارج وتبادل كلمات قليلة مع أمي ثم دخل عليّ وهو يسأل بلهجته الطيبة:

www.aljsad.net

ـ كيف هي المعنويات اليوم؟

ابتسمت بتعب:

ـ بخير.

مال عليّ ليحضنني مقبّلاً رأسي فالتصق وجهي بصدره. وشممت رائحته الغريبة المختلطة بعطره.. غريبة، لكني أحبها إذ تذكرني دوماً بعناقه وطيبته.

لم يكن يهمني ما يردده الناس عن أبي.. فليذهبوا إلى جحيم أحكامهم..! فلم ولن أخجل منه.

لعلي فقط خجلت من ازدواجية القيم في منزلنا، لكن شخص أبي لم يفقد قيمته عندي مطلقاً. بل إني لأعجب لفتيات يكرهن أو يعادين آباءهن لسبب أو لآخر يُعدّ تافهاً عندي، مقارنة بالاختلاف الكبير بين المعايير التي قُدّر لي أن أقيس عليها الأمور ومعايير أبي.. فأبي هو الصدق الوحيد الصامد بين طيات زيفنا المتعددة، كيف لي إذن ألا أحترم ثباته!

تناولت إفطاري معهما متبادلة حديثاً عادياً اغتصباه مني، وعدت بعدها إلى غرفتي. فتحت الحاسوب ووجدت رسالة من «توربن» يتمنى لي فيها حظاً طيباً فجلست أجيب على رسالته برسالة طويلة أفرغت بين أسطرها كل ما كان يتثاقل في ضميري، بعد أن بات توربن بئر أسراري فعلاً.. حتى ذلك الحين لم تكن لي أسرار بقدر ما هي هيجان من العواطف والأفكار التي لم أكن قد وجدت من أُطلعه عليها خيراً منه. إلا أنني كنت أعتبرها

www.aljsad.net

كذلك مباهية نفسي بخطورة مفترضة أضفيها على تلكم الأفكار.

وحتى ذلك الصباح لم يكن ذلك الهيجان قد تُرجم لأفعال بعد.

قرابة الساعة العاشرة والنصف كنت قد ارتديت ثيابي وحشرت سماعتي «السيدي بلير» تحت إيشاربي.. وفي طريقي إلى المدرسة، كان صوت «غاري بارلو» يتسرب هادئاً إلى أذني فينعش حواسي وأعصابي.

Now I'm deep inside love and still breathing
She is holding my heart in her hand
I'm the closest I've been to believing
This could be love for ever

All throughout my life
The reasons I've demanded
But how can I reason
With the reason I am a man

مفضّلتي على الإطلاق هذه الأغنية. ولستُ أدري كيف أمكن لأغنية فيها كل هذا الإيقاع الذكوري، أن تكون مفضّلتي! فحتى وقت كتابتي هذه الأسطر ما أزال أستمع إليها بانتظام.. إنها ميراث إدمان قديم، عسير الإدراك.

لعل النساء فعلاً يفضلن رجالاً يقبضن على قلوبهم بأكفهن. لكن ماذا بعد؟

www.aljsad.net

ما تراها ستفعل امرأة بقلب رجل سقط سهواً بين كفيها؟ تعتصره؟ تخبئه؟ تخنقه؟ تأكله؟

ثم إن كانت أغنية كهذه تثير سمعي وتدور برأسي، فما عساها تكون قد سرّبت إلى نفسي من قناعات أنثوية؟

لا أدري. . حقاً لا أدري.

يجدر بي أن أدشن رجلاً قبل البت في أمر بالغ الأهمية كهذا. والرجال حتى ذلك الحين كانوا قليلين في عالمي. وفوق هذا كانوا شفافي الخلقة غير مرئيين، ليس في وسعي إذن استدراجهم إلى بئر جنسي المختلف عنهم.

آن لي أن أستمع إلى الأغاني وأتفرج على الأفلام دون محاولة استنطاقها معاني أفترضها فيها مسبقاً. آن لي ذلك حتماً. فأنا أتفرج على الكثير من الأفلام، وأستمع إلى بحورٍ من أنغام لا تهدأ، مؤكدٌ أنها تمرح في عقلي على غفلة مني.

استقللتُ الباص. كان يجب أن أهبط منه بعد ستة مواقف، لكني فضلت النزول بعد أربعة، مؤثرة المشي. . في هذا الوقت من النهار تصبح شوارع كوبنهاغن الخالية أساساً من البشر أكثر خلوّاً وهو ما أحبّذ.

في البداية سرت على الرصيف الممتد أمامي وإحساسي بدفء شمس المدينة يرمّم قلبي. . شمس نادرة كل خيط من خيوط أشعتها ثمينٌ، ثمين حتى لكأني على وشك أن أقبض على

www.aljsad.net

خيوطها بأصابعي، وأخبئها في حقيبتي ثم أرتاب في أمر نفسي وأهرب.

شمس مدينتنا حين تكون فوقنا ونحن من تحتها، نشعر كم أنها لنا.. ملك يميننا. وبأنه لأمر كبير على الكون أن نمارس حياتنا تحتها. لكأنها حقاً حين تسطع لنا لا تسطع لغيرنا. ولا بد أنها كذلك، فظلمتنا لا يكفيها مجرد شعاع عادي من ضوء الشمس. لا بد لشمس كاملة أن تضيئنا دون أن يشاركنا فيها أحد.. قرص كامل، دائرة كبيرة تتعلق في السماء لا يسمح لها أن تلوح في سماء أخرى قط.. فتسطع فوق كوبنهاغن فحسب.

يقال هنا إن ندرة أشعة الشمس هي سبب العبوس الدائم وقلة الذوق المعهودة لدى الكثير من الدنماركيين.. أنا أوافق قطعاً على هذا القول، فإني خير دليل على دنماركية عبوسة، سمجة وقليلة الذوق، تتحول بقدرة قادر إلى لطيفة تطرطش منها التحايا والابتسامات الندية على بقية خلق الله ممن يقابلونها في الشارع.

على أن فكرة التحول من حال إلى حال ليست بفكرة جديدة على واقعنا الدنماركي. إذ يشمل التحول الكثير من أمورنا نحن الدنماركيين، الأصليين منا والحديثي العهد بالجنسية الدنماركية. نحن قوم في حالات تحوّل على مدى العام.. متقلبون مع الجو المتقلب ذاته الذي يحيط بنا.. نبتسم ابتسامة واسعة في وجه الغريب، ثم ما نلبث أن نضغط على أنوفنا بالإبهام والسبّابة كي لا تزكمنا رائحة الغرابة التي نفترضها فيه.

نحن أسرع قوم يتحوّلون من دين لآخر.. ولا غرابة في أن

www.aljsad.net

تجد أحدنا مسيحياً مثلاً، ينقلب بين ليلة وضحاها إلى بوذي، ثم كاثوليكي، ثم مسلم، ثم وهّابي، ويرتدي جلباباً قصيراً وحذاء رياضة، مطلِقاً لحية شقراء غير مشذبة.

بل إن كاتبنا الأشهر، صاحب روائع قصص الأطفال تغرق نصف قصصه الخيالية في حالات التحول.. فرخ البط القبيح يتحول إلى بجعة رائعة الجمال، وحورية البحر تفقد ذيلها ليستحيل ساقين تسير عليهما مثل بقية البشر.

لكن «هانس كريستان أندرسن» لم يسعفه خياله الطفولي الخصب بالتنبؤ بأقوام سيتحوّلون إلى قوميته.. مؤسفٌ أن يكون قد فاته أمر بديهي الحدوث مثل هذا. هل تراه اعتقد أن دنيا القرن التاسع عشر، حيث العالم محتفظ للكل بهويته، ستدوم.

لِم لم يجمح خيال أندرسن حد أن «يتدنمرك» العالم؟

لِم نحن السكندنافيين يتوقف خيالنا فقط عند حيوانات تتكلم، ميت يعود، أميرة تنام فوق حبة بازِلاّ، وعندليب يغني امبراطور الصين؟!

كيف سقطت صورتنا ـ نحن الدنماركيين الجدد ـ من مخيلة أندرسن؟! ولماذا يبدو لي سيدُ خيالنا محدود الخيال فجأة أمام واقعنا؟!

سرتُ على الرصيف لدقيقتين، وبدل أن أستمر انحرفتُ إلى طريق جانبي قادني إلى «بارك» كبير يحيط بالمدينة التي تقع فيها مدرستي ويمتد ليبلغ مدناً أخرى أيضاً، فيما تتخلل البارك غابات كثيفة.

www.aljsad.net

اخترتُ السير في طريق عريضة، ومعبّدة وسط تلك الغابات، تقوم على جانبيها أشجار عالية وكثيفة جداً تكاد من شدة كثافتها تجعل الطريق مظلمة في وضح النهار، بينما تناثرت مقاعد خشبية على جانبي الطريق.

مرت بجانبي امرأة تمارس رياضة الركض، ثم كهل برفقته كلبه. عدا هذين كانت الطريق تمتد أمامي خالية من الناس بما أن نظري لم يكن ليصل المقاعد البعيدة التي تحجبها الأشجار.

وحين اقتربتُ من أحد تلك المقاعد، تخلل أذني صوت ضحكات وهمهمات لم أسمعها على نحو جيد بسبب سماعات «السي دي بلير» المحشورة تحت إيشاربي.. التفتُ إلى المصدر بحركة لا إرادية ولم تستغرق التفاتتي أكثر من ثانية حتى عدتُ بعدها لأنظر أمامي.. لم أغيّر من إيقاع مشيتي ولم تتغير تعابير وجهي المتعبة منذ الصباح، لكنني كنت قد وعيت تماماً ما رأيتُ، وتمتمت بهمس لا يسمعه غيري:

ـ قذر.

حين وصلت أخيراً إلى المدرسة شبه الخالية كان قد تبقى ساعة وربع على موعد دخولي قاعة الامتحان. كنتُ أعرف أن عدداً من زملائي لا بد أنهم في الأعلى يتجمعون عند القاعة ولاسيما من قَرُب موعد دخوله. غير أني لم تكن بي طاقة الترحيب والأخذ والرد، فجذبت السماعتين اللتين أرهقتا أذنيّ واتجهت إلى «الكانتين» مباشرة.. اشتريتُ شاياً مثلجاً بنكهة

www.aljsad.net

الليمون وجلست إلى إحدى الطاولات على حافة كرسي كأنني على وشك أن أنهض، فيما تسمرتْ كفي على زجاجة المشروب حتى بدأت أشعر بخدر فيها من شدة برودتها. ولم أرفع كفي عنها ربما لأني شعرت بلذة لذلك الخدر الخفيف جداً والشبيه بالألم.

ثم تنبهت فجأة لكوني قد شردت تماماً.. شردت في اللاشيء فكنتُ واعية غالباً لشرودي.

ثبتُ عينيّ على مفرش الطاولة أحدّق في مربّع من تلك المربّعات التي رُسمت عليه، ثم لم أعد أقوى على رفعهما عنه. بل لم أقوَ على الرمش بعيني، حتى صارت المربّعات تتشوّش أمامي.

سمعت اسمي.. فرفعتُ رأسي لأجد زينة تقف أمامي مباشرة تظللني بظلها، فعجبت كيف لم أتنبه لقدومها ووقوفها القريب جداً مني.

قالت بعجلة وهي ترمش بعينيها بالطريقة ذاتها التي ترمش بها لعبة باربي سخيفة..، بتلك الطريقة التي أكرهها:

ـ هدى..أنت هنا!

أبقيتُ على صمتي.

ـ كم تبقّى على دخولك للامتحان؟

أعرف تماماً أنها تعلم بموعدي.. قلتُ بملل:

ـ مكتوب في الورقة.

www.aljsad.net

تجاهلتْ قولي:

ـ لقد حصلتُ على ١١.

ـ أها.. مبروك.

ـ حمداً لله أن السؤال جاء كما كنت أشتهي بالضبط.

فضّلتُ أن أنظر إليها فحسب، وأنا لا أجد ما أقول. وحاولتُ أن لا أحمّل نظرتي أي معنى وملامحي أي تعبير.. وبادلتني هي نظرة غريبة لوهلة ثم هوت على كرسي أمامي كأنها استسلمت.

قالت بحذر:

ـ لقد رأيتك قبل قليل في البارك.

سكتتْ لبرهة ثم واصَلَت بنبرة فيها مسحة شك والكثير من اليقين:

ـ أنت أيضاً رأيتني .

حاصرتني بصراحتها. فبدأتْ موجة من الضيق تتصاعد في صدري وتنحشر في حلقي لتلجمني فلا أرد. قد تكون زينة قد شعرت بلحظات الضعف التي انتابتني أثناء صمتي، لأنها اعتدلت في جلستها واستقام ظهرها وهي تغير من نظرات الشك البلهاء التي كانت تطلقها قبل قليل.. رفعتْ رأسها قليلاً وأطبقت جفنيها شبه إطباقة فصارت نظراتها تنسلّ بتعالٍ من تحتهما.

قالت وتعاليها يجعل منها متعجرفة سخيفة وهو ما يناسبها تماماً:

www.aljsad.net

ـ ما رأيكِ؟

ـ وما شأني أنا؟

ـ غاضبة؟

قلتُ دون أن أصدّق نفسي:

ـ مطلقاً.

مصّت شفتيها ونظرت بعيداً.. فاستغللتُ فرصة ابتعاد نظرتِها:

ـ لماذا لم تخبريني.

ـ عماد لم يكن ليقبل.

تجمّعت بصقة في فمي، وأحسستُ أنها تناسب وجهها تماماً الآن.

قلتُ بهدوء دون أن أهتم بما يمكن أن يحدثه قولي من مشكلة:

ـ لكنه يساكن فتاة دنماركية.

قالت بإنكار:

ـ فتاة؟ إنها امرأة.

ثم أكملتْ:

ـ أعرف عنه أكثر مما تعرفين.

لم أفهم ما تعني:

ـ ما طبيعة علاقتكما؟

www.aljsad.net

هدأت تعابيرها قليلاً . . وجالت ببصرها جولة قصيرة:

ـ مثل كل علاقة بين اثنين.

سكتت ثم أضافت:

ـ علاقة جديّة.

ارتعدتُ لوهلة من فكرة أن تكون زينة تعني ذلك حقاً . . زواج! ليس مستبعداً أن تخطط زينة لهذا رغم سنها المبكرة . . ليس غريباً على ذكائها وجموحها.

ـ ستتزوجان؟

ردت بجدية:

ـ ليس الآن، لكن في المستقبل. بالطبع هذه نهاية طبيعية.

فزعتُ وأنا أتلقى احتمال أن ترتبط زينة بحياتي إلى الأبد:

ـ لكنه يسكن مع أخرى!

ـ أعرف.

ـ وهذا لا يعني لديكِ شيئاً؟

ـ مذ تعرفتُ إليه وهو يسكن عند تلك الأخرى. إنه في السادسة والعشرين. وما تقدمه «هيلدا»، لا أقدمه أنا.

سكتت قليلاً وهي تنظر في عينيّ لترى وقع كلامها فيهما ثم استرسلتْ:

ـ بل إنني قابلتها.

ـ من؟

www.aljsad.net

ـ هيلدا. . تلك التي يسكن عندها.

ـ حقاً!

قالت متأثرة لإثارتها حماسي:

ـ نعم. . أنا طلبتُ منه أن يقابلني بها.

ـ ثم؟

ـ لا شيء. . تأكدتُ أنها ليست منافسةً لي.

رفعتُ حاجبيّ، فضحكت قائلة:

ـ تعرفين ذلك النوع من الدنماركيات اللواتي لا أمل لهن بإيجاد رفيق! إنها منهن.

قلتُ مبتسمة رغماً عني:

ـ أولئك اللواتي يقدمن الإقامة مقابل الزواج بهن. . !

عادت تضحك بحبور:

ـ ليس تماماً. . لكن، شيء من هذا القبيل.

ووجدتُ نفسي أبتسم. ثم سألتها وأنا أبلل فمي بالشاي المثلج:

ـ ما أدراكِ بأنه لا يلتقط غيركما؟

ولا أظن أن زينة كانت لتغفل ما في سؤالي من إهانة.

ردت مبتسمة:

ـ هيلدا معه منذ بداية قدومه إلى الدنمارك. فلو كان ما تسألين عنه صحيحاً لتركها منذ زمن ليتعرف إلى أخريات.

ـ ترى كيف تعرف عليها؟

www.aljsad.net

تساءلت كأنني أكلم نفسي.

ـ هيلدا؟ كانت مدرّسته في مَدرسة اللغة.

ـ Shut up!!

ردّت بلكنة دنماركية:

ـ «كوغان».

من السخرية أننا حتى في قسمنا كنا نطلق الكلمات بالدنماركية.. «كوغان» هذه تعني ببساطة «قرآن». وعلى ما أظن فإننا لم نكن ننتبه لكوننا بلوية صغيرة في ألسننا سنكون في مأمنٍ لغوي، تخرج معه الكلمات صحيحة ومنمقة كما ينبغي لها أن تكون.

مثل لغاتنا المموّهة.. تداخلت في صدري المشاعر يومها. وشعرتُ برغبة قوية في الخطايا التي بدت محببةً إليّ على الرغم من خوفي الشديد منها. واستنتجتُ أني لا أجيد الوقوع في الخطأ.. ولربما لهذا تسير حياتي على هذه الشاكلة الرتيبة. كان ينبغي لي أن أخطئ، مثل هؤلاء الذين يزاملونني أو أولئك الذين أسمع عنهم.. أوليس من حق عمري الصغير عليّ أن يجرّب الأخطاء ويعاركها؟!.

أي شياطين هذه التي تناست وجودي! ولماذا تراها لا تقوم بعملها كما يجب؟!

وحدي أبدو سليمة النيات، وتغالي ذرّات جسدي في التشبّث بطهرها.

www.aljsad.net

لكني أتساءل هنا، إن كانت سلامتي وطهري سيبقيان على حالهما لو أن خطيئةً ما سقطت بين يدي على حين غرّة. . !

زينة التي كانت تفتخر أمامي بكل الخطايا التي أضفت على حياتها طعم المغامرة والاقتناص، تقف الآن معلنة مذاق حياتها الجديد.

هذه المرة بكل بساطة تقتنص زينة لنفسها المغامرةَ من بين يدي، على غفلة مهينة مني.

من لي بخطيئةٍ كبيرةٍ بما يكفي لتنتفض حياتي على إثرها؟! من لي بوسوسة الشياطين الهازئة، وعذابات الضمير المرة. . من لي بما يملأ جوفي الخاوي. . من لي بالشر، والحسد، والحقد أعتمدها أساليب أواجه بها الناس كي يحسبوا حسابي، فيما أنا يستقر غروري على نيات تحميني من الفراغ والضياع. من لي بكل ذلك. . !

نظرتُ إلى زينة بنظرة جديدة، فراعني أن يقع اختيار أخي على مثلها. إنها ليست جميلة ذاك الجمال الأنثوي الرقيق. جسدها ضعيف رغم كميات الطعام التي تلتهمها. . فشحنة أفكارها لا تدع أي سعرات تستقر في جسدها إلا لتحترق. لكنها مغرية ولا شك، فمعالم الأنوثة لديها مكتملة ولربما كانت زائدة قليلاً قياساً على جسدها النحيل. ثم إن وقاحتها فيها الكثير من الإغراء. . يُعجب بها صنف معيّن من الشبان، ويميزونها سريعاً.

لا أجدها ترقى لأن تبلغ أخي.

www.aljsad.net

لكني تخيلتهما معاً، فبديا مناسبين أحدهما للآخر. . ! لِم يا رب؟ لِم يتطابقان هكذا؟!

حين اكتشفتُ ذلك شبّ غيظي. وحقدتُ على أخي كثيراً، فأقسمتُ في سرّي ألاّ أبكي عليه أبداً إذا ما حدث ومات قبلي.

لماذا يختلف هذا الأخ إلى هذا الحد؟

لماذا يغير مقاييسي؟

يقتلع تربية أمي لي مني بقسوة.

يجتث الأفكار التي زرعها في رأسي مجتمع جاليتنا. . ذلك المجتمع الصغير المغلق على نفسه يفتّت عماد أفكاره، ينسفها، يفجر تكتلات قيمي فيّ فتتناثر وتضطرب دون أن تتلاشى. وأنا لا أكلف نفسي عناء لملمتها. . فقط أستسلم لعبثية تخبطها في جوفي.

وجدتني أتساءل وأنا في طريقي إلى الطابق العلوي لأنتظر دوري في الدخول، إن كنتُ أحب عماد، أو إن كنتُ أحببته من قبل.

وبسرعة استنتجتُ أني لا أعرف. فلقد نزَلتْ أخوّته عليّ مثل صاعقة، لم يكن في وسعي تلافيها. . فقط تركتني أجترّ ما سبّبته لي من ألم المفاجأة. . حقاً، لقد كان عماد الأخ المفاجأة، ذلك الذي حمل عفريت بلدنا المرعب معه في حقيبة سفره ليطلقه في وجهنا.

وهو الأخ «الآخر» . . ذلك المختلف، الذي شذّب عقله

www.aljsad.net

بحجر صوانٍ سومريٍ قديم، حتى شبّت النار فيه.. ثم إنه الأخ العسير، ذلك العنيد الذي جمع عناد كل العراقيين ليحبسه في صدره، دون أن يصرف منه شيئاً.. فقط يدّخره، ويعيش على فوائده.

كيف تسنت له الفرص الكثيرة لكي يشبهني ولم يفعل؟!

يا رب، ابعث لي بعلامة..! هل أنا بقادرة على إلقاء نفسي في أتون خطايا قد باتت تحرجني وهي تأبى إسقاطي؟ كيف لي أن أقابل وجهك يا رب، وأنا مجرّدة من خطايا كبيرة أكون قد استغفرتك منها مسبقاً!!

ما إن دخلتُ غرفة الامتحان حتى حلّت في خاطري نيّة مجنونة.. أن أُسقط نفسي فيه.. ولا أعرف ما الذي كنتُ سأطاله عبر ذلك؟ لعلي قد ظننتها خطيئة، لأن الفكرة بدت لي مناسبة تماماً.

أدخلني مدرّسي إلى غرفة التحضير بعد أن أجلسني إلى طاولة عليها أقلام رصاص وأوراق بيضاء، وترك بين يدي سؤال الامتحان ثم أطبق الباب وراءه وذهب تاركاً إياي لنفسي ولبثت وحدي في غرفة التحضير والهدوء يصفر بحدة في أذني حتى أنني خفت. في وضح النهار خفت.

قرأتُ السؤال وكنتُ قد تحضّرتُ لمثله جيداً.. ومرة أخرى راودتني نفسي أن أسقطها. لكنني عندما ناداني مدرسي للدخول

www.aljsad.net

إلى غرفة الامتحان من جديد بعد انتهاء وقت التحضير، كنتُ لم أستقر على قرار بعد.

جلستُ أمام مدرّسي والمدرّس المختبر وأنا أرتجف في داخلي.. دائماً زوابعي في داخلي.

في جوفي عالم ثان مثل عالمنا.. له هيجان عواصفه ورقة ربيعه، وسيلان أمطاره، وسكون أشعته، وحتى صخب ضحكه ومرارة بكائه في داخلي فقط فلا يظهر من ذلك شيء على وجهي. تعابيري بليدة غالباً تنمّ عن هدوء سخيف ولا مبالاة مستفزة.

جلستُ أمام الرجلين وأنا في حالة عدم استعداد لما سيأتي.. طرح عليّ مدرّسي السؤال، فلم أنظر إليه ونقلتُ بصري إلى المدرّس المختبر، فهذا الغريب سيحدد شكلاً من مصيري بعد دقائق قليلة، واضعاً كفه تحت ذقنه يصبّ نظره على أوراقٍ أمامه من تحت نظارته.. دنماركي الملامح بشدة، هادئاً مطمئناً بشدة. كرهته لأجل كل ذلك، ورددت في قلبي وأنا أمعن النظر فيه: «سأرسب.. نكاية في شاربك الأصفر».

سيكون الأمر سهلاً. ما أسهل أن تسقط في أي شيء، وما أسهل أن تأتي بأعذار مناسبة لذلك. سأخرج من باب غرفة الامتحانات ثائرة أُرغي وأُزبد، ثم أتهم المدرسَين ولا سيما الغريب منهما بالعنصرية. سأتهمهما بأنهما لم يطيقا منظري وأنا ألفّ رأسي بهذه القطعة من القماش فأسقطاني.

وسيرثي الناس لي ويتعاطفون جميعاً معي. هذا مؤكد.. إذ سرعان ما سيعتبرونني ضحية للعنصرية الأوروبية المقيتة.

www.aljsad.net

عاد المعلم يطرح سؤاله عليّ.. فسكتُ قليلاً كأنني أستجمع قواي، ثم أجبت إجابة لم أتوقعها في خضم ما يعصف في داخلي.. إجابة وافية استحققتُ عليها درجة لم أكن لأحلم بها. حاولتُ أن أحيد، فلم أقدر.. جاهدتُ نفسي لافتعال إجابة خاطئة، فطبع الصواب شكله على شفتي.. استأثرني في هذه اللحظة بفجاجته المعهودة.

لم أفرح بطبيعة الحال.. بل ثرتُ في داخلي على ما نلتُ من درجة فور خروجي من الغرفة، بينما ابتسامة الأستاذ وهو يخبرني بالنتيجة تحقن الدمع تحت جفنيّ المتعبين.

ثرتُ أكثر وأنا أمشي في ردهات المدرسة متجهة إلى القاعة الرئيسية وصوت كعبي وهو يطرقع يملؤني كأنه يطرقني. اصطدمت بوجهي في انعكاس زجاج باب القاعة.. عديم التعابير وجهي، ملامحي تختلط فوقه، تتجمع ثم تنتشر، تتجمع ثم تعود لتنتشر. كم هي مرهِقة ملامحي، وتضمن الملل لمن يشاء له حظه التعس التمعن فيها.

جلستُ فوق واحدة من الطاولات في القاعة الرئيسية، ودموع غيظ من نفسي تتكاثر في عينيّ وقد بدأتْ سخونة تفح من وجهي.

من خلال الشحوب الذي أصاب النهار فجأة فبدّل شمسه بالغيوم، رأيتُ «رضا» عبر زجاج البوابة الجانبية المطلة على الساحة، حاملاً حقيبته على ظهره، يتطاول بعنقه إلى الأمام

www.aljsad.net

ويسمّر ذراعيه بطريقة ذكرتني بأطفال المدارس في المراحل الابتدائية. . وحين فتح الباب ليدخل انطلق صوتٌ لم أتبيّن في البداية مصدره ثم اكتشفتُ أنه صدر مني.

ناديته. . فأقبل إليّ بخطواته السريعة التي يرتفع بها عن الأرض فيبدو مثل «باليرينا» تمشي على أصابعها بعجرفة. ثم وقف أمامي وابتسامته متجمدة على شفتيه لا تذوب.

بادلته الابتسام وأنا متعجبة من قدرتي على ذلك. لم أكن مسيطرة على ذاتي كلياً، لأنني اندهشتُ بشدة ما إن انتهيتُ من سؤاله عن حاله وعن امتحاناته وأنا أبتسم له ابتسامة عريضة لم أعقلها. . فيما لبث الغبي واقفاً أمامي دون أن يجيب، ونظرة عدم تصديق هائلة تملأ عينيه.

همستُ له بحنق اختنق له صوتي:

ـ تعال.

وخرجتُ به إلى باحة المدرسة. . أنا، أعصابي كلها متحفزة، وهو يتقافز على أصابعه.

سألني إن كنتُ قد تقدمتُ لامتحانٍ اليوم، فأجبتُ بأني فعلت. . وعاد يسألني وشكله المتجمد يقطُر كلامه:

ـ أتودين إخباري بالدرجة التي حصلتِ عليها؟

ثم ابتسم، بعينيه الملونتين وسنيه البارزتين قليلاً، ذكرني بـ«سبونج بوب». . وأنا أكره «سبونج بوب» كره العمى والبكم والصمم.

www.aljsad.net

سكتُّ قليلاً. . ثم أجبته بصوت حاولتُ أن يكون حاداً لكنه انطلق هادئاً:

ـ لا شأن لك.

ضحك ضحكة لا معنى لها وهو يقول:

ـ ألا يمكنك أن تتابعي ادعاء اللطف!

كان دائماً ما يخاطبني بالعربية. . فعدتُ أسكت قليلاً لأهتف به فجأة:

ـ لماذا تتحدث العربية معي. . إنها لا تليق بك.

ضحك باستهتار. . فرددتُ بفظاظة:

ـ شقد سخيف. . !

قال بنبرة معترضة:

ـ بأي لغة أحدثك إذن. . أنت لا تفهمين الفارسية.

ـ الدنماركية تناسبني جداً.

ـ سبق وأن رفضتِها أيضاً.

لزمتُ الصمت وطفقتُ أنظر أمامي.

سكت هو أيضاً وإن لم يرفع عينيه عني، إذ كنت أشعر بآثارهما القذرة على جسدي.

سكتُّ طويلاً وسرحتُ أطول، وأنا معجبة بقدرته على الصمت في حضرتي.

عندما تنبهتُ من شرودي وجدتني وإياه قد خرجنا من

www.aljsad.net

المدرسة وطال بنا المسير حتى ابتعدنا عنها. وحين رفعتُ إليه عينيّ من جديد، كانت ابتسامته لا تزال تغالب صقيعها.

فاجأته بسؤال:

ـ رضا.. لماذا تتبعني دائماً.

بدا كأنه لم يفاجأ.. وأجابني ببرود وهزة من كتفيه:

ـ ربما يثيرني تمنّعك.

قلت بعراقية مائعة، وأنا أنظر في عينيه الزرقاوين فيلسعني صقيعهما:

ـ آني ما أتمنّع.

ثم أكملتُ بالدنماركية:

ـ أظن بأني أكرهك.

واعتقدته سيثأر لكرامته، لكنه ضحك ضحكة بلهاء:

ـ هذا لا يمنع.

عدتُ للصمتِ مرة أخرى وقد أخرسني بلا أباليته.. فكرتُ للحظاتٍ في ما يمكنه أن يحدث لو أنني رضيت لنفسي الانصياع لرضا.. وقادني التفكير بسرعة إلى أخي وصرتُ أقارنُ بين الاثنين، دون أن يكون هناك سبب وجيه لذلك.

لم أتعمد حقاً الاقتراب منه لكني اقتربت كثيراً، دون إرادتي ثم أغلقت عينيّ وكتمت أنفاسي لأمسّ شفتيه بشفتيّ لمسة طفيفة، أظنها كانت جبانة.. لكن رضا ـ وقبل أن أعي تماماً ـ التقم بدوره شفتيّ وصار يسكب لعابه القذر في فمي.. فوجئت! شفتاه

www.aljsad.net

الرفيعتان تضخمتا، وخيل إليّ أنه سيبتلع رأسي بأكمله.. لم أقاومه ولم أستسلم.. كنت أفكر.. في خضم كل هذا كنتُ ما أزال أفكر.

هل يعتبر هذا سقوطاً؟ أم أن الأمر يتطلب ما هو أكثر؟

إحساس عارم لا أعرف كنهه صار يضعفني، وغثيان بدأ يتسارع بالصعود في جوفي يشق طريقه لينفجر قيئاً. وعقلي يدور ويدور يبحث عن معنى ما، حتى لم أعد أعرف أيهما الذي سينفجر أولاً جوفي أم عقلي!

أطلقني رضا.. أخيراً فعل.

ودون أن أنظر إليه أو أنبس بكلمة، أسرعتُ مبتعدة عنه. ولعله ناداني لكني لم أسمع نداءه.. ركض خلفي وأمسك بمعصمي، فصرختُ متشنجة:

ـ اتركني يا حيوان.

تركني بسرعة وهو يرفع يديه علامة مستسلم.

صرختُ:

ـ أقسم أنك لو لمستني مرة أخرى فلن تردعني شرطة العالم كله عن قتلك.

وعدتُ أهرول مبتعدة عنه.

لمسافةٍ طويلة رحتُ أهرول.

وتوقفتُ أخيراً حينما وجدتُني عند موقف الباص، وحالة من

www.aljsad.net

الضعف شديدة بدأتْ تنتابني. اتجهت لأجلس فشعرتُ بعضلاتِ بطني تتقلص بشدة، وأسرعتُ نحو شجرة كبيرة كانت على مقربة من الموقف وقفتُ خلفها وتقيأت. اعتصرني القيء بشدة ثم انفجر، وكرر ذلك عدة مرات حتى تعبتُ.. أحسست بإعياءٍ هائل وأنا أتقيأ اللا شيء، بعد أن فرغ جوفي تماماً.. فقط أتقلص، أُعتَصَر ووجهي يسخن ويحمرّ وأنا أفكر، ترى متى سينتهي هذا العذاب؟ لا بد له أن ينتهي فلكل شيء نهاية حتى وإن كانت فيه نهايتي. لكنه توقف فجأة!

لم تقوَ قدماي على حملي فجلستُ على الأرض أتنفس بصوتٍ مسموع، وأنا أشعر بحرجٍ من الناس الذين ربما وقفوا يراقبونني. التفتُ أبحثُّ عنهم فرأيتُ رجلاً دنماركياً يقف مسمِّراً بصره نحو الشارع ليثبت أنه غير مهتم بما يحدث لي.. تلك لا أبالية الدنماركيين المنتقاة، حمدتُها في سري.

أخرجت منديلاً أمسح به فمي وطعم القيء في حلقي يقرفني حتى لكأنه يدعوني إليه مجدداً. كان أسفل رأسي قد بدأ يقرع بنبضات شديدة مؤلمة ومتوالية.. ليست آلام صداع بل آلام مختلفة انتابتني من شدة ما اعتُصرت وانتفخ وجهي. حاولت أن أستريح قليلاً لأخرج هاتفي النقال وأتصل بأمي وفعلتُ. أخبرتها بما حدث معي مغفلة بالطبع السبب الرئيسي.. ارتاعتْ قائلة إنها ستتصل بسيارة أجرة وترسلها لي حالاً ثم أضافتْ سائلة كأنها لا تنسى شيئاً، حتى وإن كنتُ ملقاة في الشارع غارقة في قيئي:

ـ ما الدرجة التي حصلتِ عليها في الامتحان؟

www.aljsad.net

وكان لابد أن أطمئنها.

بعد عشر دقائق كنت أجلس في سيارة الأجرة أبكي بصمتٍ من التعب الذي أصابني، ومن حالتي المزرية والقيء هذا الذي يملأ فمي. لم أبتلع لعابي قط منذ ابتعدتُ عن رضا.. كنت أتركه يتجمع في فمي لأبصقه في منديل، احتفظت به في يدي.. لن أبتلع ريقاً اختلط بريقه هذا مؤكد.

حاول السائق التركي اللطيف أن يطمئنني وهو يقول بلغته الدنماركية التي تخطئ أكثر مما تصيب ولكنته التركية التي تعشش فيها، أن لا داعي للبكاء فما هي إلاّ وعكة بسيطة. لم أكن أرى وجهه وأنا جالسة في الخلف، فطفقتُ أراقب جانباً من وجهه وجزءًا من شاربه الأسود الكثيف، وبين لحظة وأخرى أبصق في منديلي.

www.aljsad.net

(١٣)

أفقت من النوم بصعوبة بالغة، وصداع قوي يدوي في رأسي.. الغرفة مسدلة الستائر ومظلمة.. ورأسي خاوٍ، لكني أشعر من شدة ثقله أن أحلاماً مسائية ما زالت تعشش فيه، لم أنته منها كلها بعد.

اعتدلتُ جالساً في الفراش ونظرت إلى الساعة، فوجدتها قد تعدت الحادية عشرة بدقائق. قمت من فراشي متضايقاً، وأزحت الستائر واتجهت إلى الحمام.

ـ صباح الخير.

التفتُّ إليها:

ـ صباح النور.. لِمَ تركتني نائماً حتى الآن؟

ـ لك أن تستريح في صباح عطلة.

هي تعرف أنني أتضايق من الاستيقاظ متأخراً.. لكنني آثرت ألا أجادلها، فسكت.

www.aljsad.net

ـ بدوتَ متعباً حين عدت البارحة.

كأنها شكتني بدبوس!!

حدثٌ ثقيلٌ وقع البارحة.. وقفت لدقيقة مطأطئ الرأس أمامها، أحاول أن أستجمع كل ما حدث.

ـ ما بك؟

ـ متى عدتُ بالأمس؟

ـ قرابة الثانية والنصف.

استدارت وهي تقول:

ـ تأخرتَ كثيراً.

تركتني واتجهت نحو المطبخ.

أخذتُ دشاً بارداً، علّه يعيد بعض صحوي. وأنهيتُ حمّامي وقد صفا ذهني قليلاً وإن لم يبارحني الصداع. درت في الغرفة مقاوماً إغراء أن ألقي بجسدي على الفراش وأعاود النوم. وراعني أن أملّ من يومي حتى قبل أن يبدأ.

ـ رافد.

صاحت شذى.. فتذكرتها.

أسرعتُ إليها لأجدها تضع صحوناً على الطاولة.. التففت بجسدي حولها من الخلف، ولامستُ عنقها بشفتيّ، فانتشرت قشعريرة لطيفة على جلدها.. وابتسمتُ.. عدت ألمس عنقها، فتأودَتْ قائلة بغير دلال:

www.aljsad.net

ـ يكفي.

اتخذتُ مجلسي إلى الطاولة، واختفت هي.

وما إن انتهيت من صبّ الشاي لنفسي، حتى فوجئتُ بها تدفع أمامي مباشرة رزمة من أوراق الفصول كأنها تدفع لي طبقاً جديداً.

ـ ما هذا؟

سألتني بصوت هادئ.

تسمّر بصري على الأوراق لوهلة رفعته بعدها إليها، معيداً سؤالها:

ـ ما هذا؟

جلستْ أمامي على حافة الكرسي وقالت بهدوء:

ـ إطَّلعتُ على هذه الأوراق منذ حين. وانتظرت أن تبلغني بشأنها.. لكنك لم تفعل.

لبثتُ صامتاً فيما حاولتُ أن أُكسب نظرتي شيئاً من القوة وأنا أعقدُ ما بين حاجبيّ كأني أنوي إخافتها. إلا أنها لم تخف.. هذه المرأة التي تعرفني إلى درجة تقلقني أحياناً.

فكرت بالإجابة، دون أن أفهم لِم راح ذهني يمدني بكذبة تلو أخرى.. إذ لم تكن الحقيقة ذاتها تشينني في شيء.

أجبتها ببطء:

ـ لا بدّ أنكِ قد حزرت ماهيتها.

www.aljsad.net

ـ إنها رواية. . أسال عن السبب الذي دعاك لترجمتها فحسب؟

أردت أن أقوم بفعل ما، فقمت من مكاني:

ـ يبدو أن اطلاعك على أوراقي كان دقيقاً بالفعل.

تجاهلت ما أرمي إليه:

ـ لماذا لم تخبرني؟

بحركة من كتفي أعربتُ عن حيرتي. . فسألتْ:

ـ لا تريدني أن أعرف؟!

أجبت مستشعراً صدقي، وأنا أمد يدي إلى قدح الشاي:

ـ أبداً. . فقط لم أشعر أن الأمر مهم لدرجة إخبارك.

عقدت ذراعيها على صدرها وسألتْ في صبر:

ـ هِواية جديدة؟!

ـ ربما.

قالت في حيرة:

ـ لم أتوقع أن تميل إلى أمر كهذا قط.

رشفتُ من القدح، ثم قلت بملل:

ـ ها قد فعلت.

ـ من الكاتب؟

ارتجفت في داخلي، لأتماسك بسرعة وأجيب بهدوء:

ـ لا تعرفينه. . هو الذي طلب مني ترجمتها في الواقع.

www.aljsad.net

ـ ولِم اختارك أنت؟

ـ اسأليه.

قالت وقد صار صوتها رقيقاً.. هكذا يصبح حين تنفعل:

ـ غريب أنه لم يختر من يجيد الدنماركية بطلاقة.

أجبتُ وأنا لا أنظر إليها:

ـ هذا لأنه ينشد من يجيد العربية بطلاقة.

ثم رفعت بصري إليها لتقابلني بعينيها الحائرتين. فقلتُ كمن لا يهتم:

ـ إنني أعتمد على القواميس كثيراً.

جحظت عيناها من شدة التركيز عليّ، وقد صمتت لبرهة لتقول أخيراً:

ـ يمكنك أن تعتمد عليّ أيضاً.

ابتسمتُ لها:

ـ بالطبع.

ردت على ابتسامتي بابتسامة صغيرة وإن كانت ما تزال تبدو حائرة. ثم هزت كتفيها مستسلمة واختفت من أمامي.. فحمدت الله في سرّي أنها لم تستفسر عن الكاتب أكثر. وإن كنت أعرف أن الأمر بالنسبة إليها لا ينتهي بهذه البساطة.

كان من عادتي أن أكتب في غرفة صغيرة، لا تقترب شذى منها كثيراً بطلبٍ مني، وأنا الذي أقوم بترتيبها بنفسي. وقد حذرتها من العبث بأوراقي كي لا تختلط ببعضها ببعض.

www.aljsad.net

وحين بدأت بترجمة الرواية، لم أهتم بالتأكيد على شذى عدم الاقتراب من أوراقي مجدداً. إذ لم يحدث من قبل أن اكتشفت أي عبث بها.

كنتُ تعودت أن أطبع أولاً ملفّ «الوورد» الذي يحتوي على فصل من الرواية، ومن ثم أفرش الأوراق على المكتب في شيء من الفوضى.. أقرأ الفصل قراءة أولية ثم أعيد القراءة آخذاً بضع ملاحظات أو باحثاً عن كلمات في القاموس. بعد هذه العملية أشرع في الترجمة الفعلية.. ثم أترك كل شيء على ما هو عليه ولا أتعمد ترتيب أو حتى إخفاء ما أكتب.

لم يدر بخلدي مطلقاً أني سأوضع في موقف كهذا.

وقع بصري على الأوراق التي تركتها على الطاولة. فقرأت: «هذه أنا، هدى محمد الـ..... هل يهم كثيراً معرفة لقبي؟».

وخزتني الكلمات.. تذكرت شيئاً، وقبل أن أتعرف إليه فرّ مني. ثم عدت أتذكره ليقفز من ذاكرتي بسرعة مباغتة.

هذه أنا .. هدى محمد الـ...

هذه أنا .. هدى محمد.

هذه أنا.. هدى.

هذه أنا.. هذه أنا.

كأنني سمعت هذه الكلمات تواً.

البارحة فقط..!

أكان ما حدث حلماً طويلاً قضيت ليلتي أصارعه؟ أم حقيقة داهمتني بسرعة مفاجئة فلم أحسن بعد القدرة على تحمّلها.

www.aljsad.net

ذاكرتي اليوم تختزن ملامح هدى بشكل مختلف، فتظهر أكثر استقامة ووضوحاً. ويبدو أن أحلامي قد باتت تأتي على موجة ديجيتال!

هدى لها الآن تفاصيل بائنة.. إيماءات، ولفتات، ونظرة رقيقة، وصوت مموج.

هذا كله لأنني ببساطة قد التقيتها البارحة. وإن كنت بعد لم أصدق أنني فعلت.

ولأنه يوم عطلتي، قررت أن أخرج بسرعة قبل أن تخترع زوجتي سبباً للخروج معي. فاندفعت خارج البيت دون أن أقرر إلى أين.

شغّلتُ سيارتي فصدح المسجّل:

يا زلف يتغاوى ويّا الليل بأطراف القصيب

هاك روحي ال ما غفت والطيف ما مره حبيبه

هاك جرحي ال ما تعطب وانت عطابه ولهيبه

هاك عمري الذاق حنظل وانت برحي

يا حريمة الشوق مر بوحشة تايه

يا حريمة.. يا حريمة

ووجدتني أردد مع الأغنية!

يا حريمة.. يا حريمة

لا ولك.. لا.. لا على بختك

www.aljsad.net

ماني سالوفة صرت بين الطوايف

دندنت مع الأغنية بنشوة عجيبة.

لا أذكر متى كانت آخر مرة حاولت أن أغني فيها. والغريب أنني بقيت أغني على الرغم من عدم مقدرتي على مجاراة اللحن، والفرق الشاسع بين انسيابيته وتماوج صوتي ونشازه.. وطفقت أغني حتى انتهت الأغنية، فأعدتها وعدت أغني.. وحين انتهت هذه المرة أغلقت المسجل.. خفت أن أعيدها من جديد فأدمنها وأبقى أعيدها وأعيدها حد أن لا تعود تعني لي شيئاً.. خفت أن أفقدها، فأمّنتُ عليها في المسجل، وصرت أدور بسيارتي في الطرقات وصمت بارد يلفني.

www.aljsad.net

(١٤)

عطلتي الصيفية قضيتها في واحدة من الدول الأوروبية وحدي مع أمي وأبي الرتيبين.

تمنيت عليهما ألا نسافر، فزاد إصرار أمي على سفرنا.

ـ لماذا ترفضين السفر؟

سألتْ بنبرة مشككة، متوقعة خطباً ما في رفضي لكن لم يكن ثمة خطب ما.

ليس من سبب سوى أن صيف تلك السنة كان يغري بالبقاء. ثم إن زينة ستسافر مع أسرتها لأسبوعين فقط إلى اليونان، وهو ما يعني أننا سنتمكن من قضاء أوقات لا بأس بها معاً حين تعود، بعيداً عن خناق الدراسة.

بيد أني سافرت بالطبع. . قضيت العطلة كلها خارج الدنمارك.

في أثناء سفري كنت على اتصال مع زينة عبر الهاتف. وفي النصف الثاني من عطلتي وجدتني أرد على رسائل هاتفية من

www.aljsad.net

رضا، الذي بقي في الدنمارك من أجل عمله الصيفي كبائع في واحد من محلات الألبسة الرجالية في «سيتي تو».

فجأة تحوّل رضا إلى كائن قابل للتواصل، تميّز لكونه ما يزال هناك. ولم يعد بالنسبة إليّ أكثر من صلة ربط بيني وبين المدينة أثناء سفري. . حبل سرّي امتد من كوبنهاغن إليّ كان هو شريجته. وأنا تفاجئني كوبنهاغن كلما ابتعدتُ عنها بقدرتها البارعة على أن تحفظني في غيبتي.

حين عدت كنت ما أزال على نفوري المعتاد من رضا. لكن جَدَّ أني صرت في بعض الأحيان أقبَل على نفسي صحبته والحديث معه. . مثل استغراق في سادية يغذيها مجرد حضوره.

أصبحتُ أجلس وإياه بين حين وآخر، في الساحة الخلفية للمدرسة، نستمع إلى الأغاني عبر «السي دي بلير» فأضع سماعة في أذني وأخرى في أذنه فنضطر إلى الجلوس متقاربين جداً.

جلوسنا على هذا النحو كان يمكنه أن يُتناقل بسهولة بين الجالية لنصبح من بعدها، أنا ورضا، شغلها الشاغل. لكني لم أهتم.

لم أكن حينها أعتقد بأن شخصاً سخيفاً وتافهاً مثل رضا يمكنه أن يُحسب عليّ كرجل يتهمني الناس به. وبالطبع أخطأت التقدير فمجتمعنا لا يفرّق في مثل هذه الأمور. . تكفيه أنوثتي وذكورته ليصنع منا أيقونة قصة من تلك القصص الكثيرة. . الحقيقية منها والمختَلَقة.

www.aljsad.net

رضا، كان تارة يفتعل خفة دم تنتزع الضحك مني فآنس بصحبته.. وتارة لا أطيق مجرد النظر إليه فأمر من جانبه في المدرسة دون أن أتكلف الرد على سلامه.

وتعود هو مني ذلك بسرعة فلم يعترض كثيراً على تقلبات مزاجي نحوه. وأدهشتني قوة تحمله لي وأنا أتفنن في إذلاله.

ولا أفهم.. لا أفهم ما يجبره على ذلك ويصبّره علي!

قبل صحبتي له لم أكن أعلم الكثير عن صراحته الشديدة، إذ تبين أنه لا يكاد يخفي أسراراً، بل إنه في بعض الأحيان كان يبدو لي كمهذار لا يرقب ما يتفوّه به. وأحياناً أخرى كان يخرج كلامه عن سيطرته، فيظهر كذبه واختلاقه غير المنسق للقصص جلياً أمامي.. ولا سيّما وأن لي خبرة لا بأس بها في باع الاختلاق.

إلا أن ما هالني في علاقتي غير المفهومة مع رضا لم يكن رضا ذاته.. الذي هالني بحق هو هذا العالم الغريب والمختلف الذي فتح رضا عينيّ عليه، فسمحت له، عن فضول قاتل، أن يحدثني عنه حتى وإن كان حديثه غالباً ما يتمحور حول هؤلاء الذين ما إن يرد ذكرهم حتى يردد أبي لنفسه:

ـ ناس بلا شرف.. غيرة سز.

كنت أكاد لا أصدق ما أسمع وأصيح برضا:

ـ هل يعقل؟!

تلك الحكايات التي كان يرويها عن هؤلاء المتباهين المجاهرين بمنكراتهم كانت تقلقني فلا أكاد أصدق أن في المدينة

www.aljsad.net

ذاتها التي أسكنها أناساً على هذه الشاكلة، يقال إنهم من بلدي نفسه.

أقول بعناد:

ـ لكن هذه أفعال دنماركيين!!

ويبتسم رضا كأنه يشفق عليّ من سذاجتي:

ـ ما الفرق بين أن يكون المرء دنماركياً أو لا يكون؟!

وكنتُ أرد بثقة:

ـ نحن لا نفعل مثل هذه الأمور.

ـ من الذي علّمك ذلك!

كدتُ أخبره بأن أهله كانوا سبباً مباشراً لتلقيني أفكاراً كهذه، لكني آثرتُ ألا أفعل.

فكرتُ قليلاً، ثم استدركتُ محاججة:

ـ إذا كان كل هؤلاء كما تقول. فهل تكون وحدك صاحب شرف لا يُخدش.

ـ ومن قال أني أدّعي ذلك!!

وذكرت له ما يردده أبي، على سبيل النكاية به، فبرزت أسنانه ليقول بنبرة هيّنة:

ـ يخيّل إليّ أحياناً أن الشرف حالة سماوية تطوف فوق رؤوسنا دون أن تستقر على الأرض.. إمكانية القفز إليها لالتقاطها مستحيلة، وتفوق قدراتنا كبشر.

افتعلتُ نظرة ساخرة فيما أنا أكاد ألتقط كلامه وأصدقه..

www.aljsad.net

ليس لأنه صحيح بل لأنني وددت أن يكون كذلك، فأستريح.

مثل هذه المفاهيم كانت تتقافز في كلامه وتصرفاته بطريقة عفوية كأنها جزء من حركة يده ورمشة عينه.. كجزءٍ من تكوينه، وفخره بها واعتداده بكونها ما يصوغ له حياته كان يحفزني ويغريني للتعرف أكثر إلى هذا العالم القريب البعيد.

حين رن الجرس يومها معلناً انتهاء الاستراحة وبداية الحصة، قفزتُ من مكاني وأنا أصيح به باسمة محاولة استفزازه:

ـ أنت مشوِّهٌ كبير.. وأنا لا أصدّقك.

ـ ستفعلين.

أثناء الحصة اهتز هاتفي النقال معلناً عن رسالة.. مددتُ يدي بالهاتف تحت الطاولة لأقرأ ما وردني خُلسة من مدرّسة اللغة الدنماركية التي كانت حريصة تماماً على تصيّد أخطاء طلابها.

كانت الرسالة من رضا، يطلب مني ألا أذهب إلى البيت بعد انتهاء الدوام.. كتبتُ أرد عليه:

ـ سأنتهي في الثانية.

كتب: أنا ينتهي دوامي في الرابعة.. انتظريني.

كتبتُ: لن أنتظرك.

كتب: لكنّ الحصتين الأخيرتين مهمتان.

كتبتُ: سأذهب.

كتب: طيب، سأتركهما.. راضية؟

كتبتُ: حسناً.

www.aljsad.net

بعد أن انتهى دوامي أخبرتُ زينة بأنني سأبقى مع رضا فقالت باستهانة:

ـ ذلك الشاذّ!

لم أرد.. وبسرعة عجيبة مسحتُ أي تعبير كان لحظتها على وجهي.

هزت زينة كتفيها وقالت:

ـ إذاً، أراكِ في الغد.. هاي هاي.

توجهتُ إلى الساحة الخلفية أنتظره.. بعد دقائق جاء رضا فجلسنا متقابلين على أحجار نصبت كمقاعد منخفضة.

كان يجلس بمستوى نظري.. عيناي السوداوان تغرقان في زرقه عينيه حتى خفتُ منهما.. وكانت عيناه مسلطتين على وجهي، ورغم ذلك شعرت ببرودتهما تتسلل إلى قدميّ.. وقبل أن تتجمد جذوري نجحت بصعوبة في انتزاع عيني من زرقته العارمة وانشغلت بمراقبة أظفاري.

رن هاتفه فرد وهو يتكلم بالعربية. وأنا أنفر منه بشدة حين يفعل.. لهجته العراقية، التي يمزج فيها كلمات شامية تأثراً برفقته للفلسطينين واللبنانيين، ولُكنة جنوبية منسوبة إلى أصحابه من أبناء الجنوب، وأخيراً تعمده استخدام الليونة التي تتصف بها اللُكنة البغدادية، كل هذا كان ينتهي بلهجته إلى ما هو أشبه بلهجة جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.. لا أدعي بأن لُكنتي أفضل،

www.aljsad.net

لكنني على الأقل أعرف كم أن لُكنتي العراقية مموّهة بما يكفي لكي لا أتعمد الحديث بلهجات ولكنات الآخرين.

صرخ في الهاتف:

ـ أنتظرك.

وما إن ضغط الزر الأحمر حتى قال:

ـ هذا صديقي وسام.

همهمتُ غير مبالية.. فقال:

ـ مثله يمكن أن يجعلك تصدقينني.

وفهمت ما يرمي إليه:

ـ لماذا يهمّك تصديقي لك من عدمه.

ـ لأنك ساذجة، تناقشين في ما لا تفهمينه.

قلت محتجة:

ـ لستُ ساذجة.

ـ أنتِ بريئة بما يكفي لتكوني ساذجة.

قلتُ بسخط:

ـ ولماذا ترافقني إذا كنتُ كذلك.

ـ لأن براءتكِ هي أحب ما فيكِ.

فاجأني بجملته.. نظرتُ في عينيه ثم صرفت نظري عنهما قائلة:

ـ لستُ كما تظن.

www.aljsad.net

ولبثنا صامتين.

كانت الساحة قد خلت من الطلاب بعد أن اتجهوا إلى صفوفهم وذهب من انتهى دوامه إلى البيت.

سألته فقط لأثقب السكون:

ـ ما قصة صاحبك الذي سيأتي؟

تنهد ثم قال:

ـ إنه مهرّب.. وأظنه مزوراً.. ولك أن تتخيلي.

أعقب قوله بضحكة مدوّية رنّت في أذني رنيناً أزعجني، واهتزت كتفاه لا كما تهتز أكتاف الناس صعوداً ونزولاً، بل اهتزتا إلى الأمام ثم إلى الخلف بتتابع سريع.

قلتُ بملل:

ـ ماذا يهرّب؟

ـ بشراً.. أموالاً.. ولا أستبعد أن يهرّب مخدرات أيضاً.

قال هذا وسكت، ناظراً في عينيّ مباشرة كأنه يعرف أني سأستزيده.

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

قال ساخراً:

ـ ليضمن مستقبله.

ـ ولماذا لا تشاركه.. فتضمن مستقبلك أنت الآخر؟

ـ كل منا له طريقته.

www.aljsad.net

سألته بعد برهة:

ـ أوَلا يخاف صاحبك من أن يرحَّل؟

ـ إنه يملك ما يمكّنه من أن يعيش ملكاً في أي مكانٍ غير هنا.

سكت برهة ثم استدرك قائلاً:

ـ هؤلاء ليسوا مثلي ومثلك، لم يأتوا إلى هنا ليستقروا ويدرسوا ثم يعملوا.. أو ليمكث الكسول منهم في البيت ليستقبل المعونة الاجتماعية آخر الشهر. هؤلاء لا يرضون بمجرد حياة مضمونة من دون سعة مادية، فيقتنصون كافة الفرص حتى وإن كانت الفرصة متمثلة في أن يبيع أحدهم نفسه ليضاجع مُسنّات دور العجزة لقاء مبالغ مالية.

قلتُ بهدوء:

ـ الحسن والسيئ تجدهما في كل مكان.

نظر رضا إليّ بعتاب ثم قال متجاوزاً جملتي:

ـ أخوكِ مثلاً.

كأنه وخزني:

ـ ما به؟

ـ ألا يعيش مع دنماركية في الوقت الذي يؤجر شقته الخاصة بطريقة غير رسمية!

قلتُ وأنا أرفع أنفي إلى السماء:

ـ أنا لا أعرف عنه ذلك.

www.aljsad.net

ـ أحقاً؟!

ـ إن كان ذلك صحيحاً فما الخطأ.. كلكم تصاحبون وتعاشرون دنماركيات.

قال وهو يضغط على كلماته:

ـ أنا لا أقصد الصحبة.. ما أعنيه هو أن عماد يسكن عند امرأة تدفع إيجار بيتها بنفسها.. في الوقت الذي لا يضطر هو فيه إلا للصرف على نفسه.

أخفيتُ دهشتي وقلتُ مستنكرة:

ـ أنا أخته ولا أعرف عنه هذا الذي تدّعي، فكيف لك أنت أن تعرف؟

ابتسم:

ـ لهذا أقول إنك ساذجة.

ثم أكمل:

ـ أخوكِ بدأ يطبّق في المستشفيات ويلتزم بخفارات ليلية تدرّ عليه أموالاً لا بأس بها، ورغم هذا فهو مصرّ على السكن مع دنماركية تصرف عليه.

قلتُ مكابرة:

ـ من قال ذلك.. لعله يحبها.

التزم الصمت. نظرتُ إليه فوجدته ممتعضاً من مكابرتي الزائفة، هززتُ له كتفي بعناد.

لكنني لم أستسلم تماماً أمام فضولي:

www.aljsad.net

ـ لنفترض أن ما تقوله صحيح، أليس من الغريب إذاً أن يرخص رجال هذا الزمن إلى هذا الحد؟

امتد بجذعه إلى الأمام مقترباً مني وقال:

ـ النساء والرجال يتقاسمون الرذائل والفضائل بالتساوي.

ابتسمت ساخرة.

لم أكن قد حزرتُ من قبل أن الرجال يمكنهم أن يهبطوا إلى هذا المستوى من الرخص. لم يكن هذا في حسبان تربيتي.

الرخص، هذه الصفة الأنثوية، أكاد لا أتقبل مفاجأة أنها يمكنها أن تتربع على جبهة رجل.

أنِ تهبط فتاة حتى الرخص في مجتمع الجالية أمر بسيط، لا يستدعي حدثاً مدمراً كزلزال، ولا أفعالاً تحاكي أفعال عماد وغيره.. ليس أكثر من أن تقف الواحدة منّا تبتسم وهي تحادث شاباً لتستحق اللقب. ولذا فإن رخص رجل ما يترك في عقلي رغماً عني صوراً أنثوية له.. بالضبط مثل مشهد رجل يلبس بنطلوناً مزركشاً لا يناسب رجولته، أو مثل آخر يأتي بإيماءة أنثوية تتطاير لها شرارات تقزز مني.

بعد قرابة العشر دقائق دخلت سيارة راقية الصنع إلى كراج المدرسة المحاذي للساحة الخلفية.. نزل منها شاب يبدو في نهاية العشرينيات من عمره، من الصعب إغفال وسامته وأناقته اللافتة. وقد علقت لزوجة غريبة بملامحه، وفي عينيه نظرة لم أفهم وقتها عن أي شيء تنمّ.

www.aljsad.net

كان وسيماً. لكنه رغم وسامته أوحى إليّ بعاديته، إلى درجة نسيت فيها شكله ما إن نقلت عينيّ عنه. حين قام رضا من مكانه مرحباً به، ردّ بلهجة بغدادية لا وجود للكنة دخيلة عليها. وقد أدهشتني أناقة لفظه.

قدمني رضا إليه وأنا ما أزال جالسة في مكاني لا أتكلف القيام. ثم عاد يقدّمه إليّ فحييته برأسي بملل. ثم دعاه رضا للجلوس معنا فقبل ببساطة.

لكني لم أحتملهما معاً لأكثر من خمس دقائق، فقمتُ معلنة أن لدّي الكثير من المذاكرة وعليّ العودة إلى البيت.. حاول رضا استبقائي، وعرض وسام علينا أن نتغدى معاً ثم يوصلنا هو بسيارته.. وجدتُ. نفسي أقذفه بنظرة خاوية ثم تملّصتُ من رضا بصعوبة وغادرت.

حين استقررتُ على واحد من المقاعد الزرق في الباص، وجدتُ صدري ضيقاً وقد اعتصرته حسرة على أيام كان ضميري وقلبي فيها عفيفين.. شتمت رضا كثيراً في سري لأنه كان سبباً جديداً في بيع براءتي لأيامٍ آتية، مثلما باعها عماد من قبل.

إنني أرتاع من فكرة أن يحاصرني كل ما يفتقر إلى الطهر. هكذا فجأة حلّت النجاسة في عالمي دون أن أعيها. أتراي مغناطيساً يجتذبها؟ بحيث أنني أينما أولّي وجهي أرى وأسمع حكايات ساقطة! أم أنني فقط أتوغل في خرافة الحياة ليس إلا؟!

ثمة أيام من البراءة عشتها بشغف ثمرةً مدلاّة تجاهد التشبّث

www.aljsad.net

بعتقها. . لكأني كنت على علمٍ مسبق بوشوك تدحرجي عن أصالة منبتي.

لماذا لم تطل تلك الأيام، لتزوّدني بمساحة طاهرة أوسع. . فتكبُر هذه فيّ وتتسع حتى تثقبني.

كم هي مغوية بدايات الأعمار. . يا لتلاعب تلك السن بنا.

عشر سنوات طاهرات فقط أبتدئ بها حياتي؟ أوَ عدل هذا الوقت القصير؟! لأبدأ من بعده النضج عن طهارتي كما هو مقدّر وموصوف لي.

براءتي وطهري، هاتان الحالتان اللتان انصهرتا في واحدة، حالت الآن بيني وبينهما أشواط من نهم الحياة. شوقي إليهما لم يعد يراود بصيرتي إلا في ما ندر. وجدلية العودة إليهما تعدمني ذائقتي الحياتية. لم أعد متأكدة حقاً هل مرت هاتان الحالتان عليّ من الأساس. . أم أنني أختلق أعذاراً معممة؟

يا رب. . لِم لم تجعل العمر نصفه طفولة ونصفه كهولة، دون أن يعكر صفو حياتنا الشباب؟! فليلعن هذا الذي يملي عليّ أن أطبع آثار مروري على نزيز نجاسته.

* * *

أستغرب كيف أنها وحدها نجّتني من عُقم الرفقة الذي لازمني طويلاً في السابق.

www.aljsad.net

أنا أرض بور، لا يرعى فيها صديق.. وحدها زينة اختارت أن تمرح فيّ.

وبما أني كنت قد تعودت أن تشتعل علاقتنا ثم تخبو لتعود فتشتعل، كان لا بد لي من محاولةٍ لإيجاد صراطٍ قويمٍ لعلاقتي بها.

ولأنني بنيت حياتي كما في قصص الرسوم المتحركة على الشر والخير، فإني في علاقتي بزينة لم أعد أميّز مَن الشرّيرة فينا ومَن الخيّرة، فأضعت صراطي من أول جولة.

تراها الشر بعينه؟ هي التي تطاولت بعنقها إلى أخي.. أم أنا؟ حيث نصفي غريم والآخر صديق لا أفهم كيف أن جزءًا مني يستميت في إرضائها وكسب ودها.. ربما في أحايين متباعدة لكنها كفيلة بتشتيتي وهز ثقتي بمشاعري.

بين حين وآخر أطرب لسماعها تُطري على ثيابي أو شكلي، رغم أني لست غبية حد الاعتقاد التام بأن مديحها حقيقي كله. صعُبَ عليّ منع نفسي من السعادة لعباراتها المطرية، التي تفضلها إنكليزية أحياناً:

Hello gorgeous..! -

أو تحتضنني من أسفل إبطي فتجبرني أن أستقبل انهيالها عليّ من تحت.. تلقي برأسها على كتفي ثم تنغم بصوت كسول ولغة دنماركية صافية:

- ..Jeg elsker din duft «أحب عطركِ»..

فينتعش عطري.

www.aljsad.net

ولستُ متبلدة المشاعر لتُثريني مجرد كلمات رقيقة من أيٍ كان. . غيرها الكثير من الفتيات يغالين في إيماءاتهن الأنثوية نحوي، كما يحلو لي أنا نفسي العبث أحياناً. . أحضان الفتيات حارة بطبعها يتبادلنها بإغواء كأنهنّ يتدربنَ على مثلها مستقبلاً. . وقُبلهن مثل رغوة الصابون في وقعها، يرشقنها بعضهن على بعض بحرفية وتنوّع مذهل. . ساعة يتركن القبلة تنزلق من طرف شفاههن وأخرى يكوّرن الشفاه ويلصقنها حيث أردنَ أو يقبّلنَ الهواء ويقرِّبن الخدود. . الخ.

تلك عاداتنا نحن الفتيات وتقاليد جنسنا رقيق الطلعة، ولا ضير.

لكني أفرح أحياناً، حين تقبلني زينة قبلة غير التي تحييني بها. . كأن تأتي إليّ وأنا جالسة في القاعة الرئيسية لتنحني عليّ برشاقتها المعهودة وتقذف خدي بقبلة. . فإما أسعد، وإما لا أعير قبلتها اهتماماً. لكني حين كنت أفرح أجد قلبي يخز صدري بقوة، وتكاد تصيبني حالة من النعاس هرباً من واقع أني قد أحببت مديحها وتدليلها فعلاً. . فينعجن قلبي بشفقة من سود أفكاري تجاهها.

ولهذا، كان من الصعب عليّ تحسّب جانبٍ شريرٍ مني يخترقني ليتجه نحوها. . إحساسي وأنا أتقمص الشر يجهدني مثل رياضة متعبة. غير أن الإحساس بالشر يملأني، وكثيراً ما خالطه قليل من الشعور بقوة كنت أفتقر إليها بشدة. . فبات أسهل عليّ أن أركن للإحساسين وهما يكاسر أحدهما الآخر في حدّته.

www.aljsad.net

أتجاهل أحياناً أن شرّها المفترض في نظري غالباً ما عززته تصرّفاتها العجيبة. . وأفضّل الاعتقاد بأنها تفعل ما تفعل عن سابق تخطيط وإصرار.

وبرغم كوني متأكدة من أن عماد لن يستجيب لرغباتها المستقبلية، فمسألة بقائهما معاً كانت بالنسبة إليّ معدومة الاحتمالات الإيجابية. . إلا أنني لا يمكنني كبح إحساسي بشأنها وهي تقتنص أخي.

هذا أخي الذي نادراً ما أثاره وجودي في الدنيا، تلتهمه واحدة مثلي. . مجرد قرينة لي.

هذا أخي، لم يحدث أن كلمته في حياتي بأكثر من جمل ضرورية، تأتي إليه زينة التي لا تزيد عني بشيء لتكون لها علاقة ما به. . بينما أنا نفسي لم يحدث أن أقمت علاقة من أي نوع معه.

فكيف لي إذن تركها تتفوق عليّ في عُقر داري، وتجتث من لحمي ودمي رجلاً لها.

سألتها مرة ونحن جالستان في «البيتزا هَت»:

ـ هل تقتصر لقاءاتكما على الأماكن النائية؟

أعادت ربط طرفي الإيشارب الزاهي حول عنقها بإحكام وأجابت بعراقيتها المبعثرة اللكنة، مع نصف ابتسامة:

ـ كل شي بوقته حلو.

السافلة. . !

www.aljsad.net

لم تعطني حتى فرصة الحد من خيالي، فتركته يعبث بي دون ارتكاز على تفاصيل تهذبه.

***

كنت أجلس في الباص في طريقي إلى البيت بعد يوم مدرسي طويل، أفكر فيهما حين قررتُ ما قررتُ فجأة ونفّذته فوراً.. فقفزت من الباص ووقفت أنتظر آخر في الجانب المعاكس.

هبطت من الأخير بسرعة مهرولة إلى محطة القطار.. والغريب أني لم أكن أفكر في العدول عن فكرتي مطلقاً. كأن أحداً ما يربّت على ظهري، ويدفعني إلى الأمام وأنا يختل توازني فقط دون أن أقع لأنهض وأعود أدراجي.

فقط استمر!

صار القطار يشق طريقه وأنا فيه.. طريق طويل ليس لي قابلية تحمّله.. لكنني فعلت وقفزت منه أخيراً في محطة «أوستربورت».. ثم ركبت باصاً هبطت منه في منطقة «رو باركن».

وصرت أسير بين بنايات منخفضة لمجمّعات سكنية.. كانت زينة قد ذكرت العنوان أمامي في السابق.. وصفته لي على سبيل التحذلق والمباهاة.. ولم أركز كثيراً في البداية ثم فعلت قبل أن تنتهي من تباهيها فتلقفت ما أمكنني أن أتلقفه.

لا أذكر رقم البناية.. لكني أذكر أنه مكوّن من رقمين..

www.aljsad.net

وصممت على العثور عليها حتى وإن استوجب الأمر زيارة البنايات جميعها.

بدأت بالبناية رقم ٩٩.. أسماء كثيرة كانت قد رصت بجانب باب البناية، قرأتها جميعاً بعناية ولم ألتقط اسمها من بينهم. وبعدّ تنازلي، صرت أقف أمام كل بناية أبحث عن اسمها حتى وجدته أخيراً في لائحة الأسماء بعد بحث طويل. هذه هي بالتأكيد.. «هيلدا مورتنسن».

هيلدا..!! ياله من اسم مروّع، يصلح لعجوز ترتكز على عكاز قديم، ولا يناسب امرأة مولودة في ما أظنه بداية السبعينيات أو حتى نهاية الستينيات.

ضغطت على اسمها ليصدر أنيناً تحت إصبعي. ثم فُتح لي الباب دون أن يسأل الذي فتح عن هويّتي، فدلفت إلى الداخل بسهولة لم أتوقعها.

صعدت إلى الطابق الثاني فقابلني اسمها مرة أخرى، متربعاً أسفل الباب بخط رفيع.. هيلدا مورتنسن.. اسم محبط حقاً!

ضغطت الجرس دون تردد.. فَتح لي الباب واقفاً أمامي بشورت أحمر وفانيلة بيضاء.

قال بارتياع:

ـ شكو؟ هل حدث شيء؟

قلت ببساطة وأنا أتعمد الحديث بالدنماركية:

ـ مثل ماذا؟

www.aljsad.net

أصابه خرس وطفق يحدق فيّ. . فقلت ببراءة:

ـ جئت لزيارتك.

ارتاحت قسمات وجهه وتهدلت كتفاه اللتان كانتا منتصبتين بتحفز. ودون أن تفارق الدهشة ملامحه تماماً قال:

ـ ادخلي.

دخلت بحذر، وقد علا صوت حذائي فجأة وهو يرتطم بأرضية الخشب الناعمة.

ـ ما الذي أتى بك؟ كيف عرفت العنوان؟

ابتسمت:

ـ خطر لي أن أزورك. . فجئت.

ثم أكملتُ بحذر:

ـ وأعرف أن هيلدا لا تعود قبل الثامنة.

رفع عينيه إليّ متفاجئاً، ربما لذكري اسمها بهذه البساطة.

تعمدت المفاجأة التالية:

ـ أما العنوان. . فزينة هي من وصفته لي.

جلس على أريكة سوداء واطئة، أمامها طاولة أوطأ بعثر عليها كتبه وأوراقه. . مسح على وجهه المتعب، ثم مر بكفه على شعره الأسود الكثيف ليرده بحركة سريعة إلى الوراء، وخيّل إليّ أنه يودّ أن يمسح من رأسه ما قلتُه تواً.

تردد بصره بين الكتب والأوراق قليلاً ثم قال ببرود بدا مصطنعاً:

www.aljsad.net

ـ زين. . تشربين كولا كالعادة.

قام من مكانه قبل أن يسمع ردي. . واختفى.

جلت ببصري في المكان. . شقة صغيرة، لكنها فرهة. لها شبابيك كبيرة، غير أنه لا شمس تنفذ إليها في هذا الوقت الرمادي من السنة ولو حدث ذلك لكانت أجمل وأوسع.

المساكن طوع سكانها، آثارهم غالباً ما تكون مبصومة على الأثاث والأنوار. أنوار خافتة، إذن بيوت يسكنها دنماركيون. . أنوار ساطعة وأضواء نيون بيضاء وقوية، إذن تلك بيوت مهاجرين من الشرق، وهذه الشقة خلطت قليلاً بين هذا وذاك. . الأنوار كلها صفراء وخافتة، لكنها كثيرة. . أكثر مما يستوجب وضعه في شقة صغيرة مثلها.

الأثاث سكندنافي الذوق بشدة، ربما التُقط أغلبه من «أيكيا» وهو ببساطته المتناهية كأنه لا يعير السكان انتباهاً. لكن يبدو أن عماد كان مصرّاً على إضفاء لمحة بسيطة هنا وهناك. . تمثال لجمل ملتحف بسجادة عربية، موضوع على طاولة صغيرة نائية في أقصى ركن في الصالة. . وصورة لكثبان رملية لم أتوقع أن عماد سيفضل مثلها ليعلقها فوق الجمل مباشرة. ولعله ليس عماداً الذي افتعل كل هذا. . فالشقة شقتها بحسب علمي، وطبيعي أن تحافظ على مزاياها كما تشاء. . وربما تكون هي من حاول إغواء شرقية أخي بصورة فوق جدار وتمثال يمثّل مركوب الشرقيين القديم.

www.aljsad.net

على الحائط علّقت لها صورة هذه هي ولا شك، هيلدا، شتمتُ زينة لما رأيتُ من جمال هذه المرأة. أهذه حقاً المرأة التي ترى زينة بأنها لا تعد غريمة لها! والتي لا أمل لها في إيجاد رجل؟! لو كانت حقاً لا تجد رجلاً يقبلها غير عماد، لظننت أن الرجال قد أصابهم العمى حتماً.

الصورة تُظهر نصفَها العلوي بالكامل مرتدية «توب» بسيطاً دون أكمام قاتماً لم أتبين لونه لأن الصورة بالأسود والأبيض. كانت تبتسم ابتسامة واسعة ومرنة، تكاد ابتسامتها تقفز من الصورة لتتدحرج أمامي. بل بدا أن كل ما فيها مرن وقابل للقفز.. نهداها المكوّران، وخداها الممتلئان، وشفتاها السمينتان، وخصرها النحيل الملتوي بخفة ليبرز النهدين أكثر، كل هذا كان يتقافز في الصورة من شدة ما بدا عليها من حيوية ساحرة.. وبدت في سن أصغر بكثير مما توقعت.. أصغر من أن تكون معلمة لغة دنماركية لأجانب كبار في السن، أظنهم يثيرون الملل والكآبة بامتياز.. أصغر من أن يكون اسمها «هيلدا»!

ثم وجدتُ أن جمالها قد أرضاني.. أراحني وبخّر شيئاً من غيظي، وتركني أشمتُ بزينة وأنا أستمتع باسترجاع كذبتها السخيفة.

عاد عماد بكأسين وعبوة كولا كبيرة.. جلس وأزاح أوراقاً ليفسح مكاناً على الطاولة.

ـ لطيفة الشقة.

www.aljsad.net

لم يرد.

قلت له وهو يناولني كأسي:

ـ موقعها ممتاز.. وإن كانت بعيدة عنا.

فقال أخيراً وهو يرفع كأسه إلى فمه:

ـ هي كذلك.

ـ ترى كم تبعد عن شقتك الأخرى؟

نظر إليّ نظرة أخافتني لوهلة ثم قال براحة:

ـ تلك في «أورستيد».

ـ يااااه.. منطقة جميلة لكن تبدو بعيدة.

ـ ليس كثيراً.

قلت ببساطة وأنا أستغرب شجاعتي:

ـ الآن أفسر ذهاب زينة إلى هناك بين حين وآخر.

قذف كأسه على الطاولة فأصدر صوتاً قوياً:

ـ لا تكذبي.. لم يحدث أن ذهبت زينة إلى هناك من قبل.

قلت ببراءة:

ـ هي أخبرتني بذلك.

ـ إذن تكذب.

ـ لا أظنكما تلتقيان هنا!

رد بنبرة هادئة ولكن حادة:

ـ تواقحتِ كثيراً.. «هواية طالعة عينج»..!!

www.aljsad.net

ـ لستُ صغيرة لأمنع من قول ما أشاء.

احتد أكثر:

ـ بل صغيرة.. «بعدج بقد القندرة».

ـ وكم يا ترى تكبر زينة الحذاء الذي قستني به؟

ردد وهو يبدو غير مصدق لما يسمع:

ـ لا يا أدب سز..!!

تغافلتُ عن شتيمته، ولم أحمد له حلمه وصبره عليّ.. قلت بهدوء وأنا أزدرد ريقي:

ـ بما أنك تسمح لمن تصاحبها أن تماثلني سناً، فلا بد أنك ستسمح لي بما هو مجرد كلام.

قام واقفاً وصاح وعيناه ثائرتان:

ـ حذّرت أمي مراراً من مدارس الدنماركيين التي عاثت فساداً في تربيتكما.

ـ تقصدني ونخيل..!!

ـ تلك سترت في الوقت المناسب.. أما أنت...

صحتُ مستنكرة، لا أصدق أنني أقول ما أقول، لا أصدق أنني أصيح:

ـ لماذا لا نعجبك؟! ما الخطأ الذي اقترفناه.. لو كنا مثل زينة كنا أعجبناك؟!

كأنه لا يسمعني، قال كمن يوجه حديثاً لنفسه:

www.aljsad.net

ـ أهي نقمة من الله عليّ أن تحل مصيبتان فوق رأسي ما إن أطأ هذه الأرض.

هتفتُ مكررة:

ـ ما الذي لا يعجبك فينا؟!

قبض على ذراعي وقال بصوت حاول أن يكون خافتاً:

ـ اسمعي، سأتناسى ما قلته مذ قدِمتِ، فقط لعلمي بأن تربيتكِ الدنماركية اللعينة هي التي جعلتك لا تعرفين كيف تخاطبين أخاك الأكبر. إني أحمد الله كل يوم لأني تُرِكتُ هناك كي لا أغدو مائعاً وتافهاً بلا قيمة مثلكم. ثقي بأن دمي عراقي ساخن بما يكفي لأفصل رأسك عن جسدك إن تجرّأتِ عليّ هكذا مرة أخرى.

رفعتُ رأسي إليه أكثر، صار أنفي شامخاً في السماء وأنا أتحداه بقولي:

ـ دمك العراقي الساخن، هذا الذي يفور، رضي لك أن تسكن مع امرأة تصرف عليك.

فصاح بقوة ارتعدتُ لها، وهو يهزني:

ـ من قال ذلك.

ترددتُ قليلاً، ثم قلتُ كاذبة بنبرة صادقة:

ـ زينة.

انحنى برأسه ليقابل وجهي:

ـ تلك الكلبة سأعلّمها كيف تتحدث عني في غيابي.

www.aljsad.net

ـ لماذا لا تتركها فحسب.

جمع كل غضبه ليقول بصبر وهو يزفر:

ـ ما شأنك في ما أفعل؟!

ـ أنت أخي.

ـ هذا يستوجب بُعدكِ أكثر.

ـ بل كل ما تفعله يؤثر فيّ.. يؤثر فينا جميعاً.

ردد بحيرة وإن لم يزل عنه غضبه:

ـ جننتِ فحسب.

في محاولة أخيرة قلت بتوسل:

ـ إذن اتركها.

صرخ:

ـ مَن ؟!!

ـ زينة.

ـ أنا أتركها وأعود إليها مرتين في الأسبوع.. حسب مزاجي.

ـ اتركها أبداً.

ـ أنا الذي أقرر هذا.

ـ إذن لِم هي؟

ـ قلت لا شأن لك. أكبرك بعشر سنوات. وسأفعل ما يحلو لي دون استشارتك بالتأكيد.

www.aljsad.net

سكتَ قليلاً ليقاطعني وأنا أحاول الرد:

ـ ثم إنني رجل.

خرجت من عنده وغيظي يلهب عينيّ دموعاً لا تنزف.. سمعته يصيح بي بشبه ملل وأنا أهبط الدرجات:

ـ عودي لأوصلكِ.

لكني لم ألتفت إليه.

***

بداية شهر ديسمبر (كانون الأول)، مع برودة قاسية للشتاء تتجاوز اللحم كي تبدأ بنخر العظم، وفي الوقت الذي صارت فيه كوبنهاغن تتأهب لأعياد الميلاد، حلّ بزينة ما كنت أنتظر.. هاتفتني في السادسة والنصف صباح يوم الإثنين، وكنت ما أزال أتسكع بين الفراش وخزانة الثياب. سألتني إن كنت سأحضر الحصة الأولى، فأجبتها بأنني فاعلة. وعادت تسألني وصوتها يصل متعباً:

ـ ألا يمكنك تركها.. أود التحدث إليك.

ـ خير.. هل من شيء؟

ـ أرجوك افعلي.

انصعت لمطلبها متعللة بعدم أهمية الحصة. واتفقنا أن نلتقي في المدرسة في الثامنة والنصف، لنضمن أن يكون بقية الطلاب قد بركوا فوق مقاعدهم.

دلفتُ عبر البوابة الجانبية فوجدتها قد وصلت قبلي، هي

www.aljsad.net

التي تعودت التأخر عن كل مواعيدها بدت مجهدة جداً وإن لم تنسَ أناقتها حتى وهي في أشد الظروف انشغالاً. كانت ترتدي معطفها الزيتوني المخصر مع جينز أسود ماركة «ميس سيكستي» وحذاء برقبة طويلة، وحقيبة «لوي فويتون» حشرت فيها دفتراً كبيراً وكتباً قليلة.. ولم تنسَ بالطبع أن تلفّ رأسها بإيشارب.

ذهبنا فوراً إلى الكانتين وابتعنا كوبين من الشكولاته الساخنة، بعدها اتجهت زينة لتجلس إلى إحدى الطاولات، فطلبت منها أن ننتقل إلى ركننا المفضل في القاعة الرئيسية حالما وقعت عيناي على المفرش ذي المربعات الحمراء. فلم تمانع.

اتخذت مجلسها وهي تغالي في إعيائها.. وجلست أمامها واضعة كوب الشكولاته على الطاولة الخفيضة التي تفصل بيننا. حاولت أن أبدو لا مبالية.. ولزمت زينة الصمت فراهنت بيني وبين نفسي على ألا أبتدرها بكلام.. إذا كانت قد استدعتني فلتبدأ هي.. لكنها ظلت ترشف من كوبها بملل. ثم أخرجت من حقيبتها مرآتها لتصلح من وضع ملمع الشفاه على شفتيها الممتلئتين.. وتمسّكت أنا بادعائي اللامبالاة.. عندما نطَقَت أخيراً شعرت بنشوة غامرة لربحي التحدي غير المعلن هذا، وهنّأت نفسي على صبري.

ـ لا فكرة لديك عما حدث؟

سألتْ بهدوء وهي تهز رأسها مستفسرة. فأجبتها بالنفي وأنا أقلب في رأسي ما يمكن أن يحدث.

قالت:

www.aljsad.net

ـ لقد انفصلنا. . أنا وعماد.

ولا أذكر الآن كيف كانت ردة فعلي بالضبط على هذا الكلام في حينها. لكنني أتذكر ادعائي المفاجأة والأسف بشيء من المبالغة ربما.

استمرت في حديثها تخبرني بالأسباب، ثم تطرّقت إلى الكثير من التفاصيل. وعندما وصلت بذكرياتها إلى بعض تلك التفاصيل بكت. . فشعرتُ بشيء من الاشمئزاز حيال منظر كهذا. . غير أن الدور الذي قبلته على نفسي تَطَلَّب مني أن أنهض من مكاني وأجلس بجانبها ثم أضرب على كتفها كأني أواسيها. . احتضنتها فعانقتني بقوة كأنها تشم فيّ رائحة أخي الذي تركها لأسباب واهية. . بعد أن أفلتت من حضني قالت وهي تمسح دموعها:

ـ من السخرية أن تكوني صديقتي وأخته في الوقت ذاته.

لم أجبها. . طفقت أرنو إليها وأنا أحاول أن أُكسِب نظرتي شيئاً من التعاطف. ثم لم أعد أفهم مشاعري حقاً.

فكرت في أخي، ولم أملك إلا أن أبتسم لعبارات زينة التي تصف فيها علاقتهما في شهر رمضان. . حين كان يطلب منها ألا يتحدثا عبر الهاتف وألا يتراسلا طوال الشهر، كي لا يبطل صيامهما. ابتسمت ساخرة لمعرفتي التامة بأن أخي لا يصوم رمضان أصلاً. . بل إنه لا يعترف بأي قيود قد تُفرض على علاقاته النسائية.

لم يكن من الصعب عليّ استنتاج أن عماد هو من أراد هذا

www.aljsad.net

الانفصال. ربما لم يلح لحدوثه، لكنه فضّله في الوقت الذي قُدّر لزينة أن تأتي بفعل اتخذه ذريعة لذلك الانفصال الحتمي في نظره.

تذكرت فجأة قوله إنه يتركها ويعود إليها متى يشاء.. فخففت من احتمال العودة هذا:

ـ تظنين ألا طريق للعودة؟

قالت وقد رق صوتها:

ـ يبدو كذلك.

لكنني لم أشعر بارتياح تام.

سألتها وأنا أرافقها إلى الحمّام لتغسل وجهها وتصلح ماكياجها:

ـ أنت في حالة جيدة لحضور الحصص؟!

هزت رأسها بالنفي وهي تبدأ بفك حجابها في الحمام.. افتعلتُ اللطف، ربما لأنني كنت قد نلت بغيتي:

ـ سأبقى معك.

فكرتُ قليلاً ثم أردفت:

ـ ما رأيك في أن نذهب إلى «ستروغيت»؟!

خلعت معطفها ووقفت عند المغسلة تهم بغسل وجهها:

ـ المحلات لم تفتح بعد.

ـ لا يهم.. نجلس في مقهى حتى تفتح.

www.aljsad.net

ـ فكرة جيدة.

ـ على العموم.. حتى نصل، سيكون قد انقضى وقت كاف لتفتح المحلات.

خرجنا أنا وهي من المدرسة نمشي ببطء نحو محطة القطار.. شبكت ذراعها في ذراعي، وشعرت لوهلة أنني يمكنني أن أحبها.. أحبها عندما تكون جريحة، ربما لأني آمن جانبها وهي كذلك.

فكرت في أن أستقلّ الباص بدل القطار، لكنني خفت أن تفسد زينة حميميته عليّ. ثم إن الطريق سيكون طويلاً جداً من هنا إلى مركز المدينة في الباص.. وأنا أشك في إمكانية أن يحتمل الباص زينة لكل هذا الوقت.

ركبنا القطار وجلسنا متقابلتين ففاجأتني عيناها المحمرتان.. لماذا تراها تبكي؟! لا يغري عماد بالبكاء مطلقاً!

هبطنا من القطار في محطة كوبنهاغن الرئيسية حيث حركة الصباح سريعة وديناميكية كعادتها، وتزدحم بعدد لا بأس به من البشر في محاولة لإقناعك بأنك في عاصمة أوروبية.

صعدنا إلى الأعلى.. فكوبنهاغن تقع في الطابق العلوي. مررنا بالساعة الشهيرة لنخرج من البوابة الجانبية للمحطة. وكانت السماء قد بدأت ترش رذاذاً خفيفاً من الثلج. سرنا بهدوء متشابكتي الذراعين. وعبرنا الشارع لنسير بمحاذاة «التيفولي» الذي كانت إعلانات افتتاحه الشتائي تنتشر هنا وهناك.. انعطفنا يميناً مارين «بالهارد روك». وحين وقفنا ننتظر شارة العبور أمام

www.aljsad.net

تقاطع العبور العريض الذي يفصل بين بولفارد «هانس كريستيان أندرسن» وساحة البلدية الشهيرة، ابتسمت فوراً لذكرى معلّم اللغة الدنماركية في الصف الثاني الابتدائي وهو يردد على أسماعنا بأننا الآن في قلب العاصمة.. ولا أعلم إن كانت قياساته صحيحة. لكن منظره وهو يعيد تنظيم الأطفال رابطاً حول خصره بلوزة زرقاء على طريقة التسعينيات، لا يبرح مخيلتي. كان ذاك في يوم مشمس. والأيام المشمسة في كوبنهاغن تربض في الذاكرة لتنقض فجأة.. معلمي الذي قرر لنا رحلة إلى مركز المدينة كان ممن أقرّوا هذا المكان في قلبي.. ومقولته التي لربما كانت عابرة وهو يدّعي أن من يقف في ساحة البلدية يكون في قلب العاصمة، تعتصر قلبي كلما مررت من هنا. تعتصره، تعتصره بشدة.. ثم تطلقه على غير راحة، فيبقى متكرمشاً من هول حنين الذكريات الطائشة.

قطعنا ساحة البلدية حتى صرنا في «ستروغيت». ولا أذكر أني وجدت فيه في مثل هذه الساعة المبكرة من قبل. ولم نرَ سوى عدد قليل من المارّة، يبدو وكأنهم يحلو لهم قطع الشارع في طريقهم إلى أشغالهم.. سرنا فيه الهوينا. وكان رذاذ الثلج قد خف عندما دلفنا إلى «كافيه نوردِن» أي «مقهى الشمال». وصعدنا مباشرة إلى الطابق العلوي حيث اخترنا أن نجلس على الأرائك الملاصقة للنافذة.

ارتميتُ على الوسائد المريحة ووضعتُ ساقاً تحتي.. ثم أعطيتُ نصف وجهي لزينة التي جلست بجانبي وطفقت أتابع

www.aljsad.net

الزبائن القادمين عبر السلالم الملتوية. . أما النصف الآخر فكنتُ أراقب به المارة في الشارع.

بدا لي المقهى وثيراً دافئاً بأضوائه الخافتة، ورائحة المعجنات الدنماركية الشهية والقهوة تفوح في المكان. . طلبت زينة شاياً وقطعة من الخبز الدنماركي وطلبت أنا مثلها دون أن أفكر ملياً في ما طلبتُ.

قالت وهي تفتح أزرار معطفها:

ـ لم أكن أعرف أنك تشربين الشاي.

أجبتُ بإهمال مفترشة يدي خدي:

ـ فعلاً. . لا أحبّذه كثيراً.

وضعت معطفها على كرسيٍ بجانبها:

ـ أمي تقول إن العراقي الحق يشرب الشاي فقط، ولا مشروب آخر سواه يعوّضه عنه.

ـ هل يعني هذا أنك عراقية حقيقية؟!

ردت وهي تبتسم ابتسامة عابثة وتلوّح بيدها:

ـ بالطبع لا. . فهذا يفسّر مقولة أمي.

حين وضع النادل الدنماركي الوسيم طلبنا أمامنا، مبتدرنا بابتسامة و«صباح الخير يا فتيات» بصوتٍ لطيف، رأيتُ ثلاثة شبان قادمين عبر «ستروغيت». . لمحتهم دون اهتمام عندما كانوا يمشون بالقرب من محل «لي لي» ثم ركزتُ أكثر عندما بدأوا يقتربون من النافورة الكبيرة.

www.aljsad.net

رشفت زينة من كوبها وقالت وهي تومئ برأسها نحوهم:

ـ عرب.

ألقيتُ عليها نظرة سريعة دون أن أنبس بكلمة ثم عدتُ لأتابع خطاهم النشيطة، فإذا بهم يتجهون نحو المقهى ليدخلوه.. وفي أقل من دقيقتين كانوا مستقرين إلى طاولة تقع في مرمى بصرنا.. بيننا وبينهم طاولة فارغة. وبسرعة، التقطتُ كلمات عربية.

لزمتْ كلتانا الصمت في حضرتهم.. إنها الهيبة المزيفة التي يفرضها شبّاننا على فتياتنا.

بعد ربع ساعة ولا أظنها زادت عن ذلك.. جاء.

جاء برفقة اثنين.. وما إن أطلوا حتى مالت عليّ زينة قائلة:

ـ حظ سيء.. هذا أخي.

لوهلة اعتقدتُ بأنها تعنيه.. لكنها وضّحت بأن أخاها محمداً هو أحد اللذَين قدما معه.

ولم أكترث..!

صافح هو ومن معه الشبان الثلاثة.. ورأيته يلتف حول الطاولة ليصل إلى أحدهم ليصافحه فسأله الأخير عن كيفية قدومهم، فردّ بصوتٍ واضح ولُكنة بغدادية أعرفها لأنها لكنة أبي وطريقة عماد في الكلام:

ـ هاي المرة جينا عن طريق «كرستيانس هاون».

وأردف بعد ذلك:

www.aljsad.net

ـ شلونك..؟

ابتسمتُ بدوري وأنا أنظر إلى زينة.. وفهمتني زينة وابتسمت.

«كررررررستيانس هاون»..!! يا للمغرور..!

لم يتكلف لفظها كما ينبغي.. «كغستيانس هاون»..!

بل شدد على حرف الراء بعجرفة لا تصدر إلا عن عراقي شديد الأصالة، شديد الاعتداد بها وبكل مظاهرها.. بما فيها لفظ حرف الراء بالحدة التي يلفظ بها بالعربية.

حين استقر في جلسته صار أمامي مباشرة.

التقطتُ وجهه بسرعة عجيبة.. بل إني أكاد لا أفرّق بين اللحظات التي دخل فيها إلى المقهى، واللحظة التي اتخذ فيها مجلسه.. كأنه طار وحط على كرسيه بسرعة لم أعها.

وجهه المشرق مثل صباح صيفي، حل أمامي، يعرّفني بنفسه في المرة الأولى للقائي به.

من بعدها سكنني وجهه.

طفقت أراقبه بهدوء، دون أن أفهم سر هدوئي. لم يكن بإمكاني أن أفقه جاذبيته على أية حال كما أنني لم أحاول.. كانت ثائرة على صفحة وجهه، وليس لي أن أستجمعها بهذه السهولة. وربما كان عدم فهمي لما يوحيه من حوله سبباً لمراقبتي إياه بكل هذا الاستسلام، حتى أن حواسي همدت، فشعرت بسَكينة رائقة في جسدي كله.

www.aljsad.net

كيف أمكن لكائنٍ ذكر أن يكون على هذا القدر من الحبور؟! أليس هو ذاته الكائن الذي لا يثير فيّ اهتماماً يُذكر. . بالشعر الزائد الذي يملأ جسده، وبشكله غير الجميل، وبالقذارة التي كان يوحيها لي بمجرد أن أسترجع حصص درس البايولوجي التي كان المعلم يشرح فيها الاختلاف القائم بين جنسنا وجنسه. . كيف أمكن لهذا الذي أمامي أن يكون ذكراً؟! كيف يكون هذا، مثل أولئك؟!

لم يكن وسيماً بما تتطلبه مقومات وسامة هذا العصر. . وعلى رأي زينة فإن شبان زمننا هذا واهمون إذا ما أرادوا اجتذاب الفتيات بوسامتهم. . وعندما سألتها عن ماهية الشيء الذي يفترض بهم أن يجتذبوا به الفتيات عوضاً عن الوسامة، ردت بجدية:

ـ بالكرش.

ثم استدركت حين قرأت دهشتي في وجهي:

ـ لا يفترض به أن يكون كرشاً ضخماً. . لكن شيء يملأ العين. . كرش. . كتفان عريضتان. . فخذان ضخمان. . !

أثار رأيها دهشتي، لكني ما لبثت أن تعودت ذوقها الصريح جداً في متطلباته. . بالتأكيد كان الرجال يمثلون متعة حقيقية لزينة، فمجرد التفرج عليهم في مجلة كان يثيرها فتصيح متلمظة وهي تنشر أمام عينيّ صورة ما في مجلة ما: Yammy yummy!! Delicious -

www.aljsad.net

وكأنها أمام كعكة بكريمة الشيكولاته.

كانت زينة تتغافل عن «المودلز» ذوي الأوجه الدقيقة والوسامة الشبيهة بجمال الفتيات، وتركز على رجال يذكرونني بثيران الحلبات الإسبانية.

أما هو فلم يكن شكله مناسباً في كلتا الحالتين. فلا هو يمتلك تلك الوسامة اللافتة ولا حتى أمتلك كرشاً يملأ العين كما تفضل ذلك زينة. بل كانت في وجهه جاذبية ما زلت لا أفقهها. وسامته مثل الأرض، قريبة مني ولها رائحة كفي المصنوعة من طينها. لم تكن وسامة ملائكية لكي أعجز عن النظر إليها وأشتهيها، بل كانت أرضية بكل ما للأرض من معانٍ طيبة وقريبة المنال.

فيها من التراب والماء ما يكفي فقط لعجن ملامحه هو فحسب.. صافية.. ماء وتراب، تراب وماء، طين، طين.

هكذا، بهذا النقاء هي ملامحه العزيزة.

وما لبث وجهه المشرق أن حيّرني، لأنه حين ابتَسَم، أمطر وجهه مطراً غزيراً على حين غرّة.. فاندهشت من إمكانية أن يشرق وجهه ويمطر في الوقت ذاته.

كان مطره ينهمر بشدة، وإشراقه يجففه تواً، فاحترتُ في أمره لأنه على الرغم من ذلك كله بدا واقعي الملامح.. فحيّرني أكثر!! لم يبدُ كحلم، بل بدا حقيقةً دامغة. ملامحه عجيبة، هادئة رغم طغيانها اللافت، وعارمة الرجولة رغم رقتها.

ولا أدري كيف تنبهت لشفتيه بتلك السرعة.. لفتني ذلك

www.aljsad.net

الاعوجاج البسيط فيهما، كأن ابتسامته تبتسم لنفسها وكلامه يكلم ذاته.. ذلك الإنحراف الجذاب، لم أملك إلا أن ألتفت إليه وأبتسم رغماً عني رداً عليه. ذكرني كثيراً بشفتي «توني كورتيس» في «البعض يفضّلها ساخنة»، وهو ينقض على «مارلين مونرو» بلكنة مميزة دوّخت مارلين، وأدهشتني..! وشفتان تنطقان الأحرف كمن يريح فمه من الكلام أثناء الكلام.

صاحبنا لم يكن بوسامة «توني كورتيس»، لكنه أكثر إثارة للاهتمام ولا شك.

نظرات عينيه هيّنة ولم تُلقِ بي لتنبّؤات هوجاء.. إلا أنها منذ ذلك اليوم تركتني أعيش وهي تنهش قلبي وتقضي على عقلي.. مثل عمل دؤوب لا تخطئ موعدها. كل يوم تنهش قلبي وتقضي على عقلي.

وكعادتي بحثت فيه عمّا يشبهني.. فوجدت شعره وعينيه.. بمثل لون شعري المتفحم وعينيّ السوداوين. وتذكرت مقولة أمي عن نُدرة العيون السوداء، ففكرت بأن هذه إشارة!

المرة الأولى التي أراه فيها، حادثة لا يبليها الزمن مطلقاً. وإنني لجِدُّ مطمئنة إليها في خزينة ذاكرتي.. فرغم الأعوام ما زلتُ أشعر كأن لم يمر إليها وقت قط. وهي لا تحاول التسلل مني، بل تترسخ فيّ مع نهب الأيام بي.. ما زالت نظراتهُ الطيبة، وابتساماته المنحرفة، وشكل شعره، والثياب التي كان يرتديها، والطريقة التي رشف بها من كوبه، وانحناؤه على المائدة، ثم

www.aljsad.net

رجوعه بظهره إلى الوراء، إطراقه وهو يستمع إلى محدثه. ما زالت كل صغيرة فيه يومها، تنعش قلبي.

إنني لا أؤمن بالحب من النظرة الأولى، ولا أحبّذ أنه ما حدث معي. وإن افترضتُ جدلاً أن حب النظرة الأولى صحيح، فكيف له أن يباغتني وأنا حينها لم أكن قد تعديت السابعة عشرة؟ كيف لرجلٍ لم أره من قبل أن يحشر حباً في قلبي رغماً عني، بهذه السرعة وأنا في عز سنيّ تمرّدي.. ثم إنه يبدو أكبر سناً مني بقدر قد لا يتحمل فيه أنوثتي غير المكتملة.

تجبرني الطبيعة على اختلاق الأعذار لمشاعري، ولا ترضى بمجرد التعليل الإنساني لها. إذ إنني فكرت بأن لو لم يكن هذا الذي أمامي ذكراً لما كنت شعرت بالإحراج من مشاعري نحوه. فلو لم يكن فرقه عني هو ذكورته لسهُل عليّ إذن الالتقاء به على مستوى إنساني صرف. لكن لكونه مختلفاً عني وموضوعاً تحت تصنيف أستغربه، فإنني في لحظة ما تمنيت لو أنه لم يكن ذكراً.. لا أدري ما الذي بإمكانه أن يكونه، ولكني تمنّيت على الكون عدم طرحه أمامي ككائنٍ مختلف، ليته يشبهني أكثر فأستطيع الوصول إليه بسهولة أكبر.

لو أنه لم يكن رجلاً كما بدا بشدة في ذلك الصباح الشتوي، لكنت ذهبت إليه مبتسمة وأطلعته على ما أشعر به.. ولسألته الرفقة ببساطة متناهية، ولكان يستقبلها برحابة صدر أؤكدها.

لو أنني تجرأت على ذلك حقاً، وهو على ما هو عليه من

www.aljsad.net

ذكورة، لظن في أفضل الأحوال أني فتاة سخيفة. أما في أسوأها فسيظن أني فتاة رخيصة تعرض نفسها عليه بطريقة غبية. . وسيكون هو أول من يظن بي سوءاً لسبب بسيط، وهو أنه واعٍ تماماً لاختلافه الجنسي عني. . أما أنا فأعيش في وهم أن بإمكاني ربما تجاهل حقيقة هذا الاختلاف.

لو. . لو. . أكره هذه الكلمة لأنها تلوي ذراع التفاصيل، ولا تترك لي أملاً أعتاش منه.

ـ زينة، أتعرفين الذي يجلس أمامي. . أمامي مباشرةً؟

ردتْ بسؤال دون أن تلتفت:

ـ بجانب محمد؟

ـ نعم.

همست:

ـ من غير اللائق أن ألتفت مرة أخرى.

أردت بشدة أن أعرف أي شيء عن هذا الذي يبتسم ابتسامته التي تنحرف قليلاً كلما اتسعت. . ابتسامته اللذيذة تلك أحسست فعلاً أنها تغريني بنفسها، حتى ظننتها ستطير من على شفتيه لتحط بين كفيّ، فوق شفتي، على عنقي وجبهتي.

قامت زينة من مكانها وهي تبتسم بعبث، لكنها حالما انتصبتْ كست وجهها فجأة بملامح جدية بدت لي كاريكاتورية، فغالبتُ ابتسامة. اتجهتْ إلى الحمّام وقد أشاحت بوجهها عنهم كأنها تتجاهلهم، في حين انحرفَتْ أعين الشبان نحوها، والتوت

www.aljsad.net

أعناقهم وهي تمر من جانبهم. . حتى هو رمقها بنظرة متفحصة أما أخوها فقد خفض بصره وطفق ينظر في فنجانه. وكنتُ أنا أجلس في مكاني متعجبة من زينة التي لم تنظر ناحيتهم. . كيف ستتعرف عليه إذن؟!

بعد دقائق قليلة عادت تمشي بتعجرف، وقد صارت نظرتها الجدية تسيطر على ملامحها من شدة ما افتعلتها. ومرة أخرى رفعوا أبصارهم إليها حالما اقتربت منهم. . لم يكونوا بالتأكيد يعرفون أنها أخت واحد منهم وإلا ما أظنهم تجرّأوا.

حين صاروا وراء ظهرها خلعتْ جديتها وابتسمت ابتسامة حائرة ثم قالت بصوت خفيض وهي تجلس بجانبي على الأريكة:

ـ لا أظنني أعرفه.

وبدت خيبة أملي واضحة على وجهي، فعادت تقول:

ـ لكن ولا يهمج. . سرعان ما سنعرف ما يكفي.

سألتها:

ـ كلهم عراقيون؟

رفعت كوبها إلى فمها وغطت به نصف وجهها. . عيناها فقط هما اللتان كنت أراهما وهي مطرقة، كأنما قد تم إيقافها من قِبل جهاز التحكم عن بعد. وبقيت تنصت لدقيقة محاولة تمييز لهجاتهم، ثم رفعت عينيها لتقول:

ـ ليس كلهم. . كأن أحدهم لبناني!

في هذه اللحظة رنّ هاتفها يعلن استلامها رسالة. . نظرتْ فيه تقرأ ما وصلها، ثم اخفضت صوتها قائلة:

www.aljsad.net

ـ إنه محمد.

ـ شيريد؟!

ـ يسأل لِم لسنا في المدرسة.

انحنيت برأسي قليلاً كأني أخاف أن يقرأ محمد حركة شفاهي:

ـ ماذا ستجيبينه؟

ردت ببساطة:

ـ ذهبنا إلى المدرسة وفوجئنا بحصص فارغة.

انشغَلَت بالرد على أخيها فعدتُ أسألها:

ـ هل رأيته من قبل؟

ـ لا يبدو شكله غريباً عليّ.. لكني لا أذكر أين رأيته.

ثم استدركت وهي تضع هاتفها جانباً:

ـ سآتيك بأخبارٍ عنه.. أعدك بذلك.

وكرهتُ في تلك اللحظة أني أصبحت بحاجة إليها، وأشرت كاذبة إلى كوني لا أهتم به إلى هذا الحد، وأوحيت لها ألا تقتنع بكلامي.

ثم قالت زينة فجأة:

ـ الأفضل أن نغادر قبلهم.

وغادرنا المقهى وشعور قوي يُنبئني بأنه سيستقر في حياتي إلى أجل غير مسمّى.

www.aljsad.net

لم نعد إلى المدرسة. قضينا ذلك النهار كله في ستروغيت. . تسكعتُ وزينة بين المحلات فيما وجهه قد بات متربعاً فوق أنفي يجبرني على النظر إليه فكدت أتعثر في طريقي عدة مرات.

اليوم. . والعشرينيات قد بدأت تمخر عباب النضج بي، يمكنني أن أفسر سر انجذابي إليه. يمكنني فضح ذلك الآن، على الفور، في هذه اللحظة!! دون أن أُعنى بأفضلية ألا أفعل كي لا أبدو مثل كاتبةٍ تستبق الأحداث وتفترض نضجها.

ككاتبة، لا أودّ بالطبع إقحام أمرٍ مستهجنٍ في روايتي. لكن كامرأة عبث هذا الرجل بعقلها دون أن يدري، أُفضّل انتشال الأحاسيس من أسرارها المعقدة، ومن ثم بسطها وجعلها يسيرة الإدراك قدر إمكاني. وربما أفسدتُ بذلك عنصراً مهماً في ما يفترض به أن يكون ضمن البنية الروائية.

لكنني لستُ روائيّة.

لست سوى امرأة تفترش قصتها أمامها مبعثرة من دون ترتيب.

أفكر الآن وأنا أكتب هذه الأسطر، بأنه ليس من الإنصاف بحقي أن أشرح منذ البداية أمراً استنزفني وقتاً وجهداً نفسياً لا بأس بهما. . تذكرني هذه الفكرة بأُخرى طرأت على بالي في بداية كتابتي قصتي. حين شعرت بشيء من الضيق وأنا أتخيل قرّاءً سيأتون على هذه الأسطر الكثيرة التي ملأتُ بها الصفحات،

www.aljsad.net

في وقت بسيط قد لا يتعدى اليوم أو اليومين. . فكرتُ حينها أن من الإجحاف في حقي أن تُقرأ قصتي التي قضى القدر وقتاً في حياكتها زاد على الخمس وعشرين سنة خلال مجرد يومين. . بل إن الوقت الذي قضيته في نقل قصتي عبر كتابتها قد تعدى حتى الآن العام، فكيف بالناس إذن يقرأونها في يومين فقط؟!

كأني أفترض بهم أن يقضوا في قراءتها ما قضيته أنا في كتابتها ومعاصرتها. . أن يبتكروا مفرداتٍ تخصّها وحدها، مثلما حاولت أن أفعل. . أن يفكوا الخيوط المتشابكة بين ماضيها وحاضرها لجعلِها سالكة غير عصيّة مثلما فعلتُ أنا.

لكنني أريد أن أثور على هذه الفكرة. فأنا لست محترفة روايات وقصص كي أقع في شرك أُسُسِها. ولا يحقُّ لأحدٍ انتقادي على التمرد الحبكوي الذي أنا على وشكه. أنا حرة من قيود الأدب لأني لا أدّعيه، وحرة من قيود الحبكة كوني لا أُجيدها. لم أفتعل حبك قصتي لأن القدر سبقني إلى ذلك، فكيف إذن أنتظر أن تحسب كل هذه الفضائل الأدبية لي وأنا لم أقترفها. . بل إنني حرة من الأسلاك اللغوية الشائكة فحتى هذه لا أصوغها بنفسي. . أنا حرة.

والآن. . وبعد أن أعلنت حريتي، دعوني أقفز على الأحداث وأخبركم بما أعرفه اليوم لا بما لم أعرفه بالأمس.

إنني اليوم قد صرت أعرف أن مرور هذا الرجل قد مهّد لقاعدة صارت حياتي ترتكز فوقها مذ بات جزءًا من أيامي. .

www.aljsad.net

ورغم غموض اللقاء الأول، لا يزال منذ هذا اللقاء يفاجئني بقدرته على التأصيل لحياتي كلها.

إنه سر.. مثل سر أناس خلدوا ولم نسمع عنهم.. مثل إكسير حياة لم يُخترع بعد.. مثل أسطورة سومرية مغمورة الأثر.

سرّ، قد يكون بسيطاً فلا يذكر.. وقد يكون من تلكم الأسرار التي ترتقي إلى مصاف الأسرار العظيمة.. غير أنه حتى الآن لم يتعدّني فظلّ سراً محدود الأثر على من يدينون للحياة بالكثير.

أما في داخلي فهو يتخذ لنفسه أبعاداً تخترق حجمي الصغير فلا أكاد أقوى على تحملّه.. ليس لضآلة جسدي القدرة على احتمال أسرارٍ مثل هذا الذي لا يستقر في مكانه، ويتموضع في داخلي بما يدعوني لتململٍ شبيهٍ بالرقص.

سرّي أنا..!! لوهلة خيّل إليّ أن سرّاً كهذا يُخلق لي وحدي، ويعني أنني مهمة بما يكفي ليُستَحدَثَ مِثله لي.

هذا الرجل وجِد في الدنيا فقط ليجلس على ذاك المقعد في مقهى سكندنافي، بعيداً بعيداً عن أرض أجداده وقريباً جداً مني، أنا التي تشاطره الأجداد ذاتهم.. وكم أبدع القدر في ضبط مقادير الرجل جيداً، ليجيء كما هو محبّذ، في الزمان المطلوب وفي المكان المرغوب.. بل إنه تجاوز عقبات كثيرة كي يصل إليّ.. فعميت عنه زينة، والتقطته عيناي، وتخيّرَ من بين كل المجالس أن يجلس في مرمى بصري، دون أن يلتفت إليّ ولم يقف شكلي

www.aljsad.net

عقبة أمام لقائي به، فهو لم يحفل به من الأساس لكي يُنكره أو يزدريه.. وتمادى القدر في كرمه يومها، فلم يجاهد لخلق أحداث ما تفضي في النهاية إلى تعرّفي به.. ذلك الكابوس المخيف.. أن أتعرف به.. أكلمه ويكلمني.

رباه.. أكاد أحزر ما سيحدث بعدها مباشرة.. سيتطور الأمر، وسيسترسل الرجل في حديث قد يكشف من خلاله شخصي، ولن يحتاج إلى أكثر من دقائق معدودة.. وإنها لكارثة أن يكتشفني مجرد مراهقة في السابعة عشرة، تفتقر إلى حياة مثيرة، في الوقت الذي تشعر فيه بالخزي من المثير الذي في حياتها.. مجرّد مراهقة تثير الشفقة، بجسدٍ يبدو وكأنه ينمو نمواً عكسياً فيتضاءل أكثر، ويتمسك بمعالمه الطفولية رافضاً الانتقال إلى دنيا صارت تشتهي فيه ما يدل على أنوثة ما.. مراهِقة، متبلدة الروح، دون ثراءٍ إنسانيٍ يذكر، تائهة الفكر، هادئة الطباع لا عن فضيلة.. قصة حياتها القصيرة لن تنفع يوماً في أن تكون رواية.

المفاجأة أنني مذ حلّ الرجل في حياتي تغيرت معالم مراهقتي، فأنِستُ لها وبدأتُ أمارسها بعشوائية مبتكرة، لكن بانضباط من يفخر بذلك.. صار الرجل رجلي، مثلما لِغالبية الفتيات اللواتي أعرف رجالاً يباهين أعمارهن بهم، رجلي الأوحد، الأكمل من بينهم جميعاً، دون أن يعرفني، ودون أن أتربّى على يديه.. فيطعمني ويسقيني، ويلتفّ حولي سلطةً من رحمةِ رجلٍ يكبر فتاته بأعوام تخوّله ليرعاها مثل ابنته.

www.aljsad.net

كم يكبرني يا ترى؟ يومها لم أكن أعرف. واليوم أعرف أنه يكبرني بعشر سنوات كاملات.. كثير، كثيرٌ يا رب. لكن هذا لا يهم، فقد آن أوان اعترافي بأنني ابنة نخلات طويلات القامة والعمر، لن يرضين بي ابنة من دون أن أكون على قدر شموخهن، فأعيش مثلما يعشن، وأحب مثلما يحببن.

ويكون رجلي طافر العرق مثل الرجال الذين يتسلقونهن.

رجلي لم يتسلقني، لكن يكفيني أن يكون في حياتي.. فيشذب الأعشاب حول جذوري، ويسقيها كلما مر ما يكفيها طويلاً.

والآن...

هل أحسستم بشيء من المرارة لأني استبقت الأحداث ونشرتُ بين أيديكم ما يفضّل ساردو القصص أن يأتي تباعاً، وبطريقة أكثر تشويقاً من المباشرة التي اقترفتها تواً؟

هل خيبتُ الأمل وأنا أبدو مثل أولئك الذين يجلسون إليك لمتابعة فيلم ما وينغصون عليك في كل مشهد بسرد أحداثه قبل أن تفاجأ بها!

لا يهمني إن كنتُ فعلت.. دعوني أهدد بأني إذا ما لمستُ تذمراً من فعلتي هذه فإني سوف أفضح النهاية قبل وقتها.. ما انفك رمق الشباب يراود طيشي وحريتي التي اعتمدتها منهجاً جديداً، قد توصلني لما هو أكثر من إفساد رواية.

www.aljsad.net

(١٥)

ارتديتُ ثيابي متعمداً ألا أختارها بعناية، ذلك كي لا أبدو متهالكاً على ذلك اللقاء. . عندما أكون وجهاً لوجه مع امرأة ـ أعلم أن غبار طلع الانجذاب يهب عليّ وإياها ـ من عادتي ألا أتعمد التأنق لها. . فأنا أكره فكرة أن يتجمل رجل بغية جذب اهتمام امرأة.

أعطتني موعداً صباحياً، في العاشرة والنصف، فلم أملك إلاّ أن أبتسم لجنونها وأوافق.

وكانت شذى قد أيقظتني في السادسة، فعدتُ أطمر رأسي تحت الوسادة وأنا أردد:

ـ لن أخرج باكراً اليوم. . اتركيني أنام.

لكنها لم تتركني. كنتُ أشعر بها تقف عند رأسي وانتظرتُ أن تتكلم، لكنها تأخرتْ.

حتى قالت أخيراً:

ـ هل أنت مريض؟

www.aljsad.net

ولكي أجنّب نفسي إلحاحها، قفزتُ من الفراش وخلال ثوان، كنتُ أقف تحت الدش.

تركتُني أختار ثياباً كانت كل قطعة فيها متوحدة اللون.. بنطلون أسود وبلوزة بنية غامقة تحتها قميص أسود. الألوان المتوحدة لا تربك من يقف أمامها، بل تدعوه إلى السكينة المحفزة لربما على البوح. وأنا كنتُ بحاجة إلى جعل هدى ساكنة وغير مرتبكة قدر الإمكان، فلعلها في لقاءٍ مباشر تبوح أكثر.

لم أجلس لتناول الفطور ولبثتُ واقفاً وأنا أشرب الشاي.. فرفعت شذى رأسها إليّ وهي تدهن قطعة خبز:

ـ ألا تجلس؟

ـ ألم تستعجليني؟!

سكتتْ.

ولا أدري لماذا راودتني رغبة في ضمّها حين التزمتْ صمتها. غير أني تشاغلتُ عنها بأن حملتُ كوب الشاي ووقفتُ قرب النافذة.. أزحتُ برفق جانباً من الستارة وطفقتُ أطالع السماء.

قالت شذى:

ـ يبدو أنها ستمطر ثلجاً.

ـ أتمنى ذلك، فالجليد يغطي الشارع.

نظرتُ إلى الساعة.. كانت ما تزال السابعة إلا ربعاً، ومع

www.aljsad.net

ذلك هممتُ بالخروج. . لحقتني شذى مرددة بأني لم أتناول فطوري بعد، لكنني أهملتها وأنا أضع قدمي في الحذاء. ناولتني جاكيتاً أوشكتُ أن آخذه منها، لكني وجدته أكثر أناقة مما أبغي، فأعدته لها وتناولتُ من المشجب آخر أسود اللون.

ـ ليش؟ مو هاي أحلى!!

هممتُ وأنا أخرج:

ـ ما أريد.

ألقيت بالجاكيت بإهمال في المقعد المجاور ثم صرت أدور بالسيارة في الشوارع. فكرتُ أن أمرَّ على مكان عملي ثم عدلتُ عن ذلك. ودون أن أتعمد تماماً اتجهتُ إلى مركز المدينة. قطعتُ «بولفارد أندرسن» باتجاه «نوربرو». . أوقفتُ السيارة في «رويسن أورينس أليه» ودلفتُ إلى مقهى «ديفيرسو» الذي كان هادئاً، حيث قررت أن أتناول إفطاري وقضاء الوقت المتبقي بدلاً من التسكع في الشوارع. . كان المقهى ساكناً مفعماً برائحة القرفة، رائحة كوبنهاغن!! ولسكون المقهى وطيب رائحته، سكنتُ أنا أيضاً، وجلستُ أراقب المارة عبر الشباك وأفكر في اللقاء الوشيك.

أخيراً وصلتُ إلى المكان المتفق عليه قبل الموعد بنصف ساعة. ووجدتُ أني في كل الأحوال عليّ أن أضمن ألا تصل هي قبلي فأُشعِرها بحرج انتظار رجل. . كانت تلك لياقة مني لم أتعمدها تماماً.

www.aljsad.net

استرجعتُ ترددها قبل أن توافق على طلبي لقاءها بعد أن احتججت لها بالرواية. وكنتُ وإياها نعلم أن الرواية ليست سوى حجة لألقاها.

عددتُ لها أسماء الكثير من المقاهي لكنها رفضت أن نلتقي في أي مكان عام.

قالت:

ـ لا أريد أن يكون للمكان أي جدران.

فعرضتُ عليها أن نلتقي في مقاهي الضواحي، بدلاً من تلك القريبة من المركز. . فرفضتْ.

ـ إذا رأونا معاً فلن نسلم من كلام الناس وفي المكان المغلق لن نجد الفرصة للتملص من كوننا معاً.

لم أهتم بتبريراتها. لكنني عدتُ أعرض عليها أن نبتعد عن كوبنهاغن بأسرها. . عرضتُ اللقاء في مدن أعتقد أنه لا يسكنها شرقي واحد، لكنها رفضتْ بإصرار.

ثم حددتْ هي مكان اللقاء.

ـ البحر مهجور في هذا الوقت من السنة. .

حقاً. . كان موقف السيارات خالياً إلا من سيارتين، وبدا سائق إحداهما على وشك المغادرة.

وقفتُ مستنداً بظهري إلى السيارة، واضعاً يديَّ في جيبي. .

www.aljsad.net

وجاءت في موعدها تماماً. . لمحتها تحييني برفع يدها وهي تمر من جانبي لتوقف سيارتها على بعد أكثر من خمسة أمتار.

أخيراً، وقفت تبتسم بوهن وخجل:

ـ هاي.

كانت ترتدي معطفاً رمادياً وجينزاً أزرق ضاق عند أسفل ساقيها حتى كاحليها، وكما في المرة السابقة كانت تنتعل حذاءً بدون كعب. . لماذا هو دائماً يكون بلا كعب؟!

جسدها الدقيق، شعرتُ مجدداً وأنا في حضرته بأني قد أهشمه لو أني سقطتُ عليه! ووجدتني ـ دون تعمُّد ـ أتخيّل شكلها من دون حجاب. . من دون تلك القطعة التي تربطها حول رأسها بإحكام.

ـ أهلاً.

ـ تأخرت؟

ـ أبداً أنا الذي جئتُ مبكراً.

ثم بادرتها معاتباً:

ـ ليس هذا أفضل مكان في العاصمة.

هزّت كتفيها بعناد وهي تصوّب نظرها إلى الأرض. أطلقتُ ضحكة صغيرة رغماً عني. ثم أشرتُ بيدي وقد تقلصت ضحكتي:

ـ ذلك مقهى. . ما رأيكِ؟

ارتبكتْ. ثم قالت وقد خفت صوتها فصار حنوناً:

www.aljsad.net

ـ لكنك وعدتني.

ـ طيب على الأقل أعزمكِ على قهوة.

وقبل أن ترفض مجدداً أخبرتها بأني سأذهب لإحضار القهوة بنفسي.

كان موقف السيارات عبارة عن ساحة صغيرة مفروشة بالحصى، لها فتحة على شارع ضيّق متفرّع من الشارع العام، وفتحة أخرى صغيرة عبارة عن ربوة محاطة بالأعشاب الجافة تمتد بعدها الرمال ثم يمتد البحر بطوله وعرضه. وعلى بعد أقل من مئة متر يقع مقهى صغير، اتجهتُ إليه وابتعتُ كوبين من القهوة الدنماركية المرّة التي لم أكن أستسيغها في البدء، غير أني تعودتُ عليها. ثم عدتُ لأجد هدى ما تزال واقفة قرب سيارتي، وهي تحاول أن تغوص في ثيابها أكثر، علّها تقيها البرد.. أخذت مني كوب قهوتها وهي تتمتم شاكرة، ثم تقدمتني ونحن نحاول اعتلاء الربوة، فوقفتُ مكاني أتابع جهدها وهي تصعد.

حين انتصبتْ في الأعلى، التفتت إليّ ثم ابتسمت قائلة: ـ Kommer du?

«هل ستأتي».

وحالاً اعترتها رجفة، واصطكت أسنانها. ثم جلستْ منكمشة عند بداية امتداد الرمال.. من بعدها أكثر من عشرين متراً من رمالٍ بدت باهتة اللون ومن ثم كان البحر.

كانت وهي تجلس هناك تشبه لوحة فيها خطأ ما.. ربما لأنها كانت تعطي البحر جانباً من ظهرها.

www.aljsad.net

قلت لها وأنا أجلس أمامها:

ـ ظننتكِ تحبين البحر.

فكّرت لبرهة ثم قالت:

ـ وهل يبدو أنني لا أفعل؟!

أشرتُ برأسي:

ـ تعطينه ظهرك.

هزت كتفيها، ثم قالت وهي تلقي عليه نظرة من فوق كتفها:

ـ هذا لأنني لا أحبّذه شتاءً.. ألا يبدو مخيفاً بلونه الرمادي هذا؟!

قلتُ بأسف:

ـ لا أدري، فأنا لا تربطني أي علاقة به. ولا يمكنني التعرف إلى المساحات الشاسعة من المياه ولذا لا أكاد أتقبلها.. العراق لا بحر له.

ـ تحب الأنهار؟

أومأتُ برأسي، فضحكتْ قائلة:

ـ لا تفعل هذا.

نظرتُ إليها مستفسراً، فقالت:

ـ يقال إن نهري العراق خاصة يحدّدان صفات أبنائهما.

ـ مثل ماذا؟

ـ آمممممم.. أبناء الفرات رقيقون بمثل رقة الفرات في انسيابه.. وأبناء دجلة عنيفون بمثل عنف دجلة في تدفقه، هذا

www.aljsad.net

لأنه يقال بأن دجلة يشق طريقه بين صخور وتضاريس وعرة. . على العموم، أجد أن عليّ أن أحذرك من الصفتين. . كلتاهما لا تعينان على متابعة الحياة بالصفاء المنشود.

لم يخطر في بالي ذلك من قبل، كما أنني لا أتمتع بمعلومات جغرافية لأتأكد من صحة كلامها، لكنني أعلم بأن في رأسي لوثة تهيج كلما ثرتُ، فتساعد على شحني بما يجب لأستكمل مظاهر ثورتي.

ولا أعلم إن كان لماء دجلة دخلاً في هذا. . !

لي مع النهرين ذكريات يثقب لها قلبي وقد ثقبت قلبي هذه الجالسة أمامي دون أن تدري.

الفرات الذي كنت أمرّ به في صغري بين الحين والحين، فألُقي عليه نظرة لا مبالية لأجده يرد علي بنسمة طيبة. حقاً، طيب هو الفرات، خجول الانسياب، ولربما لخذلانه الكربلائي القديم شأن في ذلك. لا أدري! لكن طيبته وخجله حفزاني عليه. . فصرتُ حين أمر به أنا وصحبي ـ بعد أن كبرت ـ أصرّ على إلقاء التحية عليه بأن أشجّع الصحب على رحلة نهرية فيه. . نتابع من بعدها طريقنا.

هذا النهر المنكسر يثيرني مثل امرأة ماضيها في العشق عتيق، لكنها تظهر حياءً مغرياً.

أما دجلة فصلتي به أعمق بحكم القرب منه. نسماته الندية

www.aljsad.net

في شهر مارس (آذار) . . والشموع التي يتركها البغداديون عليه إمّا شاكرين وإما راغبين، والرذاذ الذي يلتصق بوجهي ويتبخر قبل أن تُتاح لي الفرصة للاستمتاع برطوبته، بينما أنا أصر على الانحناء مراقباً الخطوط التي يرسمها القارب على الماء. . والحفيف الذي تصدره الأعشاب النابتة على جانبيه، والذي حين اكتشفته للمرة الأولى في طفولتي المبكرة ظننته صوت أنفاس جدي الجالس بجانبي، وكنت كلما سمعت صوت الحفيف ألتفت إلى جدي متطلعاً فأجده ينظر أمامه في صمت متأملاً، جذعه معتدل وبنيانه قويّ لا يُنبى بعمره الحقيقي. . وأعود أنحني برأسي أتابع الماء الذي يشقه المركب، وأمدّ يداً قلقة أبللها بالماء. . وحين كنت لا أسمع نهرة من أحد، كنت أستمر حتى يفاجئني صوت الحفيف، فألتفت إلى جدي وأنا أتساءل: لماذا يتنفس جدي بهذه العذوبة؟

لِصوت جدي وهو ينهرني طعم الندى، ونحن نشق دجلة:

ـ رافد. . أقعد عدل !

ولإشاراته ما يشبه النقش على الحجر، وهو يشير إلى منارة عالية من بعيد.

«تلك ساعة القشلة». . «ذلك شارع المتنبي. . ذلك هو المدخل إليه». ثم نواصل، فأرى رجالاً يجلسون مطلّين من شرفة تبدو قديمة، فيشير جدي بيده «هذا هو المقهى البيروتي». ثم نهبط أنا وجدي قرب المقهى، بينما أعينُ الرجال تطالعنا بفضول لا يستحقه رجل عجوز وطفل في السادسة. . لم يكونوا يبتسمون

www.aljsad.net

لطفولتي بل كانوا ينظرون إليّ كأنهم مصممون على أن ينتظروا مني شيئاً، لم أفقهه حينها.

صوت الحفيف، رطوبة الرذاذ، هبّات النسيم، الأعشاب الكثيفة على الجانبين، عرض النهر، صوت جدي، «رافد. . اقعد عدل!»، إحساسي الغامر بأن حكاية تُنسج. . دجلة، صوت الحفيف، رطوبة الرذاذ، هبات النسيم، بغداد.

مسحت على وجهي وأنا أحاول أن أحشر الذكريات في صدري قبل أن تفلت إحداها.

ثم قلت لهدى:

ـ ليتني أصلاً أستحق أن أكون ابناً لأيٍ من النهرين.

نظرتْ إلي لبرهة وهي تبتسم بقلق، وخُيّل إليّ أن في نبرتها شيئاً من السخرية حين سألتْ:

ـ إذا كانت أرض العراق لا تستحق المغادرة، لماذا إذن تتركونها؟

ثبتُّ نظرة لائمة على وجهها وأنا أقول بهدوء:

ـ نحن العراقيين بطبعنا شعب لا يحبّذ الهجرة. . لكن أرضنا كانت قد أتخمت بالدماء.

تحاشت نظرتي وقالت مراوغة:

ـ ما كان عليكم سوى أن ترووها بالمزيد من الدماء، في النهاية كانت ستقيء ما بها وتنتهي.

www.aljsad.net

ـ بل أظنها شربت أكثر مما ينبغي فصارت تقيء كل ما بها. . فقاءتنا جميعاً.

هزت كتفيها قائلة وهي تركز النظر في عيني:

ـ لا يهمني. . هذا لا يلين قلبي.

ـ ثقي بأن لين قلبك لا يُعدّ هدفاً لي.

حاولتْ أن ترشوني ببسمة:

ـ يا لغرورك. . أسعدتني!

التزمتُ الصمت، فسكتت هي أيضاً. . سرحتْ بنظرها في الفضاء. . وقالت: بعد أن رشفت من كوبها، كمن يودّ أن يغيّر الموضوع:

ـ أهذه رفاهية متكاملة أم ماذا؟

وكان عليّ أن أعبث بشيء ما ما دمتُ أجلسُ مقابل امرأة، فصرتُ أعبث بالرمال.

أكملتْ بشبه مرح وعيناها سارحتان:

ـ الشتاء، كوبنهاغن، أنت. . ثم البحر وكوب قهوة. . يا لسعادتي.

رددتُ متخابثاً وأنا أترك الرمل يتسرب من كفي:

ـ أنا وكوب القهوة نبعثُ على السعادة.

أردفت جادة:

ـ البحر وكوب قهوة رفاهية تامة. . فما بالك أن يضاف إليهما ما هو أكثر.

www.aljsad.net

ـ في الشرق نقول، الماء والخضرة والوجه الحسن. أما القهوة والبحر فهذه جديدة.

عادت تتطلع في عيني بجرأة:

ـ لا أظنه وجهي، ذاك الحسن الذي تتحدث عنه.

ـ بل وجهك!

تمتمتْ:

ـ عيناي كبيرتان أكثر مما ينبغي.. ووجهي أسمر كما لا ينبغي.

ـ تشبهين رسوم الـ«مانغا» اليابانية.. ملامح دقيقة وعينان واسعتان تفترشان نصف الوجه.

قالت ببساطة:

ـ رسوم المانغا مجرد خيال، المرأة فيه أقرب إلى المسخ منها للحقيقة.. بينما وجهك أنت مثلاً، أرضيّ الملامح، فيه ما لصلابة الارض وطيب كرمها، وفيه ما تحمله الأرض من حقيقة لا تخجل من إشهارها.

تقلّصت قبضتي على حفنة من رمال. وأردفتْ وهي تنظر في حِجرها:

ـ أترى؟! ها قد ربحتَ.

وعلى الرغم من أن مديحها هذا كان ليكفي غروري لشهرين قادمين اندهشتُ من قدرتها على التجاوب معي بهذه السهولة.

www.aljsad.net

كانت انسيابية جداً وسلسة في تطورها. . كأنها تعرفني تماماً، كأنها تعرفني حقاً!

غاصت كفي في الرمال. وغاص قلبي في صدري وقد بدأتُ أشك في أني ربما بدأتُ أفهم. . أردتُ أن أسألها، لكنني تراجعت سريعاً، جبنتُ فحسب. «وجهك أرضي الملامح». . أنا؟!

اعتدلتْ في جلستها، جمعت ساقيها وقربتهما من وجهها، وضعت خدها على إحدى ركبتيها. وصارت تلعب في الرمال بيد وتحتفظ بقهوتها باليد الأخرى. . ابتسمتْ فجأة، ابتسامة ندية مثل يومنا ذاك. . وقالت وهي لا تنظر نحوي:

ـ حين رأيتك للمرة الأولى كان عمرك ٢٧ عاماً. لم يكن لك هذا الشيب الذي قفز إلى شعرك. ولم تكن لصوتك هذه البحّة التي يخلّفها التدخين المستمر.

ثم التفتت إليّ.

ـ تغيرتَ كثيراً. . وأنا أيضاً تغيرتُ كما هو مقدّر. . مخجلٌ أن أبقى تلك المراهقة التي كنتها.

كأنها ذكّرتي بشيء تاه عني. وبيد واحدة سحبتُ سيجارة من جيبي وأنا أسأل:

ـ أتمانعين؟

هزّت رأسها مثل طفلة مدللة. . أما أنا فارتجفت، ارتجفتُ في داخلي. . أخرجتُ كفي اليسرى من مدفنها، محتفضاً بقبضة

www.aljsad.net

أخيرة من الرمال. ووضعتُ السيجارة بين شفتي، ثم ملت نحوها وأنا أقول بحذر:

ـ ثماني سنوات ليست بالوقت القصير.

ـ مرّت سريعة. . لا أكاد أتخيلك في الخامسة والثلاثين.

نثرتُ الرمال لأخرج ولاعتي وأشعل السيجارة:

ـ بل قريباً سأكون في السادسة والثلاثين.

أخفتْ وجهها بكفها صائحة:

ـ يا الله. . !

ـ عجوز. . ؟

ـ جداً. . ستهرم قريباً.

ضحكتْ. . ثم تنهدتْ واحتضنتْ ساقيها. بينما نفثتُ أنا أول نفَس من السيجارة، وبسرعة فرغتُ من قهوتي، وأنا لا أكاد أصدق اكتشافي.

تلهيتُ عنها بأن عدتُ وقبضتُ على الرمل بكفّي وصرتُ أتركه يتسرّب بخفة من بين أصابعي متابعاً انسيابه، وقد أعجبتني برودته حقاً، . كأنني انشغلتُ به عنها! لا بل طفقتُ أفكر في كل ذلك الذي يفصل بيننا ويفرقنا. . انتمائي، انتمائها. . ماضيَّ، ماضيها. . زوجتي وسنوات غربتي. . جنونها وجهلها بما أحب. ولكي أكون منصفاً فكرتُ في فيض مشاعرها المشتبكة بكل تناقضاتها، ورأيتُ أنني أنا أيضاً ما زلت أجهل الكثير من

www.aljsad.net

عنائها. . وأننا مختلفان بالقدر الذي يجعل من جلوسنا مدعاة للسخرية.

ولعل صمتي أثار يأسها فصاحت فجأة:

ـ هيا. . قل شيئاً!

كأنها أيقظتني. . رفعتُ رأسي إليها متسائلاً. فاندفعتْ قائلة بمرح:

ـ تحنِ رأسك وترفع حاجبيك هكذا. . تبدو محبباً جداً.

رباه. . إني أنا معشوق هذه المرأة!!

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(١٦)

جاءت رؤيته للمرة الثانية في الوقت الذي صرتُ أقتنع فيه أن لقاءً ثانياً معه لا بد وأن يكون متعسّراً.. لكن سرعان ما خيّب ظنوني المتشائمة.

لم تكن رؤيته مجرد مواقف رسخت في ذاكرتي، لأعتصر القطرات المتبقية منها اليوم وأرطّب بها حياتي الجافة. بل أظنها قد تتابعت، وما ذلك إلا لأني كنت بحاجة كبيرة إلى أن تساعدني هذه الرؤى على التأكد من وجوده الحقيقي في الدنيا، وأنه ليس مجرد حلم أو خرافة، أو حتى هذيان صباح شتوي. فهو رجل ذو حضور شرقي مميز، وحبورٍ شديد أشد من أن تضمّه مدينة أوروبية، وهو بشرقيته العارمة يبدو عبئاً على كوبنهاغن بأسرها... وكانت تخيفني فكرة أن تتخلص منه المدينة لتُبقي على نقائها الأوروبي دونه.. يخيفني بشدة ألا تضمني المدينة وإياه، رغم إشفاقي عليه منها.

هو رعشة قلبي الأولى.. واحمرار خديّ لمجرد الذكرى.

www.aljsad.net

ويدهشني الآن أن كل ما كان بي نحوه لم يولّد ردة فعلٍ منه.. ألم تتسرب مني أشواق كافية لتلتصق به؟ لقد تبارت كلها لتلقيحه لكنه عقّرها جميعاً بجهله بي، لم يبادل نظرتي.. ولا ابتسامتي، ولا حتى فكرتي.. لم يشعر أني هنا.. ولم يعلم أني هناك!

رؤيته الأولى أرّخت ابتسامته. ورؤيته الثانية أرّخت نظرته. والثالثة أرّخَتني أنا.. تواريخ جمّدت الزمن، فصار قوالب من الأحداث تتساقط في ضميري وعقلي.

حين أتذكر رؤيته للمرة الثانية يرخي قلبي عباءة ذكرياته القليلة بحياء، ليلتقط بحاسة شم فريدة العطر الذي تعطرت به يومها.. رائحة ذلك العطر تحيي في رأسي ذلك اليوم كله، كأن شتاء ذلك العام لم يبرحني حتى لحظتي هذه.. كأن عمري توقف عند السابعة عشرة، كأن عمري توقف!

تراها العطور قد اختُرعت لغرض استخدامها لتتغلغل في أجواء مناسباتنا، حتى ينصهر رذاذها بذكريات تُخلَّف؟! إذ رغم الذكريات الرقيقة التي تبعثها رشقات العطر من جديد ينتعش في صدري ألمٌ لفقدان تلك الأيام.. ألمٌ كبير الحجم يُطبق عليّ حتى صرت أتجنب عطور الذكريات تلك، خوفاً من نفحاتها المؤلمة.

رؤيته للمرة الثانية.. حلّت بسرعة عجيبة، تقريباً في منتصف عطلة رأس السنة التي قضيت معظم أيامها في البيت.. ظهرَ واحدٍ من تلك الأيام نهضتُ من أمام التلفاز بملل، وفي نيّتي أن أفتح حاسوبي وأكتب رسالة إلى توربن. صعدت بتثاقل إلى فوق لأجد الطابق العلوي في ظلمة كئيبة، فنحن كعادتنا في الشتاء

www.aljsad.net

تكون ستائرنا غالباً مُسدلة بما أننا نكون في ظلمة شبه دائمة. ولأني وجدت الجو وقد انقلب صحواً فجأة اتجهتُ لأزيح ستائر غرفتي ليظهر أمامي ما بدا نهاراً نابضاً بالشتاء السكندنافي الرائق.. الثلج غطى الأرض بلطف والسماء صفت على غير عادتها في هذا الوقت من السنة، كأنها أخطأت وسرعان ما تتراجع عن خطئها، بينما انتصبت الأشجار بعريها مجردة من أوراقها وجمالها.

قبل أن أُنهي فتح ستائر الغرفة سمعت صوت هاتفي ينبئ برسالة. ودهشت لكثرة المكالمات والرسائل التي كانت قد وصلتني حين نظرت فيه.. وكلّها من زينة تطلب أن أردَّ عليها في الحال.. فاتصلتُ بها أسألها ما بها فقاطعتني:

ـ أين كنتِ..؟ لِمَ لا تردين؟

ـ كنت في الأسفل ولم أسمع الهاتف.

قالت بسرعة:

ـ ارتدي ثيابك حالاً ولنلتقِ عند محطة «نوربورت».

ـ لا أظنني أقدر، أشعر بكسل.

عادت تقاطعني:

ـ ستأتين.. صاحبكِ سيكون في «أنقرة».

بُهِتُّ.. لم أكن أحلم أن يكون هو من ضمنيات عرضها.. سألتها بتردد:

ـ ما أدراك أنه سيكون هناك؟!

ـ سمعتُ أخي يواعده.

ـ وكيف عرفت أنه من يُكلم؟!

www.aljsad.net

ـ لماذا لا تتحركين فحسب!! ماذا ستخسرين؟!

سكتُ لوهلة وقد عقدت ما بين حاجبي بحيرة. ثم قلت:

ـ لا أدري.

هتفت بإصرار متوسل:

ـ هيا.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر. وفي الثانية إلا ربعاً كنت أجلس في القطار متجهة إلى مركز المدينة متعجبة من كيفية وصولي حتى هنا. كيف ارتديت ثيابي ومشيت من بيتنا حتى المحطة لأنتظر القطار ثم أركبه، وكيف أجلس هنا الآن؟ وفيما كنت أفكر حين وافقت زينة على المجيء!

عندما وصل القطار إلى محطة كوبنهاغن الرئيسية شعرت بقلبي يضطرب بشدة لاقترابي الفجّ، فقد اقتربت أكثر مما خوّلني الوقت لأعي. ولأن القطار يتوقف دقائق أطول في محطة كوبنهاغن مما يفعل في بقية المحطات، عكفتُ أنا خلالها أراود نفسي، أحاول إقناعها بالهبوط، لكنها عاندتني وتشبّثت بالمقعد بقوة.. حدّثتُها أن أنتصب واقفة الآن، وأسرع قافزة على الرصيف لآخذ قطار الجهة المعاكسة وأعود إلى البيت. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وحين صفر الباب بشدة وانطبق على ذاته شعرتْ نفسي براحة عظيمة بينما لبثتُ أنا متربّصة ومترقبة المحطة الآتية «فيستربورت».. سأهبط هنا، سأعود إلى البيت، ولكني عدت ألتصق بمقعدي، ممسكة طرفيه بكفي بقوةٍ فر لها الدم من

www.aljsad.net

أصابعي. . وفي هذه المرة لم تطل وقفة القطار بما فيه الكفاية لكي أقنع نفسي بالعدول فسرعان ما انطلق القطار متجهاً إلى حيث يفترض بي أن أهبط.

أخيراً، نوربورت. . وجدت نفسي أثبُ على رصيف المحطة وأركض حاشرة نفسي بين الناس بينما هاتفي النقال يرنّ ويرنّ وأنا لا أكلّف نفسي الرد عليه، ولا أنزعج من رنينه المتواصل. . أعرف أنها زينة. . قادمة. . بعد كل هذا لا بد أن أكون قادمة بكلّي، دونما حاجة إلى استعجالي وها قد وصلت.

صعدت الدرجات بسرعة ولفحني الهواء الذي بدا وكأنه سيتجمد ليصبح مرئياً من شدة البرد. رأيت زينة من بعيد واقفة عند موقف الباص تنتظرني. . قطعتُ الطريق وهرعت إليها كأنها تخبئ الرجل في معطفها، أو كأنني سألقفه قبل أن يغيب بين جموع الناس أو يختفي خلف موقف الباص ليفاجئني.

سلّمت عليها، واحتضنتها كعادتنا عندما نلتقي، ضغطتها إليّ بقوة.

ـ برد. . برد.

همهمت زينة ونحن في طريقنا إلى «أنقرة».

ـ دفء. . دفء.

همست لنفسي وأنا أتخيل وجهه.

لم نكن نمشي بل نكاد نهرول. . وحالما انعطفنا في فرع يدعى «كريوستال» قالت زينة وأسنانها تصطك من خلال كلماتها:

www.aljsad.net

ـ لم أكن أعلم أن شبابنا يلتقون على الغداء في مطعم مثل «آنكاغا» . . لطالما اعتقدته حكراً علينا نحن الفتيات.

كانت تتحدث بالعربية وحين تصل بكلامها عند الأسماء تلفظها بدنماركية شديدة الغنج. «آنكاغا»، أو وهي تناديني «هووودا»، ثم وهي تتحدث عن عماد «إيماد». لم تكن قط تلفظ الأسماء باللغة العربية ولا أدري لماذا.

سألتها:

ـ لماذا. . ؟!

ردت بنبرة مستنكرة:

ـ المطعم ألطف من أن يناسب سحناتهم. ولا يبدو طعاماً كهذا مشبعاً لشبان عراقيين.

ثم سكتتْ لبرهة وقد أخذتها رجفة من البرد، لتردف ساخرة:

ـ لعلهم شواذّ ليأتوا إلى مثل هذا المطعم.

لم أرد. . فمن عادة زينة أن تسمعني تعليقات غريبة غالباً ما تكون سخيفة، ولا أكاد أفهم في كثير من الأحيان إلآم ما ترمي . . ففضلت الصمت.

عندما وصلنا وقبل أن ندخل أمسكت زينة بكفي وقالت:

. . ـ تصرّفي وكأن الأمر برمّته صدفة. . تجاهليهم Fuldstændigt.

أومأتُ برأسي وهمستُ:

www.aljsad.net

ـ هذا إن كانوا موجودين أصلاً.

دلفنا إلى المطعم ولم يكن بوسعي أن أتلفت باحثة عنهم، ولا سيما أنه يتفرع على شكل قاعات صغيرة كل واحدة منها تختلف في الشكل والحجم عن الأخرى.

تسمّرنا في مكاننا أمام الباب في نهاية المدخل الضيق ننتظر نادلاً يقودنا إلى طاولة.

ـ هاي.

حيانا النادل بلطف. ثم سأل:

ـ تدخنان؟

أجبتُ ساهمة:

ـ لا.

لكن زينة صاحت بسرعة:

ـ نعم.. نحن مدخنتان.

وقلب النادل شفتيه لتضارب أقوالنا وهو يقودنا إلى القسم المخصص للمدخنين، بينما همست زينة بالعربية مؤنبة:

ـ أتريدين أن يرمي بنا في الجانب الآخر من المطعم.. الشبان عادة يجلسون في قسم المدخنين، حتى وإن لم يكونوا كذلك.

أومأت برأسي مثل بلهاء.

وما إن استقرت زينة على مقعدها حتى همست:

ـ إنهم هنا.

www.aljsad.net

بادلتها الهمس وأنا أنظر في عينيها مباشرة، كأني أخاف إن أنا أبعدتهما عنها التقيت بوجهه يخترقهما:

ـ هل هو هنا..؟

حدجتني بنظرة غريبة وهي تقول بحدة:

ـ تأكدي بنفسك.

جلتُ بعينيّ ببطء، لأكتشف أنهم كالمرة السابقة يجلسون في مرمى بصري، غير أن بيننا وبينهم ثلاث طاولات، يحتلها أناس ما إن يُقدم أحدهم على حركة معيّنة حتى يحجب عني الرؤية.

انتقلتُ بعينيّ إليه.. وعرفته رغم أنه هذه المرة يجلس وظهره إليّ. قلتُ بطريقة سخيفة أشبه بطريقة الأطفال حين يتذمرون:

ـ يا إلهي.. زينة.. إنه يعطيني ظهره.

قالت وهي تهز رأسها كأنها على شفا رقصة:

ـ لم يكن يعلم أنك قادمة ليتخذ مجلساً أفضل.

ولم تكد تنتهي من جملتها حتى رأيت أخاها وقد قام من مكانه فهمست بخوف:

ـ زينة.. محمد قادم نحونا.

ردت بهدوء:

ـ ليأتِ.

وقف محمد عند طاولتنا وسلّم عليّ بأدب ثم التفت إلى أخته مخاطباً إياها بعراقية حادة:

www.aljsad.net

ـ شدَسوين. . ؟

ـ كما ترى. . نحن على وشك أن نتغدى.

ردت زينة بهدوء.

ـ لم يبدُ عليكِ أنكِ كنتِ تنوين الخروج.

ـ بل كنت أنوي ذلك.

سكت محمد قليلاً ثم استند بيديه إلى طاولتنا وثنى ركبته:

ـ ولماذا تجلسان في قسم المدخنين.

ارتبكت أنا قليلاً، فيما ردت زينة ببراءة:

ـ النادل هو من قادنا إلى هنا.

ـ أها. . !

ورغم أنه لم يبدُ مقتنعاً تماماً، عاد ينتصب بجسده ثم قال وهو يهم بالابتعاد عنا:

ـ لا تتأخري. . عودي قبل الظلام.

لم يكن ذلك ممكناً. فظلام ديسمبر (كانون الأول) مبكرٌ جداً في كوبنهاغن. . فابتسمتُ بدوري ساخرة منه.

عاد إلى مكانه. وثبّت أنا بصري عليه كأنني أتتبعه، بينما أنا أصبّ جانباً من نظرتي على الجالس هناك بظهره لي. وفكرت بما سيلي، فاكتشفتُ ألا شيء يلي. . ها أنا أجلس أبحلق في ظهر رجل لا يدري أنني أوجد في الدنيا على الرغم من أنه يبعد أمتاراً قليلةً عني. وسينتهي الرجل من طعامه ويغادر لينسى في اليوم

www.aljsad.net

التالي أنه جلس في «أنقرة» أصلاً، فهو حدث لن يسترعي اهتمامه كثيراً.

لِم أنا هنا إذن..؟

وشعرتُ بالحرج لوجودي.. الحرج منه ومني ومن زينة.

ماذا أبغي؟ أتراها تلك الغريزة المقيتة هي التي حفزتني للمضي في طريقي إليه..؟!

أتراي أنشدُ أن يكون هذا الرجل ملك يميني.. دون أن أدري عن رغبة مثل هذه..؟!

بدلاً من المضي قُدماً لإيجاد تعليلٍ ما، صرتُ أتساءل عمّا سأفعله بهذا الرجل إذا غدا ملكي حقاً.

ولم أجد جواباً مناسباً..!!

ثم اكتشفت بسرعة أن فكرة امتلاكه لذاته تبدو أكثر إثارة من أن أمتلكه أنا.. مثيرٌ أمر حريته في أن يلامس نفسه لمسات عفوية مثل ابتهالات قصيرة.. مثيرٌ للاهتمام أن يحك رأسه، ويطوي كمّ قميصه، ويمرر أصابعه في شعره برقي محترف، ويرسل نظراته على النحو الذي تسمح أفكاره المعتركة في صخب رأسه.. ينام، يفيق، ينام.. ولا سطوة لأي قوة دخيلة على متابعته نقاء أفعاله.

كم هو محظوظ بنفسه، له أن يتابعها كيفما شاء.. كم هو محظوظ، فرجعُ أنفاسه يعود له وحده، والأفكار التي تتزاحم في رأسه تزاحم رأسه وحده. أن يكون أعلم بنفسه من أي مخلوق،

www.aljsad.net

ألا تبدو هذه الفكرة استثنائية بما يكفي كي لا أعكّر صفو إثارتها البالغة بإقحام ذاتي عليها. . !!

لا أجمل من أن تستقر رشقات عطره على نحره ـ الخاص به جداً ـ لتبلى، وتعتق، وتعتق. . وهو ينساها، وهي لا تنسى معانقتها ذرّات جلده وغبار جسده.

أتساءل أحياناً كيف له ألا يحب نفسه، أعني كيف له ألا يعشقها؟ تراه اعتادها بما أنه وإياها مترافقان مذ خلِق؟ تراه يهملها بما أنه اعتادها؟ أم أنه على دراية تامة باستثنائيتها فلا يملك أمامها سوى أن يعشقها. . ؟!

قام من مكانه بعد دقائق، فتبعته بعيني. . ثم دار عنقي خلفه حتى كاد يطق. ودون أن أفكر حقاً في ما أنا مقدمة عليه قمت من مكاني لأتبعه. . وجدته واقفاً يتكئ بمرفقيه على البار الفاصل، ثم وجّه كلامه بطريقة مرحة إلى النادل الباكستاني الواقف خلف البار، وأظنني سمعته يطلب قهوة. وفيما طفق النادل يحضّر له قهوته، ارتكز هو بمرفقيه على البار وانحنى قليلاً، وصار يحادثه. ومن كلامهما بدا أنهما يعرفان بعضهما، لا كمعرفة نادل وزبون. . لعلّهما كانا صديقين!

ولم يكن النادل ليراني وأنا مختفية خلفه، لولا أني تحركتُ قليلاً فاكتشف وجودي ليقطع الحديث ويومئ برأسه يسألني عن طلبي.

www.aljsad.net

تقدمتُ خطوة حتى صرتُ أقف بجانبه، وارتبكتُ قليلاً قبل أن أقول ناظرة في عينيّ النادل مباشرة:

ـ صديقتي تطلب فانتا بدل الكولا.

هكذا.. استجمعتُ كل ما بي من سخافة لأفوه بأول ما خطر على بالي!

عاد النادل يومئ برأسه وهو يلتفت إليه ليواصلا الكلام.. كان عليّ بعدها أن أعود أدراجي لكنه أقدَمَ على حركة بسيطة.. هبط بيديه من على البار فلامست أصابع يدي باطن كفه.. في جزء من الثانية خطر لي أنه يدعوني لذلك.. وفعلاً، كدتُ أشبك أصابعي بأصابعه لولا أنه عاد فأبعد كفه عن منالي، وارتفع بذراعيه ليعقدهما على صدره.. نظرتُ إليه، إلى جانب وجهه القريب، كأني أسأله أن ينتظر. فبدا عليه أنه لم يُعر انتباهه لما حدث تواً واسترسل في حديثه.. بل إنه لم يتنبه إلى أن فتاة قصيرة قد أدلت بطلب ثم تسمرّت في مكانها، غير مرئية، غير محسوسة.

التفتُ لأعود أدراجي، فوجدت زينة تقف قرب البوفيه توجه نظرة مفعمة بابتسامة مباشرة إلى عينيّ.. تحركتُ من مكاني لأعود إلى مقعدي، فيما صوته يحيط بي، بلغته الدنماركية ولكُنته العراقية الواضحة فيها.. كنت أشعر بخيبة أمل لإهماله، لكني ابتسمتُ وأنا أتطلع في عيني زينة.

ماذا كنت آمل أكثر من هذا.. كنت على وشك احتضان كفه بكفي فقط تواً..!

www.aljsad.net

رجعت إلى مكاني، لأجلس زامّة شفتيّ ولا رغبة لي في الكلام.

ـ ماذا فعلتِ ؟

سألتني زينة.

ـ ما شأنك أنتِ ؟

انتفضتُ من صمتي بحدة.

في هذه اللحظة جاء نادل آخر ليستبدل كأس زينة بأخرى كبيرة مملوءة بشراب الفانتا.

فضحكت قائلة:

ـ طيب.. من قال إنني أريد استبدال الكولا بالفانتا؟ أنا لا أحب الفانتا.

نظرتُ إليها بحنق ثم تناولتُ كأسها ووضعتها أمامي:

ـ أشربها أنا.

ضحكتْ أكثر.. هززت رأسي بضيق، فقطعت ضحكتها وسألتني:

ـ ما بك.. ماذا حدث هناك؟

همستُ بحدّة وأنا أراه بطرف عيني يعود إلى مكانه:

ـ زينة.. لا شأن لك بي.

ألقت نظرتها بعيداً وهي تنغّم محتجة:

ـ أهووووووو.. بدينا !!

www.aljsad.net

قمت من مكاني بحركة تلقائية، وحملتُ حقيبتي ومعطفي وتركت المكان وأنا ألقي نظرة أخيرة عليه، بينما تبعتني زينة وهي تردد بصوت حاولتْ أن يكون خافتاً:

- إلى أين؟

تركتها وخرجتُ. كنتُ أسمع طقطقة حذائها من خلفي، لكنني لم ألتفت.. لن تتبعني، عليها على الأقل أن تعود لإحضار حقيبتها ومعطفها وسأكون أنا قد ابتعدتُ بما يكفي.

لم أكن أهرب منها.. هربت منه!

ذلك اليوم دامت رؤيته لنصف ساعة فقط.. بعد ذلك لم تعد رؤيته لتدوم أكثر من تلك النصف ساعة، واقتنعت بأن هذا الوقت القليل يكفيني تماماً، ولم أطمع قط بالاستزادة.

يومها عدتُ إلى البيت مؤمنة أن هذا الرجل سيمكث لمدة طويلة في حياتي ولن يبرحها بسهولة.

لمسته تلك، أثقلت كفي دون مشقة وأنا أحملها في راحتي.. تركتُها كما هي ولم أحاول الحفاظ عليها كما تفعل العاشقات.. لا حاجة بي لأن أفعل وهي تتربع بكل ثقلها هنا على كفي دون أن تنتفي بقاياها، حتى وأنا أعبث وأقلّب عشرات الأشياء يومياً.. بل هي لا تنتفي حتى بغسلها. ولا أبالغ إذا قلتُ بأني ما زلتُ حتى هذه اللحظة أشعر بها، كأن لم تكفِ كل تلك السنين لمحو ذرّاتها.

www.aljsad.net

وصوته.. ذلك الخدر العنيد على الإفاقة، ما زال على ذبذبة وضوحه الأول.

وما زالت لُكنته العراقية الذائبة في كلماته الدنماركية تدغدغ قلبي.. أليس غريباً أنها تفعل ذلك بي، أنا التي كنت أنفر حد الاشمئزاز من اللكنات الغريبة ولا سيما الشرقية منها، التي تتخلل الدنماركية؟! لماذا إذاً تشجعني لكنته تلك عليه، فأستقبلها بانتعاش لاذع! ولماذا ما إن أتخيّله يلفظ الكلمات بلكنة كوبنهاغنية سليمة حتى أجد أن هذا لا يناسبه؟!

لا يليق به أن ينصهر لسانه ليغدو أوروبي الملامح.. فلن يكون هو إذا لم تَشُبَّ عراقيته فيه وتُذكى في كل لحظةٍ من كينونته.. في كل ثانية يطبع فيها ذاته صوراً قليلة وكلاماً نادراً، وحركاتٍ وأفكاراً في قلبي وعقلي.. لن يكون هو ذاته إذا ما لم تتجلّ شرقيته فيه بتلك البساطة، بتلك التلقائية.. حتماً دون أن يفتعلها.

* * *

الساعات، الأيام، السنين، لم أتنبه لها من قبل! وحين فعلتُ اكتشفتُ أنها قد غافلتني لأجد نفسي فجأة وقد صرت أحمل عمراً غير العمر.

كم كان الوقت ثقيلاً أستعجله بالأمس وكم أصبح خاطفاً لا أكاد ألحقه اليوم!

لم أتخيل أنني سأحاول التشبّث بشبابي وأنا بعد لم أعشه.. أن يصبح هاجسي الكبير هو حياتي التي أعيشها لمرة واحدة والتي

www.aljsad.net

تتسرب من بين يدي يوماً بعد آخر وساعةً بعد أخرى، حتى أُفاجأ بكونها على وشك الانتهاء أو أنها قد انتهت بالفعل.

شهر إبريل (نيسان)، الذي يحمل بين طيّات أيامه يوم ميلادي، جاء ذلك العام باختلافٍ بارز عن الأعوام السابقة.. فلقد كان عيد ميلادي الثامن عشر.

كنت قد تسلّمتُ أوراقاً رسمية من البلدية التي أقطن فيها تفيد بأني قد بلغت السن القانونية إضافة إلى بضع معلوماتٍ رسمية. لقد بلغت إذاً سن الرشد قانونياً، على الرغم من أن طفولتي كانت ما تزال تتصاعد في صدري ولا يمكنني إلجامها أو حتى حبسها في قُمقم جوفي الحصين، فهي تعاند السنين الثماني عشرة بضراوة.

لم أفرح.

كنت أردّ بالصمت على كل من يداعبني بالسؤال عن الإحساس الجديد الذي أحسه وأنا الآن قد أصبحت امرأة بقرارٍ رسمي.. أكتفي بهز كتفي بحيرة وأغوص في التفكير.. ما الذي تراني جنيته في حياتي، وما هو طموحي فيها، لكي أسعد بالذي مضى منها أو أترقب المزيد؟

أقامت لي أمي حفلاً كبيراً في منزلنا في واحدة من ليالي السبت. وقد دعوتُ إلى الحفل ـ بتوجيه من أمي ـ جميع زميلاتي، حتى الدنماركيات منهن اللواتي أتين مؤثرات التفرج علينا أكثر من المتعة التي لا تحققها لهن مثل حفلاتنا الخالية من الكحول والذكور.

www.aljsad.net

دعوتُ حتى أولئك اللواتي لا تربطني صلة قوية بهن. . بل إنني دعوتُ فاطمة الغبية أيضاً فجاءت بكل غبائها، وشُقرة شعرها وزرقة عينيها.

كان حفلاً ضخماً بالنسبة إليّ، فاق معازيمي فيه معازيم عرس أختي نخيل. . وتساءلت الفتيات بإكبارٍ ودهشة عمّا ستفعله أمي من أجلي يوم عرسي من شدة اهتمامها بأدق التفاصيل، من الثوب الغالي الذي اشترته لي حتى الشموع الثماني عشرة التي زُيّنت بها كعكة عيد ميلادي.

ترك والدي البيت لي وحفلتي وغادرا للمبيت عند نخيل في «رينغ ستيد»، على أن أدعو أنا صديقاتي المقرّبات لكي يبتن معي.

ـ لتبقين على راحتكن، وتأنسن بعضكن ببعض.

هكذا رددت أمي كأنها ترشوني رشوة جديدة. وفكرتُ ساخرة أن ليس لي صديقات مقرّبات إلى هذا الحد. . لكنني دعوت بضع فتيات للمبيت معي فعلاً، كانت من بينهن هويليا ولمى وزينة بالطبع.

كان جواً صاخباً يوم حفلة ميلادي، فازدحم البيتُ على غير عادته حتى أنني كدتُ أنكره. . بيتنا ترك عنه هدوءه الممل الذي يغري تماماً بالهجرة منه، فصار لا يشبه ذاته اليوم.

بعض الفتيات يرقصن. . وأنا لا أفهم لِم ترقص الفتيات ما إن يجتمعن! أسمع موسيقى مألوفة، ثم أسمع موسيقى بلغة لا

www.aljsad.net

أميّزها. . أسمع أغانيٍ جميعها تصخب بطبولٍ وإيقاعاتٍ سريعة. . عربية، هندية، تركية، فارسية، غربية. . لم أعد أميّز لحناً من لحن.

وعلى الرغم من كل أنواع التشويش السمعيّ والبصَري معاً في حفل لعين كهذا، حلا له أن يربض فوق أنفي كما يفضّل أن يفعل.

يغريني وجوده الذكوري في حفلٍ ممتلئ بالإناث. . باختلافه المفرط يبدو أكثر تميّزاً من ذي قبل. . يغريني وأنا أرفل في حفلٍ لا أشتهيه، ليبرّر بذلك عيوب شخصيتي الكئيبة. وأنا عيوبي كبيرة، ضخمة وقوية مثل رجل، مثل جنسه المختلف عني. . كم يذكرني بها. .كم أخجل، كم أتأنث. . وكم أفتقد عزلتي.

لا يمكنني الاستمرار في تحمّل سماجة الفتيات وخلافاتهن على تشغيل هذا «السي دي» أو ذاك. لا يمكنني أن أسكت عن رغبتي الملحة في الوحدة، كما أنني لا يمكنني أن أصرّح.

وبدأ الضغط يطبق على أنفاسي ويخنقني. . الضغط، الضغط، يخنقني تدريجاً. . نَفَسٌ واحد، يا رب نفس واحد. . وأحاول أخذ نفس طويل لكنه لا ينزلق إلى صدري. . ينحشر في بلعومي، يراوح مكانه ولا ينزلق إلى صدري. إني أختنق. . نفس واحد وأستريح. . الضغط. . يا رب!

انفلتُ من أمام الفتيات أمشي بهدوء أستر خلفه تشنجي، بينما أضطر إلى رسم ابتسامة حاولتُ أن تبدو سعيدة. صعدتُ

www.aljsad.net

إلى أعلى، ففوجئت باثنتين من الفتيات في الممر العلوي تُسرّ إحداهما إلى الأخرى أمراً. . ابتسمتُ لهما وأنا أمر بجانبهما ابتسامة خاوية.

فتحتُ باب غرفتي. . خمس دقائق من الخلوة لن تكشف لهن غيابي.

وعدتُ أبتسم وأنا أكتشف اثنتين أخريين تختفيان في غرفتي جالستين على سريري. اللعنة! كم تعشق الفتيات الأسرار! نظرتا إلي كأنهما لا تصدّقان سخفي وأنا أقتحم الغرفة عليهما.

ـ استمتعا بوقتكما.

قلت لهما بكل غيظي وحنقي وأنفاسي التي تتحشرج في حلقي.

اتجهتُ لفوري إلى الحمّام متمنّية ألا يكون محتلاً هو الآخر. . دلفتُ إليه، فتحت حنفية الماء وقبل أن أصل بالماء إلى وجهي تذكرت أني أضع ماكياجاً، فتركت الماء يبرّد كفيّ لدقيقتين، ثم جلست على مقعد الحمّام.

كم تتشابه المواقف في حياتي. . حلقة مفرغة، حركة دائرية متصل رأسها بذيلها، وأنا لا إرادة لي في خضمّها. . ومثلما كنتُ أتقافز بالأمس في هذا الحمّام إثر كلماتٍ جارحة سمعتها. . ها أنا ذا اليوم أتقافز اختناقا من اللطف واللباقة وحفلٍ صاخب.

الحلقة المفرغة التي أدور فيها منذ ثماني عشرة سنة لم تتغيّر. لا شيء تغيّر سوى أنني بدأت أشعر بالتعب. . وبشيء من

www.aljsad.net

الكرامة تخزني، وتذكّرني بأن ربما كان عليّ أن أنتقم لنفسي من هذه الرتابة القهرية.

وهذا الطارق الجديد، الناقر على باب حياتي الصغير.. لماذا حضر؟! بدا لي أني سأكره وجوده يوماً، ولعلي سأكرهه شخصياً حين أسأم منه، فلا أعود أعبأ بأي من أنواع اختلافه الكثيرة. حتى وإن اكتشفتُ يوماً أنه جنّي لا إنسيّ.

وانتعشتُ قليلاً.. فكرة التحرر منه وكرهه أنعشتني لوهلة.. مثل مسكنٍ أنعشتني.

صخب الموسيقى والضحك يلتف بي من كل جانب، وإن كانت خافتة بعض الشيء.

خبّأتُ رأسي بين ذراعيّ ودفنته في حضني لعلّ الأصوات تخفت أكثر، لعلّها تتلاشى أو تصمت. ثم وأنا غارقة في ظلمة حضني، علّقت على وجه الرجل كل ضيقي وتعبي. وتركتُ أخيراً أنفاسي يتسرّب الواحد تلو الآخر إلى صدري الكظيم.

أن أكون أنا صاحبة دعوة، أستضيف فيها عشرات من الفتيات ثم أختفي في الحمام دون أن تنتبه أي منهن لعدم وجودي أو تشعر بفراغ لاختفائي لهو إحساس مهين، تجرّعته بهوادة.

مع مرور الوقت بدأت الفتيات يودعنني الواحدة تلو الأخرى. ولم يبقَ سوى اللواتي دعوتهن وزينة ليبتن عندي، وقد تركتهن يبدّلن ثيابهن ويبدأن سهرة أخرى أمام التلفاز.

كانت زينة قد أحضرت مجموعة من الأفلام ليخترن من بينها

www.aljsad.net

ما سيشاهدنه. وكلها أفلام نسائية، ذات نهايات أميركية صرفة.. مفبركة ولا توحي بواقعية ما.. فهل يعقل أن يقع كل هؤلاء في حب بعضهم بعضاً ويصرّحوا بذلك بهذه البساطة المتناهية.

العشاق في الأفلام يجدون دائماً من يطوّرون حالاتهم العشقية معهم.. عاشقَين من طرفَين، يضاهيان عشقهما جمالاً وحبوراً.

لكن ماذا إذاً عن عشّاق الأطراف المبتورة؟! أولئك الصادقون البررة بمعشوقيهم.. أولئك الذين قلما يُذكرون ولا تغري قصصهم المخيلات المتحجرة.

استأذنتُ الفتيات في أخذ حمام.. نزعتُ عني ثوبي وتبرّجي ووقفتُ تحت الدش وأنا أشعر برغبة عارمة في سهرةٍ طويلة على الماسنجر مع توربن .. أحدثه عن يومي وأبثه ما في نفسي من حنق على صديقاتي ونفور من أهلي.. وإحساسي بالضيق ذاك الذي يتشبّث بأنفاسي ولا يطلقها.

حين أنهيتُ حمامي، دخلتُ غرفتي لأجد زينة تجلس أمام مرآتي بثوب نومٍ أسود اللون ينحسر عن ساقيها الطويلتين.

قالت وهي تجرّبُ مُلمِّع شفاه اشتريتُه حديثاً، وتنظر إليّ عبر المرآة:

ـ نعيماً.

ـ شكراً.

www.aljsad.net

وقفتُ في وسط الغرفة، متشاغلة عنها بتجفيف شعري.. ثم قالت وقد يئست من صمتي:

ـ لقد حصلتُ على رقم هاتفه.

ـ من؟

ـ صاحبنا.

فهمتُ من تقصد تواً. لكنني نظرتُ إليها بحيرة وأرى نفسي وإياها في المرآة، شعري منفوش والمنشفة المبللة بين كفيّ.. وهي بظهرها لي ووجهها نحو المرآة، شفتاها مطليتان، وعيناها انطبقتا شيئاً ما بإغراء من أثر السهر والتعب.

ـ أخذت رقمه من هاتف أخي خُلسة.

لبثتُ ساكتة لبرهة ثم عدتُ أجفف شعري بالمنشفة وأقول بعدم اكتراث:

ـ لكني لم أطلب منكِ.

ـ ألا تريدين؟

قاطعتها بسرعة:

ـ كلا.. لا أريد.

ـ كيف ذاك؟

ـ لماذا تتدخلين؟!

قلتها مستفسرة لا محتدة.. نظَرتْ إليّ بعجب، فعدتُ أقول وأنا أرمي بالمنشفة على سريري:

ـ لا تتدخلي فحسب.

قامت من مكانها، واتجهت إلى الباب قائلة بنبرة لا مبالية:

www.aljsad.net

ـ على العموم سأعطيكِ إياه. . وأنت قرري.

قالت هذا ثم انسلّتْ من الغرفة.

هبطتُ إلى تحت بعد أن سرّحتُ شعري وقد عاد وجهي إلى طبيعته. . دون ماكياج.

وجدت بعضهن يتحلّقن حول التلفاز، ويستلقين على الأرض ملتحفات بأغطية. . فيما تمددت زينة وهويليا على الأرائك. جلستُ بدوري على الأرض مستندة بظهري إلى الأريكة التي تمددتْ عليها زينة، ودسستُ قدمي تحت غطاء واحدة من الفتيات.

هاتفي النقّال الذي في حضني اهتز دون أن يصدر صوتاً. . كان رضا يبارك عيد مولدي. . بادلته الرسائل باستسلام دون أن أُعنى بإلحاحه، ربما لأنني لم أكن متحمسة للفيلم الذي يعرض.

أرسل يخبرني أنه على علم بأن والديّ يبيتان خارج المنزل. . كانت أخته ـ فاطمة الغبيةً ـ قد أخبرته بذلك. سألني ببساطة أن أخرج معه فكتبتُ متعجبة طلبه: الآن ؟!

رد: نعم الآن.

كتبتُ: أين نذهب؟

كتب: دعي ذلك لي.

كتبتُ: وماذا عن الفتيات؟

كتب: أخبريهن أنك خارجة برفقتي.

www.aljsad.net

كتبتُ بعد تردد: كلا.. سأنتظرهن حتى ينمن.

كتب: هيا.. أرجوكِ لا تضيعي الوقت.

كتبتُ بإصرار: قلتُ بعد أن ينمن.

صعدتُ مباشرة إلى فوق وأخذتُ ثياب خروجي وحقيبتي وهبطتُ إلى الأسفل. وقلتُ لهن قبل أن يبادرنني بسؤال:

ـ ستنام اثنتان منكن في غرفتي، والبقية في الغرفة الأخرى. أما أنا فسأنام في غرفة والديّ هنا في الأسفل.

سألتْ زينة وهي تنظر إلى الثياب التي أحملها:

ـ لِم لا تنامين في غرفتك.. ونحن ننام في الغرف الأخرى.

ـ لا.. هكذا أفضل.

ثم أكملتُ قبل أن تسألني:

ـ سأخرج باكراً لأشتري خبزاً.. لذا حملتُ ثيابي معي كي لا أزعجكن في الصباح.

لم أنتظر طويلاً حتى طلبن أن ينمن، فرافقتهن إلى فوق واطمأننت إلى كونهن قد استقررن في فُرشهن.. إلا زينة التي بادرتها بسرعة بأني متعبة جداً وأريد أن أنام، وانفلتّ من أمامها قبل أن أسمع رداً.

هتفتُ وأنا أهبط:

ـ Sov godt piger ..

«نوماً هانئاً يا بنات».

www.aljsad.net

استلقيتُ على السرير العريض وتناولتُ هاتفي لأكتب إلى رضا أخبره أني سأخرج من المنزل بعد نصف ساعة، حتى أطمئن بأن الفتيات قد غفين.

ارتديتُ بنطلون جينز أزرق، وبلوزة من الصوف قاتمة الزرقة، ولففت رأسي بإيشارب أسود، ثم ارتديت «ترينتش كوت» أسود ربطتُ حزامه حول خصري بإحكام، وحملتُ حقيبة متوسطة الحجم وخرجت.

وجدتُ رضا بانتظاري يقف على بعد عدة أمتار من بيتي.. حيّاني بكفه وسار أمامي إلى موقف السيارات، فتبعته مبقية مسافة بيننا حتى استقر في سيارة زرقاء.. وما إن جلستُ بجانبه حتى انطلق بسرعة لا تحتملها الطرقات.

تشاغلتُ بالتفتيش عن شيء في حقيبتي فأخفيتُ رأسي فيها، وفي صدري خوف كبير من أن يكون أحد ما من الجيران قد رآنا معاً.

سألته وأنا أسترخي من تشنّجي، بعد أن ابتعد عن منطقة سكننا:

ـ لمن السيارة؟

ـ لأخي.

أردف قائلاً:

ـ كل عام وأنتِ بخير.

همستُ أشكره وأنا أنزل زجاج سيارته غير عابئة بالبرد،

www.aljsad.net

ومددتُ جزءًا من رأسي عبرها ورحت أتابع الشوارع الخالية التي نمر بها بسرعة. . مدينة فارغة تماماً، إلا من سيارة بين حين وآخر تبتعد عنا لتعود المدينة إلى فراغها. . التفتُ إلى الساعة فوجدتها تقترب من الثالثة والنصف صباحاً.

ـ أين نذهب؟!

ـ أين تودين الذهاب؟

فكرتُ قليلاً ثم قلتُ:

ـ لا أرغب في النزول من السيارة.

ـ لن نبقى ندور هكذا في الشوارع.

أجبت وأنا أنظر أمامي:

ـ بل سنفعل.

رد بصبر:

ـ طيب.

عدتُ ألتفتُ نحو الشارع وأمد رأسي من النافذة.

كان يتكلّم وأنا لا أصغي إليه. . وحين شغلني دويّه المستمر هتفتُ به:

ـ كفى.

سكت لوهلة ثم قال:

ـ هل قدمتِ لتصمتي، ولتجعلي مني سائقك؟

التفتُ إليه بحدة:

www.aljsad.net

ـ وهل أنا التي طلبتُ القدوم؟

ثم عدتُ أكمل بنبرة ليّنة قليلاً:

ـ أنا حقاً مستاءة اليوم.

ابتسم وهو يرتاح في جلسته أمام المقود:

ـ في يوم ميلادك؟!

تنهدتُ بقوة:

ـ ما الفرق بين يوم ميلادي وغيره.. كلها متشابهة حد القرف.

لم أدعه يتكلّم فقلت:

ـ هذا طريق يؤدي إلى مركز المدينة!!

ـ وأين تريدين أن أدور بك في ساعة كهذه؟

استسلمتُ له رغم قلقي.

حين صرنا في شوارع مركز العاصمة ذهلتُ للمناظر التي فيها.. لم أكن قد أتيت إلى هنا في مثل هذا الوقت، وبالتأكيد ليس في ليلة سبت. كانت الفتيات والفتيان منتشرين في كل مكان، من بولفار «أندرسن» حتى بداية شارع «نوربرو»، يتجمعون أمام المطاعم، البارات، وصالات اللعب.. وأغلبهم سكارى. وقد لفتت نظري أناقة الفتيات في الشارع على غير العادة.. ترى هل تخلّى الناس عن الزي المتعارف عليه هنا.. الملابس المريحة غير المتكلفة؟.

www.aljsad.net

لم أكن أعرف أن هذه الثياب تُنزع فجأة ليرتدي أهل المدينة ما هو مختلف تماماً.

همستُ متسائلة:

ـ ما الذي يحدث؟

ـ ماذا؟

ـ الناس.. لا يبدون على طبيعتهم.

ـ لماذا؟

لم أعرف كيف أعبّر فاكتفيت بأن أقول:

ـ ثيابهم.. صراخهم وعبثهم.

ـ إنها ليلة السبت.

قالها كمن يفترض أمراً بديهياً.

ـ ليكن.

ـ ألا تعرفين ليالي السبت؟

التفتُّ نحوه بحدّة، وهببتُ في وجهه مثل عاصفة ثائرة:

ـ كلا، لا أعرف. ومن أين لي أن أعرف وأنا أقضي ليالي السبت في صمتٍ مطبقٍ في غرفة في بيت يقع في الضواحي البعيدة.. أي شيطان يمكنه أن يحضرني ها هنا في هذا الوقت؟!

بهتَ لصراخي:

ـ على رِسلك.

ـ أنت لا تكف عن قول السخافات.. هل سبق أن تعرفت

www.aljsad.net

أختك فاطمة إلى ليالي السبت، لكي تستهين بعدم معرفتي بها؟!
لبث ساكتاً. . فعدتُ أنظر أمامي وأنا أزفر.

هل أسكن هذه المدينة حقاً! هؤلاء الناس. . الشوارع. أين أنا من كل هذا؟! كيف اختبأتْ عني المدينة كل هذا العمر؟!

بل إنني حتى لم أسمع زميلاتي ـ الأجنبيات طبعاً ـ يصفن شكل الليل في مركز العاصمة. فهن مثلي، لا أظن أنه يسمح لهن الوجود خارج بيوتهن في ساعة كهذه.

اكتشفتُ سريعاً أنني مغبونة في هذه الحياة لأني ولدتُ فيها أنثى. فالخطايا التي كنتُ أعجبُ من مجافاتها لي بدت لدهشتي رفيقة بي وهي ترحل عني وتجفل فقط لكوني أنثى لا تقدر على حمل وصمتها الغادرة. خافت الخطايا عليّ من نفسها فهي أدرى بما سيكون عليه عقابي من عُسر لو حدث لها أن تربعت على جبهتي.

أما رجالنا. . رجال جاليتنا. . هؤلاء الذين يحرصون على الوجود في الحسينيات في يوم السبت من كل أسبوع، لا يضيرهم أبداً أن يتسكعوا هنا. . تتقيأهم الحسينياتُ بعد صلاة العشاء ببساطة، لتستقبلهم الشوارع. . ولا أقول النوادي لأني لم أدخلها لأعرف إن كانوا فيها.

ذاك الشاب الذي هناك. . أعرفه. وهو يعرفني ويعرف أهلي، عليّ لذلك أن ألتفت هرباً من عينيه كي لا يراني. . وعلى الرغم من أنني أنا أيضاً رأيته واقفاً وسط مجموعة من الفتيات

www.aljsad.net

والفتيان معظمهم دنماركيون يحملون في أيديهم زجاجات «كارلسبيرغ»، وهم على وشك أن يسقط واحدهم في حضن الآخر، من خدر السكر واشتداد الغريزة.

لكن هذا الجرم المشهود ليس في صالحي.. فوحدي أنا الشاذة هنا، أُطوَّقُ بالحلقات الخانقة، وأنا وحدي التي تخاف منها الخطايا نفسها.. كل ما بي شاذ ويعلن بإصرار عن كوني غير مرحب بي في مركز العاصمة.. ولا سيّما في ليلة سبت.

أنا السمراء، الصغيرة، الغريبة، المغرَّبة، الأنثى.. أنا الوحيدة.. أفتقر إلى حنان تغدقه عليّ الدنيا، فأتوسل إليها أن ترأف بشبابي، وهي ترحل بكل ما فيها عني.. بطهرها ودنسها ترحل، بحلوها ومرها ترحل، بترفها وشقائها ترحل.. دنياي أنا خاوية كئيبة، لا يكاد يكون فيها أثر حتى لي.

وأتساءل كيف تراه سيكون حسابي! فأنا مجردة من الكبائر، ومجردة من الحسنات.. أصلي وأصوم وأرتدي الحجاب لأن أمي قالت لي أن أفعل ذلك وبالرغم من أن ديانتي باتت تُعدُّ هوية ترسم ملامحي وأبرهن بها على تمسّكي بجذوري، صرت مع الوقت أمارس كل ذلك بتلقائية غافلة، سلبتني روحانيتي التي كان بإمكانها أن تكون ملاذاً أخيراً.

طلبتُ من رضا أن يعيدني بسرعة.

ـ ألا تنزلين؟

ـ كلا.

www.aljsad.net

ـ على الأقل لنتمشى.

ـ لا.

ـ ألستِ جائعة؟

صرختُ به.. صرخة أرعبتني.. وأقسمتُ بأني سأنزل من السيارة لأعود إلى البيت بنفسي إذا لم يُعدني الآن.. ودون أن ينبس بكلمة استدار بالسيارة من منتصف الشارع، استدارة مخالفة للقانون وقد بدا على وجهه ضيق عظيم، كأنه يلعنني في سره.

حين صار الـ«تيفولي» خلفنا ونحن متجهان نحو الطريق السريع، اعتذرتُ منه بلطف متذرعة بخوفي من أن يكون عماد هناك.. لم ينطق رضا. وبدت عيناه الزرقاوان أكثر حدةً مما عهدتهما، وقد غلب عليهما ذلك اللون الفيروزي. تقلّص البؤبؤان، فخيّل إليّ أنهما أكثر برودة وعلى وشك أن تخنقاني.

هبطتُ من السيارة بسرعة دون أن أحييه. وبقفزاتٍ سريعة وصلتُ إلى البيت وتسللتُ إليه بهدوء.. غيرّتُ ثيابي وألقيتُ نفسي على فراش والدي ونمت.

في الصباح أفقتُ من نومي لأفتح عينيّ بصعوبة.. ولوهلة أنكرتُ وجودي في سرير والدي. ثم نهضتُ بنصفي العلوي لأجلس مسندة ظهري إلى الوسادة. مددتُ يدي أبحث عن هاتفي لأتأكد من الساعة، فكانت قرابة السابعة والنصف، ولم أكن قد نمت أكثر من سويعات قليلة.. فاستلقيت على جنبي أحاول

www.aljsad.net

العودة إلى النوم. . ولأكثر من نصف ساعة لبثتُ مغمضة عينيّ لكن النعاس كان قد فارقني.

أخيراً قمتُ خارجة من الغرفة. . ارتحت لهدوء ورتابة المنزل الذي عاد إلى طبيعته المعتادة. . بعد ليلة كليلة أمس عرفتُ كم يحتويني هذا البيت ويدفئني، بينما أنا غافلة بل وناكرة له جميله هذا.

صعدتُ إلى الأعلى، وفتحتُ باب غرفتي بلطف. . كانت زينة وهويليا نائمتين في سريري. . اتجهتُ إلى الغرفة الأخرى فكانت لمى وبقية الفتيات نائمات أيضاً.

عدتُ أهبط إلى غرفة أبي حيث تمددتُ في فراشه مسندة ظهري إلى الحائط.

وكعادتي حين أشعر بالفراغ صرت أعبث بهاتفي. . أقرأ الرسائل التي وردتني أو التي أرسلتها، فوجدت أن أغلب الرسائل في هاتفي هي من زينة. . وأثناء عبثي، فاجأني اسمه مدرجاً بين الأسماء.

لم أندهش. . فزينة غالباً ما تفعل ما تشاء رغم أنفي. ودون أن أتعمد تماماً حوّلتُ رقم هاتفي إلى محجوب. . ضغطتُ الزر الأخضر، ثم رفعت الهاتف ليستقر عند أذني.

رن. . رن. . ما يزال يرن. وحين كدتُ أيأس من الجواب جاءني صوته كسولاً كأنه استفاق تواً من النوم.

ـ نعم.

لا نَفَس مني.

www.aljsad.net

بصوت أعلى وأنشط عاد يردد:

ـ نعم. . نعم.

حين يئس من الرد، قطع الخط.

كان في صوته طعمُ العبادة حين تجيء في الوقت الذي أحتاج إليها بشدة. . صوت عميق، فيه رنّة ارتطام تمور العراق بالأرض الخشنة. . رقيق، فيه نغمة أجراس كنيسة مدينتنا. . فيه مزيج من جلجلة وسكون أربكني. . فيه نَفَسُه الذي حفّزني. . فيه أيامه التي رافقته طويلاً، تاركة بصمة من هلاكها عليه.

سقطت يدي في حِجري. . تطلعتُ إلى الهاتف وأنا أسترجع الكلمة الوحيدة التي قالها.

«نعم». . ارتفعت ابتسامة إلى شفتي. لم يقل «آلو» كما هو متوقع بل قال نعم. . بلغة عربية ذات نكهة عراقية مميزة. . تعجبتُ من إصراره، إذ لم يهتم بالرد على هاتفه بالدنماركية، على اعتبار أنها اللغة الموحدة بين سكان هذه العاصمة. . تناسى ذلك بعجرفة، وفرض نعمه بقوة أحرفها الثلاثة.

نعم. .!!

بدا لي كبيراً. . أكبر مني بمئة وخمسين سنة كأن طيش الشباب والتحذلق قد تراجعا عنه ففضّل نضجُه استبدال «آلو» بنعم. . كأن «آلو» هذه أقل من أن تنطق بها شفتاه.

نعم. . نعم. . كأنني باتصالي به ناديته، وكأنه رد على ندائي مستفسراً: نعم. .؟

www.aljsad.net

كم انتشت عروقي لكلمته الصغيرة.. كم هو مميز حتى في اختياره مجرد لفظة على أخرى.. نعم.. نعم.. مثل أغنية صرتُ أرددها بيني وبين نفسي.. أنغّمها كما أشاء وتشاء هي لي أن أنشد.

نعم.. نعم.. نعم..نعم.

لفظة تغوص نهايتها في صدره، كأنها تحوي سرّاً يطويه هناك في أعماقه.

ثمة غموض وحيرة غير متعمدين في رجل، أفضلُ من تصريح يُعرّي هيبة رجولته.. نعم.. نعم.. لكم تناسبه نعمه هذه التي لم يُدلِ بها صدفةً، بل رددها أكثر من مرة مفاخراً بها مسمعي.

نعم، لكم تناسب تميزه تلك النعم.

www.aljsad.net

(١٧)

لربما كان لزاماً عليّ في البدء أن أرتدي مسوح العاشقين، ثم أركن إلى يأسي وأصيح مُحوقِلاً.. ثم بعد أن أكتشف أنني في الحقيقة المعشوق لا العاشق، أمزق عني ثياب غفلتي وأهوي على ركبتي، وأهلل مكبراً.

أنا الرجل الذي صرت أشك في ملامح وجهي بعد أن رسمتني امرأة كما تشاء، لتعشقني بالطريقة التي تبغيها هي.. لتُشبعني، غروراً وفخراً بحبها لي.. أنا المعشوق، المغرور، الفخور، العاجز، الغافل، التائه، المغرَّر به، المنشطر قلبه إلى نصفين.. لعنتُ روحي مراراً بعد أن اكتشفتُ حبها.

هذه الراكدة، ما لها لم ترشدني إلى مَن اقتربت مني بحبها بالقدر الذي كان يوجب جعلي أفهم وأنتبه..؟

أليس الحب مثل قرابة الدم؟ نميّزه حتى إن لم نكن نعرف من يكون.. مثلما يميّز والد ابناً تغيرت ملامحه بعد غياب سنين..!

www.aljsad.net

أليس الحب مثل أمي التي تشعر بي إذا ما ألمّ بي خطب على الرغم من بعدها؟!

لماذا إذاً تيهتني بوصلة روحي؟ بل لماذا ما تزال تفعل ذلك بي حتى بعد أن تعرفتُ إلى حبّها، فأجدني مؤكداً تارة ثم مشككاً تارةً أخرى.

أعيد قراءة السطور التي تصفني بها، مستغرباً أنني قد ترجمتُ نفسي ثم انتقلتُ عني ببساطة متناهية.. لذلك أجدني أقفز بين الحين والآخر من مقعدي، وأهرع إلى المرآة لأتأكد بنفسي من أن الذي على الورق هو أنا فأكتشف بسرعة فروقاً عديدة.. عيناي ليستا سوداوين كما تصفهما.. إنهما بنّيتان غامقتان فحسب.. وشفتي لم أنتبه من قبل أنها تنحرف حين أتكلم أو أبتسم، فكيف رأت هدى فيّ ما لم أره في نفسي.

حاولتُ أن أبتسم، علّ ابتسامتي تبتسم لنفسها، ثم تكلمتُ علّ كلامي يكلم ذاته. لكن شيئاً من هذا لم يحدث..! أمرر كفي في شعري، وأقلّب وجهي جيداً، مدققاً بخطوطه وتفاصيله، أحاول إيجاد رابط بيني وبين ذاك الذي تصفه هدى بهذا الإسهاب.. وحالما أستسلم كنت أعدّل ياقة قميصي

وأمضي لألقي نفسي في أحضان زوجتي.. معالجاً امرأة بامرأة.

قرأت مرة دراسة تؤكد أن الرجال يقعون في الحب أكثر وأسرع من النساء. وصدّقتُ ذلك بسرعة، عن سابق تجربة لا عن مماطلة ومحاباة جنسية فارغة. بل يمكنني أن أضيف إلى

www.aljsad.net

ذلك بأننا كرجال لسنا كما تتوقعنا النساء.. أجلاف على شاكلة أجسادنا الخشنة، بالإضافة إلى أصواتنا الغليظة وسحناتنا القوية.. ساذجة من تعتقد ذلك. ربما نستمع إلى الغناء ونقرأ الشعر أقل منهن.. إلا أننا نستمع بشغف أكبر ونقرأ بتمعنٍ أكثر..! أما النساء فإنهن يستمعن إلى الغناء ليرقّصن أجسادهن، ويقرأن الشعر متمنيات أن يُكتب مثله لهن.

أكاد أجنّ من أنانيتهن..!! أقول على وجه الإنصاف! أنانية بعضهن.

كنتُ دائماً أتساءل، هل توجد على وجه الأرض امرأة تحب رجلاً لا تبغي من ورائه غرضاً.. ولا سيّما الحب الذي شوّهن سمُعته باستغلالهن إياه منذ الأزل.. يردن منك لقباً يتمسّحن به باسم الحب.. ويردن منك سكناً يؤويهن باسمه.. ويردن منك أن تزرع فيهن أطفالاً باسمه.. ويردن مستقبلاً مضموناً باسمه! كنتُ أتساءل بحيرة شديدة، أما على وجه البسيطة مِن امرأة تحب رجلاً لأنها تحبه وحسب؟ هل من امرأة تخيط ثياب حبٍ لمستقبلٍ غير مُدرَك الملامح والمقاسات، أم أن المرأة لا تُقدم على الحب إلا بعد أن تضمنه تماماً؟!

أقسم بأني لم أكن لأحلم بامرأة كهذه، وإنما أتساءل إن كانت موجودة ليس إلا.

المثير هو أنني صرتُ أكثر شوقاً اليوم لأعرف ما تريده هدى مني. فكرتُ في لقاءٍ جديد، لكنني وجدتُ نفسي أتهيّبه. فقرّرت أن أبعث برسالة أسألها فيها عن عدد الفصول المتبقية.

www.aljsad.net

كانت نبرتي حازمة وأنا أعيد قراءة السطور قبل أن أبعث بالرسالة إليها. ولا أدري إن كانت قد استقبلت الرسالة بالحزم الذي طبعته بها. . لأنها لم ترد مباشرة. . كما أن هاتفها ظل مغلقاً.

بعد يومين انبثقتْ من الماسنجر. . كتبت إليّ دون أن تحييني:

ـ هل سئِمت؟

ـ فكتبتُ: لا. . غير أنني لم أعد أفهم.

ـ ما الذي لا تفهمه؟

ـ ما الذي تبغينه؟

لم تجب، ولعلها تأخرت بالرد فحسب. . كتبتُ مغتاظاً:

ـ لماذا تكتبين إذاً؟

ثم دون أن أنتظر إجابة، كتبتُ:

ـ ولِم تعلنين نفسك الآن فقط؟

وأعقبتُ ذلك كاتباً:

ـ أتيتِ لتسببي ألماً، وتؤجّجي حسرة عليكِ. . !

كتبتْ:

ـ عليَّ أن أذهب.

ـ انتظري.

ـ لا تقلق، سأكلمك.

ولبثت دون أن تكلمني بضعة أيام، ربما لم تتعدَ الأسبوع،

www.aljsad.net

لكنني وجدتها طويلة، ولا سيما أنها لم تكن ترد على مكالماتي.

أما أنا فلم أقوَ خلال تلك الأيام على ترجمة حرف واحد.. وسخطتُ عليها وعلى روايتها وعلى حظي، الذي كدتُ أعود لأؤمن به، لأنه أوقعني فيها.

أخيراً أرسلت إليّ رسالة ألكترونية طويلة، جاء من ضمنها:

« .....

للحب أوجه عديدة، وللبغض وجه واحد.

مثيرون للشفقة أولئك الذين يختارون البغض لينطلقوا إلى العالم عبره.. فهو لون قاتم وكئيب، لا يوحي بديناميكية ما.

حين أحببتك، تعلمتُ كيف أشكّل يومي بأصابعي، وأصنع منه ما أشاء له أن يكون.

وحين كنتُ أنفر من أخي عماد، لم أتعلم سوى أن أنفر من أخي عماد.

عشقتك بالقوة التي يعشق الرجال بها النساء، لا بالانكسارة التي تعشق النساء بها الرجال.

ولأن حبي لك علّمني كيف أجعل من أمانيّ استثنائية، فإني قد تمنيتُ لو أني حقاً رجل لأغزوك حباً جامحاً، يهتز له جسدك وروحك معاً. تمنيتُ لو أنك حقاً أنثى لكي لا تملك إلا أن تقابل حبي بحب.

تمنيتُ لو أننا أي شيء.. شجرتان، حيوانان، رجلان، امرأتان.. أي شيء، في أي حالة لا ترتعد لها فرائص الكون،

www.aljsad.net

فيحاول جاهداً النيل منها.

تمنيتُ أن أكون رجلاً، وتبقي على ذكورتك، فأصبح صديقك.

تمنيتُ أن تكون أنثى، وأبقي على أنوثتي، فتصبح صديقتي.

تمنيتك أخي، لتكون بقربي.. أكلمك وقتما أشاء، ويقدّر لي أن أراقبك دونما خوف.

وحسدت كل من وُصل بك دون أن يختار ذلك.. ولم أحسد زوجتك..!

للنساء فلسفة فاسدة تقضي بامتلاك الرجال.. وأنا صدّقت بيني وبين نفسي بأنها من أولئك اللواتي يضْفِرن رجالهن حول أصابعهن.. وركنتُ إلى تصديقي هذا، لكي أعفي ضميري من التفكير في زوجتك.

لأنني أحبك جداً سيدي، لم أرد أن أملكك.. ولن أفعل.

ليس لأنني لا أقدر، بل لأنني لا أريد.. ليس لأنني أنفر من فكرة أن يكون رجلي مملوكاً لأحد، ـ إذا ما أغفلنا أنك بالفعل مملوك لامرأة أخرى ـ بل لأنني لا أشبع من حبك.. لا أريدك أن تكون لي، فأنا يحلو لي كثيراً أن تكونَ لَك.

ثم إنني تعوّدتُ أن أبارك جسدك كل يوم.. وقد علّمني هذا أن أرتق شهوتي الممزقة.

ليبارك الله عينيك.. وشفتيك، ونحرك، وكفّيك.. ليباركك الله وليُبقِ روحك ذخراً لقلبي.

www.aljsad.net

نعم. . هكذا علّمني حبك أن أكون. . استثنائية. حتى وأنا أتخير مواطن قوتي، لأغذّيها وأعيش بها.

فكيف بعد هذا كله تسألني لماذا أكتب. . وما الذي أريده منك؟!

. . . .

علّمني حبك، يا آدمي وحوّائي، أن الكون يحرّكه الحب. . وإذا اخترنا أن نحرّك الكون بغير الحب فسنفعل ذلك بكل ما هو عكسه.

ولذا، علّمني حبك أيها العزيز، أن الحب ليس رجلاً وامرأة فقط. . !

بل الحب رجل وامرأة وتفاحة.

والتفاحة تحمل الكثير من المعاني. . فهي الطموح، والشغف، والغريزة، والرقة، واللين. .

كما أنها، المثال على الإثم الأول في تأريخ البشرية، إنها اللون القاني، لون الدم والحروب.

إنها الإغواء والعصيان متجسدين في ثمرة.

علاقة ثلاثية متشعبة التفاصيل هذه. . علاقة الرجل والمرأة والتفاحة. . لو اخترنا، ثم عرفنا كيف نقيمها بإحسان، تمثّل الحب لنا صافياً بعظيم مزاياه. . أما لو اخترنا أن نستخدمها لغايات سيئة، لأفلحنا في ذلك، لكن نادمين بعد أثر.

www.aljsad.net

أنا تعلمتُ كيف أربّي تفاحتي جيداً، ليكون طَلْعُها حباً عظيم الصفات مثل حبك.

لم أهتمّ بأمر تافهٍ، كأن لا تكون على دراية بوجودي في هذه الدنيا.. لا، لم يهمني ذلك قط.

لو كنتُ ركنتُ نفسي قرب تلك الحقيقة، ألعق خيبتي، لما صرت المرأة التي أفخر أن أكونها اليوم.

أقسم بحبك وتفاحتي، أني لم أكن لأسير قُدماً في هذه الدنيا، متغلبة على غفلتي وضعفي، لولاكما.

.........»

www.aljsad.net

(١٨)

بكل بساطة. . عادت زينة إلى عماد. . كأن لم تبكِ وهي تخبرني بأن علاقتهما انتهت.

عادت إليه أكثر قوة، وأعز مكانة. فهذه المرة انتقل عماد إلى شقته الخاصة في «أورستيد» وترك تلك الأخرى ـ بمن فيها ـ إلى غير رجعة.

استقبلتُ الخبر بهدوء. ورغم أنه ضايقني فإني لم أكن على وشك أن أقتل أحداً.

صارت تخيفني ردّات فعلي، لأني ما عدتُ أقدر على التنبؤ بها. . فأثور لتوافه الأمور ولا أبالي لعظام المصائب.

بل إنني هذه المرة فكرتُ في أن أتقبّل علاقة زينة بأخي، فصرتُ أجبر نفسي على الترحيب بها أكثر ولا أستقبل حديثها عنه بذلك البرود المعتاد مني. . بل أستمع بصبر إلى التفاصيل التي أصبحت زينة تمدني بها أكثر من ذي قبل.

لكأنّ المرأة تتفتّق عن عهرٍ مكبوت حالما تقف أمام حبيب!

www.aljsad.net

لكأن عزّتها أمام غيره تستحيل بين يديه ذلاً، واستنفارها رقة، وطهرها شبقاً لا يكبحه إلاّ هو!

من أحاديث زينة استنتجت هذا.. من أحاديثها التي صارت التفاصيل تغلب عليها، استشففتُ أن صمام أمان ديمومة طهارة الأنوثة هو ألا نعشق نحن النساء.. ألا نقع في حب عارم يفقدنا السيطرة.

كذبتْ من تدّعي أن الأمر ليس بيدها.. فالمرأة تبحث عن حب كبير في كل رجل يقترب.

ما من رجل يمر في حياتها مروراً عابراً إلا وتتخيل نفسها له، تاركة عنها مسبقاً حلم امتلاك الرجل فهي تشغف في البحث عمّن تخضع أنوثتها لذكورته.

كل اللواتي أعرف من الفتيات ولِدن وغريزة العيش من أجل الرجل في دمائهن.. البحث الدائم في متاهة الذكورة يرهقهن، لكنهن لا يحاولن الإفلات.. بل يمعنَّ في التَيه.

قليلات هن النساء اللواتي يعشن في هذه الدنيا من دون أن يشكّل الرجل هاجساً لهن.. من دون أن يكون قضيتهن صعبة الربح في الحياة.

ولهذا وجدتني أشكر نفسي على جبنها.. هذه الرعديدة الضعيفة، لا تحتمل مرور رجل ببراءة تامة.. وأنا يحزنني أن أفقد براءتي، تماماً مثلما سيحزنني فراق جسدي حين أموت وأغدو روحاً فقط.

www.aljsad.net

لي وفاء فريد مع كل ما يشكّل مني هذه الفتاة، حمدته هو أيضاً دون أن يصيبني غرور ما، فلا أظن أن لي فخراً في تجميعي وتلصيقي معاً لأنتهي إلى ما أنا عليه.

أما نهمي لمعرفة ما يمكن أن يحدث بين المرأة والرجل فقد جاء متأخراً. . الثامنة عشرة تُعدّ سنّاً متقدمة في ما يخصّ اهتماماً أساسياً في ظل الاحتقان الجنسي المتأصل في مجتمع دنماركي، كالذي أنطوي تحت جناح قيمه وممارساته.

فجأةً صارت التفاصيل تلفتني بعد أن كانت تزعجني. . وربما أبالغ إذا أسميته اهتماماً لأن الأمر لم يتعدَّ كوني أصبحت أسمح لمثل هذا الحديث باتخاذ طريقه إلى أذني ومن ثم خيالي. . وربما تفكيري.

لم يدخل الأمر حيّز التنفيذ أو حتى التصريح بالكلام من قبِلي. لم يتعدَّ كوني الآن مستمعة تتفكر، متحملة المسؤولية كاملة عن أفكاري. . فالأفكار بحد ذاتها لا تجعل من الإنسان شخصاً أفضل أو أسوأ، وحدي إما أُسيئها أو أُحسنُها.

التفاصيل وزينة باتا عنصرين حميمين لإذكاء جذوة خيالي. . التفاصيل وزينة حالتان قائمتان بذاتهما وحتمية التقائهما وحدها قادرة على إضفاء سحر التصريح والغموض معاً. . سحر صبر الترقب واستعجال المبادرة.

نظرات، لمسات، قبلات. . كل هذه ضروب من وهم الخيال. هذه لا تعدو أن تكون مظاهر. . ما وراء هذه المظاهر من أفكار، وإقبال وإدبار، هي الحقيقة بعينها.

www.aljsad.net

وهنا ثمة ما يحيّرني.. أتراها الخطايا تنعت بخطايا وفقاً لما تتركه من أثر.. أم أنها مولودة خلقت مشوّهة أساساً؟!

***

ما أسرع ما انتهت السنة الدراسية الثانية تخرّج في نهايتها رضا ليعفيني من رؤية سحنته الجامدة كل يوم.. بتخرّجه قطعتُ علاقتي به. هكذا ببساطة. لم أعد أرد على مكالماته أو رسائله.. وحين ألح شرحتُ له بهدوء أني لا أبغي رفقته. عاد يُلحّ.. ثم خفّ إلحاحه حتى توقف تماماً، وصرتُ لا أراه إلا في أوقات متباعدة في الحي، فيحيّيني برأسه بينما أكتفي أنا بالرد بإيماءة صغيرة.. أو حتى أتجاهله تماماً، فلا أعود أشعر به. صدقاً لا أشعر به.. لأنه كلمني مرة بعد ذلك بثلاث سنوات، وأخبرني بأنه كان أحياناً يصادفني في مركز مدينتنا، في السوبر ماركت أو ما شابه، وكان يسلّم عليّ فأنظر إليه كأنني لا أراه، ولا أردّ السلام.. أقسمتُ له بأنني لا أذكر أني رأيته في مركز مدينتنا مطلقاً.

كان قد بقي لي ولزينة سنة واحدة فقط لنتخرج.

وسرعان ما بدأت تلك الأخيرة، وصارت تنهب عُباب الوقت بي فلا أكاد ألحق بها.

انتهى الخريف بأقل خسائر ممكنة وهو الفصل الذي أذوي معه كل عام، لأعود وأنتعش حالما يحل الشتاء، مؤجج العواطف وساردها. ليله الطويل ونهاره الليلي أحبهما.. بل إن نفسي التي

www.aljsad.net

تتعبني عادة كانت تخفّ وتتجلّى أمامي نقية من شوائبها ما أن يصدمني الشتاء بشحوبه وزينةِ أعياده.

الشتاء الدنماركي مفتول العضلات، ذو شخصية نافذة وقوية مثل رجل «فايكنغ» موغل في قدمه.. الشتاء أقوى الفصول على الإطلاق، يقتحم مدينتنا ليفرض حضوره الآسر.

تثير سلطة الشتاء إعجابي لأقصاه، ولهذا صار أحياناً يخنقني الصيف الذي يجيء معلولاً وهو يجرّ قدميه جرّاً، متسللاً إلينا بخطى تتعثر من سنة لأخرى، فنقضي لتعثره المفرط أعواماً دونما صيفٍ يذكر.

اكتملت حُلّة كوبنهاغن في ذلك الشتاء.. أعياد تقترب، ثلج يغطي المدينة كلها ويعسّر مهمة السيارات، ورائحة القرفة في كل شارع، وزينةٌ تتحلّى بها المدينة لتتركني أنا المسلمة التي لا تحتفل عملياً بالعيد، أعيش في أجواء مُترعة بشغف وجداني يشبع روحي حد التخمة.

ذات صباحٍ في نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، وفيما الدنيا ما تزال مظلمة وتمطر ثلجاً كثيفاً، كنتُ في طريقي إلى المدرسة. متدثرة بمعطفٍ كحليّ يصل حتى ركبتي ويجاهد في تدفئة نصفي الأعلى، بينما لم يفلح البنطلون الجينز بتدفئة النصف السفلي إلاّ لماماً.. قدماي تجمّدتا، ورغم حذائي المعدّ خصّيصى لجوٍ كهذا، بدأتُ تدريجاً أفقد الشعور بهما وأنا أغمسهما في الثلج المتراكم في الساحة الكبيرة التي أجتازها كي أصل إلى البوابة الرئيسية للمدرسة.

www.aljsad.net

أخيراً دلفتُ إلى حيث الدفء، ووقفتُ أنفض عني ما علق بي من ثلج. . خلعتُ قُفازيّ السوداوين ومسحتُ بكفي الجافة على وجهي الرطب. لم أكن يومها أحمل مظلة. . نسيتها.

شعرت فوراً بمن ينقر كتفي نقراتٍ واثقة، ودون أن ألتفت عرفت أنها زينة:

- God morgen skat

«صباح الخير، حبيبتي»

رددتُ عليها باقتضاب وأنا أفرك كفيّ وأضرب بحذائي الأرض كي يسقط الثلج عنه:

- Morgen

ودون مقدّمات، أخبرتني أنها قد علمت بأن صاحبي قد خطب لنفسه فتاة. قالت ذلك بطريقة بدت فيها كأنها حذرة من الخبر، مشفقة عليّ منه. لكن فضولها لرؤية ردة فعلي لم يمهلها التروّي في سرده. . تعجبتُ ابتداءً من نبرتها الحذرة ونظرتها المشفقة، واستقبلتُ الخبر ببرودٍ أدهشها. . بل إنني ما لبثت أن فرحت فرحة هادئة، كان من مظاهرها مرح ورقة ظهرا عليّ يومها، وحمرة خفيفة صبغت وجنتيّ. . كأنني أنا التي خُطِبت وهذه الحمرة ما هي إلاّ خفرُ عروس تلقت نبأ ارتباطها.

كان ذلك النهار طويلاً يمتد لثماني حصص. . في آخرها كانت حصة الرياضيات حيث دخلتُ إلى الصف قبل مجيء الأستاذ بدقائق لأجد زينة تجلس في المقدمة كعادتها. . كانت

www.aljsad.net

حصة اللغة الألمانية التي تخصّني قد فرّقتنا بما أن زينة اختارت لنفسها حصصاً أخرى.

ما إن رأتني حتى أفسحت مجالاً لي بجانبها ثم همستْ وابتسامة لطيفة تشق وجهها:

ـ ها.. شكو ماكو؟

أجبتُ بحيرة وأنا أبتسم:

ـ ماكو شي.

عادت تهمس بالعربية:

ـ منزعجة؟

كنت على وشك أن أتلفظ بـ«أبداً»، لكنني وجدتها لفظة مبالغاً فيها:

ـ كلا.

ابتعدتْ بجسدها قليلاً ونظرت إليَّ كأنها تفترض بي الكذب رداً على سؤالها:

ـ حقاً لا سبب يدعو لذلك، فما من شيء حدث من الأساس لتأسفي على ضياعه.

كرهتُ كلامها، إذ بدت لي ساخرة مني، ورددت مكرهة:

ـ نعم.

مدت يدها إلى حقيبتها تُخرج كتبها:

ـ لبثتِ جامدة دون حراك!

لم أجد شيئاً لأقوله فغمغمتُ:

www.aljsad.net

ـ غير مهم.

فتحتْ فمها لتصدر صوتاً، فقاطعتُه بسرعة بعربية مخلوطة بدنماركية:

ـ لا يهمني.. فليتزوج أو ليذهب إلى الجحيم.

ثم نظرتُ أمامي وهمستُ لها جادّة:

ـ أعتقد أن الزواج يليق به حتماً.

أعتقتني زينة لدخول الأستاذ إلى الصف.. سمّرتْ بصرها عليه، فيما شردتُ عن الدرس أفكر في الذي قلته تواً.. اكتشفتُ أني أكذب في ادّعائي بأن الزواج يليق به. وراح خيالي يحاول بالفعل رسم صورته مع فتاة ما، أي فتاة، لا يهم من تكون. ودهشت حين وجدتُ صعوبةً في تخيل ذلك.. الأصح هو أن الزواج لا يليق به أبداً..!

لم يخلق هذا الرجل ليكون بين يدي مجرد امرأة.. لم يوجد في الدنيا لينحدر إلى هذا المستوى الحسي.

كيف يمكنه إخضاع ذاته لهذه المنزلة الوضيعة؟ كيف له أن يتنازل ببساطة عن مكانته!

يتزوج ؟!.. ويصبح مثل غيره من الرجال.. أولئك العاديين الذين يتزوجون؟!

أُشفق عليه من ضياع تفُوقه بهذه الشراكة غير المتكافئة.

كيف تراه سيتزاوج مع شخص آخر ومختلف..! امرأة تدسّ

www.aljsad.net

أنف أنوثتها في حياته، في رجولته.. كيف ستتزاوج أيامه وأيامها، أفكاره وأفكارها، تفاصيله وتفاصيلها؟

عجباً، سيتزوج!!

من السخرية أنني قبل أسبوعين فقط من اليوم، رفعتُ إصبعي أطلب إذناً من أستاذي لأتكلم.

وحين أشار لي برأسه، بادرته بنبرة مترددة:

ـ كيف تتزاوج الآلهة؟!

كان الأستاذ يجلس على طاولته عاقداً ذراعيه على صدره، يشرح الدرس الذي كان يومها عن آلهة الإغريق.. مزاياها وصفاتها.. وحين تطرق إلى زوجة «زيوس»، اكتشفت لدهشتي ـ أنا التي لم أحضّر للدرس ـ أن لزيوس زوجة.. وعلى الفور شكّكتُ في عظمته التي كدتُ أؤمنُ بها قبل قليل.

زيوس هذا العظيم يتزوج.. تباً لعظمته إذن..!

ـ «هيرا» كانت خليلة زيوس.. رفيقته.. لا أدري إن كان مناسباً نعتها بزوجة.

هكذا رد الأستاذ، فقلتُ:

ـ هذا أفظع. كيف للآلهة أن تهبط إلى مستوى العلاقات البشرية هكذا..؟! ناهيك عن كونها غير شرعية.

ـ لعل الآلهة الإغريقية ليست بالعظمة التي تظنينها.

رد الأستاذ مازحاً، فزادت حيرتي.

www.aljsad.net

قلتُ وأنا أتحاشى النظر في عينيه، علامة على أني لا أنوي جدالاً:

ـ أنا لا أظن فيها أمراً غريباً على طبيعتها.

أطلق الأستاذ ذراعيه من انعقادهما، ثم وضع كفيه على ركبتيه، كأنه يُقبِلُ عليّ:

ـ إنك تضفين عليها قدسيةً إسلامية.. لا تفعلي.

تجاهلتُ قوله، لمعرفتي بأن ذلك لم يكن في حساباتي:

ـ كيف يرعى زيوس شوؤن الناس ويتابع عشرات البقية من الآلهة، في الوقت الذي يتشاجر فيه مع خليلته حين يعود إلى المنزل؟! تلك منزلة خفيضة، يتحاشى الوقوع فيها بنو البشر، فكيف بإله؟!

ضحك أستاذي ضحكة صغيرة وقال محاججاً:

ـ لكنه يفعل أموراً كثيرة لا تليق بألوهيته وفق مفهومك.

كان يبدو أنه ما يزال مصرّاً على أني أستقي فكرتي انطلاقاً من قِيَم إسلامية، ولعل لا شعوري قد ألهمني ذلك حقاً. لكنني في الحقيقة لم أهتم بمصدري، وإنما سايرتُ إحساسي فحسب.

ـ أكانت التي تزوّجها زيوس إلهةً قبل أن يتزوجها، أم أنه رفعها إلى مرتبة الألوهية بزواجه منها؟

قال الأستاذ موجهاً كلامه إلى بقية الطلاب، وهو يقفز من على طاولته:

www.aljsad.net

ـ ما الذي نعرفه عن هيرا . . ؟

ردت واحدة من نوابغ الصف بسرعة :

ـ هيرا هي الأخت الكبرى لزيوس . . وإلهة النساء والزواج .

هنا مال الأستاذ عليَّ وقال هامساً بصوت لا يسمعه إلا الجالس بجانبي :

ـ في المرة القادمة حضّري للدرس .

نظرتُ إليه بحيرة ممزوجة بحنق . . بينما عاد هو يبتسم ابتسامة أخيرة ثم أكمل الدرس بحيوية لم يبتدئه بها .

. . ودون أن أصرّح لأحد طفقت أبحث عن السبب الذي يدعو الآلهة للزواج . . بحثتُ بنفسي عبر الإنترنت . . قلّبتُ صفحات كتبٍ في مكتبة المدرسة ، ثم في مكتبة مدينتنا العمومية ، لكن دون أن أجد إجابة شافية . في النهاية خرجتُ بمعلومات لا بأس بها عن آلهة الإغريق ، كنتُ أعتبر نفسي في غنى عنها . .

لم أكن حينها أدري أن الإجابة ستأتيني سريعة جداً . . وعلى الرغم من أنها أخذت شكل الإجابة ، فقد حيّرتني أكثر من ذي قبل .

* * *

احتفالاً بخطبته أو زواجه . أو أياً كان الحدث . . كان لا بد أن أراه في حُلّته الجديدة . . بعد أن تربّعت امرأة فوق جبهته ، ليحملها أينما ذهب .

www.aljsad.net

كالعادة كانت همزة وصلي به هي زينة. لكن هذه المرة لم تكن زينة تقصد أن تصِلني به.. كانت تثرثر معي وذكرت في حديثها أن أخويها سيقضيان رأس السنة مع عدد من أصدقائهما في ساحة البلدية. أو بالأحرى في بولفارد «هانس كريستيان أندرسن»، بجانب السور الذي يحاذي حدائق تيفولي.. المكان المفضل للجالية العراقية ليلة رأس السنة.. ولا أعرف كيف تواعدت الجالية على ذلك، لأن وجودهم في المكان ذاته ليس صدفة بالطبع، كما أنه لم يبدُ منظماً.

ووجدتُ نفسي أسألها:

ـ هل تظنين أنه سيكون معهم؟

ـ ليس عندي أدنى فكرة.

وكرّرتُ على مسامعها سؤالاً كنتُ قد سألتها إياه مراراً:

ـ هل هو صديق لأخيكِ محمد؟

وأجابتني الجواب ذاته الذي أعرف، دون أن تمل:

ـ لا أدري..

ـ كيف لا تدرين؟

فاحتدّ صوتها:

ـ لا أدري إن كان صديقه.

فكرتُ قليلاً ثم قلتُ:

ـ ما رأيك أن نذهب نحن أيضاً.. نذهبُ وحدنا بالطبع.

www.aljsad.net

ـ لا مانع عندي.

استعجلتُ الوقت، فأقبلت ليلة رأس السنة بسرعة ملبية دعوتي.. تلك الليلة.. وقفت أمام المرآة أختار ثيابي.. فهالني أني كنت أكاد أغرق في أكثرها.

منذ مدة لم أتفحص نفسي في المرآة فلم أنتبه للتغييرات التي حدثت لجسدي. لقد هزلت هزالاً شديداً.. وها جسدي لا ينبئ بأنه جسد امرأة، ولم يبرح الطفولة بعد كما فعلت أجساد بقية الفتيات. ما يزال ضئيلاً وغير مثير. وذراعاي تفتقران إلى شيء من اللحم.. بل إن جسدي كله يفتقر إلى اللحم.. غير أن ذراعيّ بالذات بدتا مخيفتين، خصوصاً وأنا أرتدي بلوزة سوداء ضاعفت من شكلهما القبيح الذي روّعني.

يا إلهي ماذا أفعل لكي أسمن قليلاً.. كيلوين اثنين فقط يا رب!

بهذا الجسد من ذا يصدّق أني في الثامنة عشرة، وأنا أبدو مثل طفلة في العاشرة ممسوحة الصدر والمؤخرة. لأول مرة يُقلق جسدي أنوثتي.. هل يا ترى سيرضى به رجل وهو على هذه الشاكلة.. صحيح أن أمر امتلاك رجل لجسدي لا يهمني كثيراً بل ولا يغريني، لكن يؤلمني ألا أثير رغبة على الإطلاق لأمرٍ لا ذنب لي فيه.. أنا فتاة، بل امرأة، ولست طفلة!

دقّقت في وجهي واسترحت قليلاً لملامحي اللطيفة، رغم علمي بأنها لا تعوّض عن الجسد الذي أفتقد. إنني لا أبغي جسداً جميلاً لأغري به أحداً، فالرجال كانوا دوماً في عُرفي مخلوقات

www.aljsad.net

لا أحفل بها. . ومرور رجلٍ بجانبي لا يثير فيَّ شيئاً مثلما يفعله مروره بغيري من الفتيات.

لا أغيّر من مشيتي، لا أرقّق صوتي، لا أحاول أن أُكسِب نظرتي بريقاً ووجهي إشراقاً. وشعوري في حضرة نظيري من الجنس الآخر هو ـ ببساطة ـ اللا شعور. . مثلما هو شعوري حين أدوس نملة وأنا مسترسلة في مسيري. . لا أشعر بها. . لا أشعر به.

لكن جسداً أكثر أنوثة من هذا سيجعلني أرضى عن نفسي حتماً. . هذا ما أظن، إذ لعلّي أحنّ وأرضى إذا اكتسب جسدي بقدرة قادر لأي زيادات أنثوية.

شردت وأنا أنظر في المرآة أفكر في طريقة ما يمكنني من خلالها أن أبدو جذابة الليلة. وبدأتُ أنفّذ. . ارتديت حمّالة صدر محشوّة بالقطن ثم قميصين داخليين ارتديت فوقهما بلوزة سميكة، وأخيراً بلوزة حليبية اللون برقبة ارتفعت وغطت رقبتي حتى ذقني . ولم أكن أنظر إلى نفسي وأنا أرتدي كل هذه الطبقات من الثياب، بل عمدت إلى ارتداء بنطال من المطاط أتبعته ببنطال من الجينز من ماركة شهيرة وغالية كانت أمي قد اشترته لي قبل شهرين لكنني، وعلى سبيل العناد، لم ألبسه منذ ذلك الحين.

بدا البنطال أجملَ عليّ بعد أن استقر تماماً فوق بنطالي المطاط فأظهر امتلاءً ولو بسيطاً في الفخذين.

أخيراً تجرّأتُ رافعة بصري إلى نفسي في المرآة، لأجد

www.aljsad.net

شكلاً مضحكاً.. نصفي العلوي وقد انتفخ فجأة، بينما ساقاي ما زالتا على نحولهما كأنني كرة تقف على عودي ثقاب.

ضحكتُ من نفسي. ثم بدأتُ أنزع عني كل ما ارتديته.. وأبقيت على حمّالة الصدر وقميص داخلي واحد بغية أن يقيني البرد.. ثم عدتُ أضع البلوزة الحليبية اللون.

حينما نظرتُ في المرآة هذه المرة لم أبدُ فيها بجاذبية كبيرة، لكنني بدوتُ أنا.. ولوهلة أحببتُ أن أعود لأكون أنا، بعد أن نزعتُ عني ما كان أشبه بلباس تنكري.

أخيراً قررتُ أن أضع قدميّ في حذاء بكعب عالٍ.. كان عالياً جداً، ورغم عدم تعودي مثل هذه الأحذية وعدم ارتياحي لها، تغيّر شكلي كلياً بعد أن ارتفعتُ بنفسي عن الأرض.

أهكذا تبدو الدنيا من علٍ؟ تبدو أجمل بكثير من هذا المستوى.. وأشفقتُ أكثر من قصري وأنا أكتشف أن الدنيا أكثر كمالاً من فوق.. وتساءلت كيف يراها عماد إذاً.. أتراه يراها أكثر كمالاً؟

كانت زينةُ قد اقترحتْ أن تمرّ هي عليَّ لتقلّني بسيارة والدتها.. وعندما دقت الباب كنتُ أربط إيشارباً حول رأسي بعد أن وضعتُ لمسات قليلة من الماكياج فبرزت عيناي السوداوان بوضوح في وجهي.. كأني لا شيء سوى هاتين العينين.

دخلتْ زينة وهي تتفحصني بنظرها قائلة:

ـ شوية سمنانة مو..؟!

www.aljsad.net

ابتسمت ولم أجبها.. ثم اكتملت ثورة أناقتي بمعطف فاخر، هو أيضاً اشترته أمي لي ولم أكن قد ارتديته من قبل، لم يغرق جسدي فيه كما يحدث غالباً بل بدا مشدوداً بأناقة حول خصري الضئيل.

عندما اتخذتُ مقعدي إلى جانبها في السيارة سألتها:

ـ كيف سنجدهم والمكان مزدحم؟

قالت وهي تركّز عينيها على الطريق:

ـ وأين سيختفون..! العراقيون لهم قدرة مغناطيسية على جذب بعضهم بعضاً.. فاطمئني.

ران بيننا صمت.. ثم ترنّمت زينة قليلاً مع «أصالة نصري» التي انبعث صوتها من مسجّل السيارة.

لو ما رجعتش لي بقلبك تاني هنا.

لو محلفتش إن الثانية في بعدي سنة.

لو ما آمنتش إن الجنة في حضني أنا.

ما أبقاش أنا.

استمرت أصالة تهدد، وزينة توافقها الرأي وتتوعد.. وأنا لستُ أنا، وأنا جالسة منمقة جداً وأنيقة جداً على غير عادتي، وراحتي.. وكعبي العالي يرتفع بساقيّ عن الأرض في حركة كاذبة غير صادقة المعالم.

قطعت زينة ترنُّمها فجأة قائلة كأننا ما زلنا في حديث:

ـ بالله لا تفسدي علينا الليلة.. دعينا نمرح.

www.aljsad.net

نمرح! ردّدتها زينة بلكنتها الكوبنهاغنية التي تتعمد أن تشدد فيها على الأحرف وهي تنطق بها، فتعتصر الحرف بين شفتيها حتى يفلت منهما سالماً في اللحظة الأخيرة قبل أن يُقتل.

ولأن المتحدث زينة فلا بدّ للمبالغة من نصيب عندها.. فحين تلفظت بـ«نمرح» شعرتُ وكأنها تلفظ كلمة سويدية من شدة ما اختل توازن الأحرف بعد أن أعتقتها أخيراً لتطلقها من شفتيها الممتلئتين.

لكن لم يكن هذا هو سبب توقفي أمام «نمرح» هذه.. دنماركياً تعني نمرح: سهراً إلى الفجر، سكراً، مُتعاً عديدة، عربدةً، جنساً.. وكنت أعلم أن هذه الكلمة الدنماركية لا مرادف لها في أي لغة أخرى، سوى كلمات تقارب ما معناه أن نمرح. كيف سنمرح أنا وزينة يا ترى؟ بمشاهدة الألعاب النارية؟ مثل الأطفال نمرح بمشاهدة الألعاب النارية؟!

أنا لم أتكلف عناء المجيء كي أمرح.. أفضّل استقبال السنة الجديدة التي أفترض مسبقاً أنها لن تحمل الكثير في بيتي، عوضاً عن بهدلة البرد هذه وصخب ليلة ليلاء، وألعاب نارية لا فرق عندي ما إذا كانت تطلق في ساحة البلدية أم في الفسحة التي تقع خلف منزلنا.

إني آتية لأجله.. له وحده أهدي مَقدَمي اليوم.. لا لأنني أتمنى أن أراه فحسب، بل لأرى نفسي أيضاً.. تلك المواربة. ولأعجب للمفاجآت التي تحملها لي غالباً..! ولعلي أريد اختبارها بجعلها أمامه كي أتعرف إلى مفاجأتها الحقة.

www.aljsad.net

شققنا طريقنا بصعوبة. . ولا سيّما بعد أن انعطفنا يميناً إلى بولفارد «هانس كريستيان أندرسن».

وتعجبتُ للسرعة التي استحوذ فيها العراقيون وبعض العرب والأجانب على المكان. . بخلفياتهم المختلفة التي تتضح من طريقة ملبسهم، ولهجاتهم، وأحياناً لغاتهم المتعددة. . كيف لهؤلاء أن يتشاطروا وطناً واحداً.

وخطرت في رأسي فكرة أني لربما كنت لأعيش الغربةَ ذاتها لو عشت في العراق متعدد الثقافات هذا. . ثمة صفة لي في الدنمارك. . بينما هناك. . ماذا سأكون؟

ولعنتُ في سرّي فضولي وانجرافي وراء رغبتي في رؤيته التي أجبرتني على أن آتي ها هنا وألتقي هذا العدد من العراقيين والأجانب. . أنا التي أحبّذ العزلة عن عالم الجالية المنفّر، اقتحمته الليلة من أجله. ورجوتُ الله أن يكون موجوداً. . فلا أكون قد قدمتُ لأتحمل ما سأتحمله من عناء مخالطة الناس، بينما هو يقضي أمسيته في مكان آخر.

عدنا نشق طريقنا بصعوبة أكبر هذه المرة بين السيارات التي اصطفت على جانب بولفارد «أندرسن». . لم نجد مكاناً واضطررنا للتوقف عندما قطعتْ إحدى السيارات طريقها علينا.

أخذتْ زينة تلعن السائق قاطع الطريق، ثم تمادت في غضبها وصارت تطلق بوق السيارة، وتشير له بيدها أن يبتعد.

في خضمّ هذا، رأيته. . واقفاً على الرصيف قريباً مني. . لم

www.aljsad.net

أفاجأ، ولم أرتعش.. وإنما طفقتُ أنظر إليه حتى التفت إليّ كأني ناديته بنظرتي.. التقت عيناه عينيّ فتقلصت قسماته لوهلة كأنه يريد أن يفهم.. مد عنقه بخفة ونقل بصره إلى زينة.. ارتاحت قسماته كأنه فهم أخيراً.. وتقدم من سيارتنا بخطى بطيئة.

لمحته زينة وتبادلت نظرة سريعة معي.. ثم ضحكت ضحكة مدوية وقالت:

ـ شرّفي..!! يبدو أنه لن يكلفنا مهمة البحث عنه.

وقف أمامنا يشير إلينا بيده محاولاً مساعدتنا على إيقاف السيارة بسلام.

عادت قسماته تتقلص وهو يشير بيده اليسرى.. تعالي.. تعالي، كأنه يقول لي بيده.. توقفي.. ثم مد سبّابته ورسم دوائر عدة في الهواء لم أفهم منها ما يريده مني.. كأنه يحيّرني. أدارت زينة عجلة القيادة إلى جهة معاكسة لما يرسمه كأنها هي الأخرى تحار مثلي.. ابتسم مشفقاً وهز رأسه علامة لا.. كعادة الرجال عندما يكتشفون أن النساء لا يُحسنّ قيادة السيارات.. عاد يرسم دوائره في الهواء وهو يردد:

ـ على كيف.. على كيف.

كان صوته يصلني مكتوماً.

عندما استقرت سيارتنا، وبينما كانت زينة تُطفئ المحرّك غمغمتْ:

ـ شقد يتعيقل..!!

www.aljsad.net

«بما معناه، كم هو متعجرف».

ولا أدري ما الذي دعاها لتقول ذلك..!

هبطنا من السيارة وكلمح البصر كان قد اختفى.. اعتصرتني الحيرة وأنا أتلفت أبحث عنه دون فائدة، وخشيتُ أن يكون كل نصيبي منه الليلة هو هذه اللحظات القليلة من خلف زجاج سيارة، وضعتْ زينة كفها في كفي واتجهت بي نحو سور التيفولي، فاستندتُ إليه بملل كأن الدنيا لا تقوم وتقعد أمام عيني.. بينما انشغلتْ هي بهاتفها النقال ترسل رسالة وتستلم أخرى. سألتها بضيق:

ـ من ذا الذي لديه وقت لمخاطبتك الليلة؟

ابتسمت:

ـ عماد.

عدتُ أسأل بلهجة تهكمية:

ـ ما المهمّ الذي تتحدثان عنه الآن؟ هل تجدان ما تقولانه أصلاً؟

قالت كأنها فزعت:

ـ الأصح أن تسألي عما لا نتحدث عنه.

ثم استرسلتْ:

ـ أتعلمين ما هو أكثر ما يضايقني في كل مرة نقرر أنا وعماد إنهاء علاقتنا..؟

نظرتُ إليها بملل فأكملت:

www.aljsad.net

ـ صمت هاتفي! أكره هدوءه بشدة. . انعدام الشغف الذي يحدثه انتظار رسالة أو مكالمة أمر مؤلم. تؤلمني أصابعي حينما لا تطبع ما أقله خمسين رسالة يومياً.

قلتُ وأنا أحاول ألا أتأثر لكلامها:

ـ لو كان الأمر مقتصراً على هذا لَقمت بمهاتفتك وإرسال رسائل لك على مدى الأربع وعشرين ساعة.

خلعت عنها الرقة التي كانت تتكلم بها وهتفتْ في وجهي:

ـ كأني أنتظر أن تكون الرسائل منك !!

لبثنا واقفتين في مكاننا لدقائق، ولدهشتي الشديدة رأيت عماد يتقدم نحونا بقامته الفارعة، وبدا عليه أنه هو أيضاً قد فوجئ بوجودي. . بعد أن حيّانا قال وهو ينظر إلى الأرض:

ـ لم أكن أتوقع أن تكوني هنا.

سألتُ وفي نيّتي تحدّيه إذا ما أبدى اعتراضاً:

ـ ليش، شكو بيها. .؟

ـ كان من الأفضل لو أنك قدمتِ مع أحد من الأسرة.

قال وهو يرفع بصره إليّ.

تكاسلتُ عن التحدي الصريح:

ـ أنت واحد من الأسرة.

أنحى تردده جانباً، وعلا صوته:

ـ الجو هنا غير . .

www.aljsad.net

سيّئ..! ليس صارماً كفاية معي.. فقاطعته:

ـ معك حق.. ليس هذا جوي.. لعله جو زينة على الأغلب.

نظر إليّ نظرة فيها غضب ربما كان هائلاً لأنني تلافيتها بسرعة، على أنه لم يعلق ولم تعلق زينة أيضاً.. أجرى اتصالاً سريعاً بمن كان برفقتهم قائلاً إنه لن يتمكن من مرافقتهم الليلة ولعله يعود في نهاية السهرة.. كرر قول ذلك أكثر من مرة كأنه لا يمكنه أن يكون غيوراً على أخته وفي الوقت ذاته يتخلى عن ليلة لذيذة كهذه. قال بعد أن انتهى:

ـ أنا باقٍ هنا.. سأوصلك بنفسي إلى البيت.

ابتعد عنا خطوتين ليستند بظهره إلى السور وهو يعقد ذراعيه على صدره وفي عينيه انزعاج. وانتحيتُ أنا بزينة جانباً وهمست بغضب:

ـ لماذا أرشدته إلى مكاننا؟

وسّعت عينيها بشدة وهي تهمس:

ـ أنا لم أفعل.. هو الذي وجدنا صدفة.

تكذب.

أحسست بضيق عظيم. لماذا لا تتوقف هذه الألعاب النارية قليلاً.. صخبها يزيد وأنا لم أعد أطيق الأصوات المدوّية التي تصدرها.. أذناي امتلأتا بها حتى أحسستها تفرقع فيّ.

www.aljsad.net

وعماد.. هذا الذي يقف مطلِقاً بصره نحو ساحة البلدية.. هل بقي من أجلي فعلاً؟!

وذاك.. ذاك الذي اختفى.. ألن يعود؟ كأنه أحس أن وجوده لا داعي له في ظل الإثارة التي بدأت عناصرها تكتمل معي.. فانفلتَ من بيننا بهدوء.

عادت أصابع زينة تتحرك بسرعة عجيبة فوق أزرار هاتفها وهي تنظر أمامها مباشرة كأنها ليست بحاجة للنظر إلى نقّالها فيما هي تكتب.. إنها تحفظ موقع الأزرار زراً زراً بسبب إدمانها الدائم كتابة الرسائل، بينما لا يبدي عماد أي تساؤل عمن تخاطب برسائلها.. أنا وحدي كنتُ أفعل.

وفي هذه الأثناء رن هاتفي. في البداية لم أسمعه من شدة الصخب فسكت الرنين قبل أن ألحق الرد.. ثم عاد مرة أخرى وهذه المرة أجبتُ.. جاءني صوت لمى ضعيفاً وهو محاط بالضجيج:

- آلو.. آلو هدى.. أين أنتما؟

يا إلهي هل أخبرت زينة كل من نعرفه عن مكاننا الليلة.

- نحن في بولفارد أندرسن بمحاذاة التيفولي. لا.. لسنا قريبتين من المتحف.

أنهيتُ المكالمة وأنا أنظر إلى زينة نظرة أودعتها لوماً وغيظاً.

بعد قليل جاءت لمى بصحبة هويليا.. اجتمعنا كلنا سوياً بينما بقي عماد واقفاً بعيداً عنا.. يراقبنا من طرف خفيّ.

www.aljsad.net

تفحصته لمى بتمعن عندما همست زينة بمن يكون. . أما هويليا فقد ألقت عليه نظرة سريعة ثم قالت:

ـ لستما لائقين ببعضكما.

ـ هويليا. . احتفظي برأيك.

ردّت زينة بغضب تهكمي.

بعد دقائق أطل علينا محمد وأخوه الأصغر يتعقبهما صديقان. . واتجهوا فوراً إلى عماد فسلّموا عليه. كان محمد قد تعرف إليه في السابق إلا أن معرفتهما ظلت سطحية. . ،ظن بأن زينة كانت حريصة على أن يتعرف أخواها بأخي وعلى أن تبقى في الوقت ذاته معرفتهم غير وثيقة تماماً.

عرفت فيما بعد أن زينة كانت ترسل رسائل من هاتفها إلى أخيها وأقنعته بالمجيء إلى حيث كنا. . لا أعلم ما الذي قالته له بالضبط، وكيف فسّرت له وجود عماد معنا. . على أن زينة لا تعدم التلفيق الذي يقترب كثيراً من الصحة. . في الواقع هي بارعة فيه.

اجتمع الشباب سوياً بينما وقفت الفتيات يرمقنهم على بعد خطوات.

فكرتُ، أين اختفى؟ فإذا به يظهر. . انتصب أمامي فجأة، كأنه سقط من سماء العام الجديد.

اتجه إلى حيث كان يقف بقية الشباب. . سلّم عليهم ورأيتُ محمد وهو يعرّفه بأخي. . ولم أكن أسمع ما يقولون. . بل لم أكن أريد أن أسمع.

www.aljsad.net

عندما اقتربت الساعة من الثانية عشرة اقتربت مجموعة الشباب منا.. غالبوا التلصص بنظرهم إلى الفتيات بسبب وجود إخوة لنا من بينهم.. تحاشت زينة ولمى النظرات الصريحة، بينما لم تهتم هويليا بوجودهم كثيراً.

في تمام الثانية عشرة جنّتْ الدنيا.. أصوات كثيرة وأضواء اختلطت بعضها ببعض.. أشرق ليل كوبنهاغن البارد فبدا نهاراً. الكل هاج وانطلقت صيحات الحماس من الجميع.. وحده تمثال «هانس كريستيان أندرسن» كان يجلس بلا حراك موجهاً نظره نحونا، غير مهتم بعام جديد يطل يراقب الجنون الذي فينا، ولعله يحاول عبثاً أن يستجمع خرافاتنا.

انتهت الليلة بالنسبة إلينا بسرعة.. وراح عماد يردد:

ـ يلا.. يلا.

كأننا قطيع يهشه.

ـ إلى البيت.

قالت لمى فجأة موجهة حديثها إليّ وإلى زينة:

ـ هويليا ستبيت عندي الليلة.. ما رأيكما؟

فكرة ممتازة.. جو بيتنا في مثل هذه الليلة المشحونة بالكثير واللا شيء في الوقت ذاته سيسلمني إلى الأرق والتفكير المضني وربما الكآبة أيضاً.. اتصلت بأمي.

ـ سأبيت عند لمى.

www.aljsad.net

صرخت أمي في هلع:

ـ أي لمى..؟

تأففتُ قائلة:

ـ رفيقتي.

قالت أمي بحزم:

ـ اسمعي.. ستعودين إلى البيت فوراً.

قلتُ بهدوء صرتُ أحاول أن أعوّدها عليه:

ـ أمي.. سأذهب.. الأجدر بك أن تنتشلي ابنك من أحضان القذرات قبل أن تحاسبيني على أمر عادي كهذا.

ردتْ بنبرة حادة:

ـ لا تكثري من الكلام.. عودي حالاً.

قاطعتها:

ـ ابنكِ موجودٌ هنا.. خذي كلّميه، وليوصلني بنفسه.

ـ عماد معكِ؟

قلتُ ببساطة:

ـ واحدة من قذراته دعته للقدوم.

ـ أعطنيه.

توجهت بسرعة إلى عماد، الذي كان ما يزال يقف مع من تبقى من مجموعة الشبان، وأعطيته الهاتف دون أن أنبس بكلمة ثم ابتعدتُ.

www.aljsad.net

في هذه الأثناء كان هو قد عاود الاختفاء.. وعلمتُ أني لن أراه مرة أخرى الليلة.

وكالعادة كنتُ قد اكتفيت.. فهمتُ من نفسي بعد ذلك أنها لا تحبّذ رؤيته لفترات طويلة.. ربع ساعة كافية تماماً، وإذا ما تعدّت رؤيته هذه الدقائق فإن نوبة من الخجل أو الضيق ستنتابني وسأهرب منه كما فعلت في السابق.

بعد دقائق كان عماد ومحمد يوصلاننا إلى بيت لمى.

جلستُ في السيارة مفترشة اللقطات التي جمعتها له في ذاكرتي.. لم يتغير على الرغم من أن امرأة صارت مطبوعة على جبينه.. لم يتغير أي شيءٍ فيه.. ثم خطر لي فجأة خاطر فملت على أذن زينة أسألها:

ـ أليس غريباً ألا تكون خطيبته معه في ليلة رأس السنة؟!

ـ منذ متى كان العراقيون يهتمون بالاحتفالات؟ ثم إنها ليست من كوبنهاغن، بل من «أولبورغ».

إذن هي من عراقيي أولبورغ.. يا للرجل، سيتزوج فلاحة.. آه، ولكنها عراقية!

لا يهم.. عراقية من مدينة أولبورغ.. حيث البعد عن كوبنهاغن، حيث الجزيرة الأخرى، حيث اللكنة الريفية، وحيث القلوب الدنماركية أكثر طيبة من أبناء العاصمة الأكثر استعداداً للتعنصر إذا ما راقهم ذلك.. عراقية من أولبورغ ستكون بالقطع فلاحة بامتياز.

يا للرجل المغامر..!

www.aljsad.net

لم يتغير.. هذا مؤكد. لربما تعتق العبق الذي يمتلئ به صدري لمجرد وجوده.

وتنبهتُ للمرة الأولى أن رؤيتي له تأتي دائماً شتائية. فهو رجل المواسم القوية، لا يحضر إلا شتاءً، فارضاً وجوده بالجسارة التي يفرض بها الشتاء نفسه. هذه المرة، كان لعبق وجوده طعم أكثر تركيزاً.. بمثل رائحة جذعٍ رطب لشجرة تقف مجرّدة في الشتاء الدنماركي القاتم.. بمثل رائحة التربة المهترئة التي تسجد عليها أمي.. بمثل رائحة القرفة في أواخر ديسمبر كوبنهاغن الحبيبة.

وتساءلتُ في نفسي: إن كان هذا ما يسرِّبه إليّ من عبقٍ وهو يقف بعيداً عني.. كيف تراه العبق الذي سيملأ به صدري إذا اقترب أكثر؟! كيف تراه سيملأني كلي، إذا اقترب!

* * *

حل شهر فبراير (شباط)، وحل معه الوقت الذي سنكتب فيه «البحث التحريري الكبير». كل طلاب السنة الثالثة يكتبون هذا البحث في الوقت ذاته، إذ إن الدرجة التي سنحصل عليها تدرج ضمن درجات الامتحانات النهائية. لأسبوع كامل، أظن أن الوزارة هي التي تحدده، نقضي الوقت في كتابة البحث مع حرية كاملة في أن نكتبه في المدرسة أو خارجها لأن الدروس اليومية تتوقف في هذا الأسبوع.

دون أن أفكر كثيراً اخترتُ كتابة بحثي في درس

www.aljsad.net

الرياضيات. . واختارت زينة أن تكتب بحثها في التاريخ وكان موضوعها عن دور المرأة أثناء الحرب العالمية الثانية.

الأمور المرتبطة بزينة طالما أثارت سخريتي لأنها لا تنسجم عادةً وشخصيتها. . تثير سخريتي لأقصاها، ثم ما ألبث أن أحب هذه التفاهات والتناقضات فيها لسبب لا أفهمه.

ذهبتُ وإياها قبل بدء أسبوع الكتابة ذاك إلى المكتبة الملكية لاختيار الكتب والمقالات التي سنعتمدُ عليها. ومع بداية الأسبوع سجنتُ نفسي في غرفتي أحلل وأشرح الأسئلة المطلوب مني الإجابة عنها أما زينة فكانت تدّعي أمام أهلها بأنها تكتب بحثها في المدرسة بينما كانت تقضي وقتها مع عماد في شقته في أورستيد. . ماذا كانت تفعل؟ أخبرتني عن ذلك. . بتفاصيل لم أكن أنتظرها.

كانت تذهب إليه من الثامنة صباحاً حاملة كتبها معها وقد حشرت بينها ثياباً منزلية لم تطلعني على مواصفاتها على الرغم من أني سألتها ذلك غير مرة. . توقظه من نومه بنقراتها على باب شقته الصغيرة فينهض ليفتحه لها فترمي بنفسها عليه كتحية صباح. . وتحضّر الفطور بينما يأخذ هو حمّامه ويخرج مرتدياً شورته الأحمر الذي تحبه.

ـ لا شيء غير هذا الشورت؟

أسألها.

تجيب بعد أن تدير عينيها كأنها تحاول أن تتذكر:

ـ لا. . لا شيء.

www.aljsad.net

في شقة عماد الصغيرة كانت تفترش زينة الأرض لتدرس، بما أن عماد هو الآخر كان يشغل نفسه بالدراسة. وأنا أعلم بعمادٍ منها، فالأوقات التي يدرس فيها مقدسة لديه، لا يمكن لأي كان، بأي حال من الأحوال، شغله عنها.. حتى وإن حاولتْ زينة أن تكلمه فإنه لن يستجيب. كان يتعمد تجاهلها لكي لا تتمادى في إلهائه، بل لقد أخبرتني ضاحكة أنه أعلمها بأنها إن لم تلتزم الهدوء أثناء انكبابه على دراسته فسيقذف بها خارج الشقة..
ابتسمتُ في سري مرددة بفخر:

ـ هذا أخي الذي أعرف.

أحياناً كانت زينة ترسل إليّ رسائل عبر الهاتف تطلعني على ما يحدث اللحظة.. مثلاً: «ملللللللللللللللل».. أو: «لم ينبس بكلمة لأكثر من ساعتين الآن».. أو: «ما رأيكِ أن أعاقبه بأن أذهب إلى البيت.. هل تظنينه يأبه ؟».

وهكذا كانت تتوالى رسائلها..!!

وحين كنتُ أبادر أنا بالكتابة، ما إن أقرر أخذ دقائق للاستراحة من كتبي وشاشة حاسوبي، كانت زينة لا تجيب.. هي التي لا يفارقها هاتفها ولا تتأخر عن الرد على أي رسالة.

وكنتُ أتصل بها معلّلة أنها قد تكون لسبب أو لآخر لم تسمع ورود رسالتي.. لكن هاتفها كان يرن دون مجيب.. وعندما كنت ألحّ كانت تغلقه نهائياً.

لأي سببٍ تغلق هاتفها عني!.. حين سألتها ردتْ بأن شحنه

www.aljsad.net

انتهى، وبالطبع لم أقتنع. سؤالي أصلاً كان إلحاحاً على استشعار وقاحتها ليس إلا.. فأسعد لمطاردتها بتمثيل دور الغافلة.. ذلك الدور المكشوف الذي كانت تعلم بأني أعتمده متعمدة، لكنها كانت كعادتها أكثر دهاءً مني.. فتتجاهلني فحسب.

حان وقت إعلان النتائج وكنتُ شبه واثقة بأن الدرجة التي سأحصل عليها لا بد أنها أعلى من درجة زينة.. لكن هذا لم يحدث. حصلتُ أنا على درجة تُعدّ أعلى قليلاً من متوسطة وحصلت زينة على درجة متفوّقة.

للوهلة الأولى صُدمت! كيف يحدث هذا وقد أجهدتُ نفسي طوال الأسبوع معتكفة في المنزل، بينما قضت هي وقتها في أحضان أخي.. كيف يكون هذا عدلاً؟!

ثم ما لبثتُ أن تفاديت الصدمة، في البداية مرغمة ثم بعد ذلك مقتنعة.. اقتنعتُ بأن الدنيا ليست بعادلة أصلاً فلماذا أنتظر منها ذلك؟!

الواقع ليس مثل دنيا الرسوم المتحركة التي أدمنتها في طفولتي الرتيبة، حيث الشر شر مطلق والخير خير مطلق.. الواقع ذائب، متهالك بنيانه بعضه على بعض.. طبقة من خير وأخرى من شر تنبعج الواحدة منها بالأخرى.. بنيان خرِب وقديم أكل عليه الدهر وشرب.

هي الحياة، وحسناتنا فيها في العيش وفقها دون التلوّث بغبار خرائبها.

***

www.aljsad.net

الوقتُ يمر، ليؤكد هو على استقراره في داخلي.. وجوده الذي أصبح دائماً ضايقني حين فوجئت بكونه لا يختفي من رأسي.. صورته مستقرة تماماً فوق أنفي.. وما من مفر!

الغريب أني إضافة إلى ذلك صرتُ أرى في وجه أغلب الرجال لمحة منه.. ولا أعلم لماذا تعدّد أشباهه هكذا، إلى درجة أصبحتُ فيها لا أخرج إلى الشارع أو أشاهد التلفاز إلا ووجدتُ من يشبهه.. ليس كثيراً، وإنما يشبهه إلى حدٍ ما.. أو يشبهه في شيءٍ ما.. لعله أنفه أو ربما شفته المعوجة التي أحبها أو نظرته المنسكبة من عينيه بسخاء.

لا أعرف كيف أوجَدتُ له أشباهاً في رجالٍ لا يمتّون بعضهم إلى بعض بصلة شبه فعلية على الإطلاق. بعد أن شبّهته بثمانين في المئة من الرجال الذين أقابلهم في الشارع وحتى الذين يطلون على شاشة التلفاز اكتشفت أنني أراه في أغلب الرجال.

بل أراه في الناس وفي الأشياء أيضاً.. شيء ما في هذه الشجرة يذكّرني به، مصابيح الشوارع، محطات الباصات، الثلج المتراكم عند عتبة الباب، كتبي المدرسية التي أبغضها وتلك التي أحبها أيضاً.

والأغرب أنه كان يستقر أكثر كلما كادت ملامحه تبهت وتبلى في ذاكرتي، ولا سيّما بعد أن بات لقاؤه متعذراً تماماً.

القدر الذي وضعه أمامي مرتين تتالتا بشكلٍ بهرني ثم مرة أخيرة جاءت بعد سنة كاملة، صار الآن يبخل عليّ بنظرة عابرة ولو على سبيل الصدفة.

www.aljsad.net

ولأني لم أكن من النوع الذي يُجيد الاسترسال في الحديث عن الرجال، ولأنه بات اليوم مرتبطاً اعتقدتْ زينة بأنه لا بد قد انتهى من حياتي. . فلم تعد تأتي على ذكره. وكان أمراً رائعاً أن تتركني وشأني. . مدهش أن أحتفظ به لنفسي وحسب.

مع نهاية شهر مارس (آذار) كتب لي توربن يقول بأنه قادم إلى كوبنهاغن لعمل ما، وفهمتُ أنه يطلب لقائي. . ترددت قليلاً في البداية، ثم خلصت إلى أن أحاول اختلاق أعذار كي لا ألتقيه.

لفترة طويلة بقي توربن صوتاً قادماً من الأثير. . وإن كنتُ قد استلمت منه صوراً فإني لم أعاين تطابق الشكل الذي في الصور مع الشخصية التي أعرف. . مذ تعرفتُ إليه وهو منفصل مجزّأ، فكيف أتقبّله كاملاً متكاملاً فجأة؟

ألن يكون صعباً لقاؤه وجهاً لوجه؟ لعلي سأكون بحاجة إلى الكومبيوتر للتواصل معه، فهكذا عودني.

حدّثني هاتفياً ليخبرني بصوته الضخم الكسول ولكنته المختلفة بأنه قد وصل إلى كوبنهاغن بالفعل، ثم حدد موعداً للقاء. . نلتقي الساعة الواحدة بعد الظهر تحت الساعة في محطة كوبنهاغن الرئيسية لكي نذهب للغداء ثم نمضي وقتاً معاً وربما ذهبنا في النهاية إلى الفندق حيث يقيم.

هكذا أخبرني ببساطة معتبراً موافقتي تحصيل حاصل. تحجّر الرفض في فمي. لم أقدر على النطق بغير كلمات أوافقه فيها

www.aljsad.net

على عرضه.. وربما خفتُ من فكرة القضاء على علاقتي به في حال تهربتُ من لقائه.

ليلة اللقاء نمتُ نوماً متقطعاً.. وكلما كنتُ أستيقظ من نومي كنتُ أردد لنفسي وعيناي ما تزالان مغمضتين: لماذا لم أرفض؟

ووجدتُ نفسي في الصباح أقوم مجهدة لآخذ حمّاماً بارداً، كعادتي بعد ليلة من الأرق.

ثم ارتديتُ ثيابي على عجل وأنا ألقي نظرات مرتابة على هاتفي النقال خوفاً من أن يبادرني توربن برسالة.. خوفاً من أن يخزني بمفاجأة ما.

قضيتُ نهاراً قلقاً في المدرسة حتى أن شهيتي غادرتني تماماً وأنا ما أزال أسائل نفسي لماذا أذهب للقاء رجل في الخمسينيات من عمره..! أهو تشبّث مني بمحادثته، بعد أن أدمنتُ البوح له.. يزعجني أن أتخيل نفسي دون رسائله ومقابلته على الماسنجر لساعتين أو ثلاث.

في الثانية عشرة والربع غادرتُ المدرسة، وبعد أكثر من نصف ساعة كنتُ أهبط في محطة كوبنهاغن الرئيسية.. وقفتُ قليلاً أتسكع على رصيف المحطة العريض، وصخب المكان يعكر مزاجي.. تمثلت الأصوات الكثيرة التي تحيط بي كجيش غفير من النمل يشق طريقه في صدري لينهشه ببطء. كم أبغض الضجيج.

التفتُ وصدري يضيق.. فرأيته..! ليس توربن.. بل

www.aljsad.net

صاحبي العراقي أسود الشعر. . ! دون أن أفاجأ لمرآه. . كأنه جزء من نظرة عيني. . حتى إن اختفى منها جسداً لبث فيها روحاً. . يمشي وحيداً على الرصيف المقابل، متجهاً إلى السلّم الكهربائي الذي يقود إلى الأعلى.

ودون أن أقرر صرتُ أهرول نحو الدرجات أقفز عليها بسرعة وأنا أصطدم بالناس ولا أعتذر. . لا تضِع في الزحام. . يا إلهي. . ! لا تدعه يضيع مني في الزحام.

صعدت إلى الأعلى فالتقطته عيناي من بين الجموع يتجه إلى الساعة التي تتوسط الطابق العلوي للمحطة. . انسقتُ وراءه بسرعة ثم ما لبثتُ أن تسمّرتُ في مكاني وأنا أراه يستقر واقفاً تحتها. إنه صاحبي. . مرتدياً «جاكيت» قاتم الزرقة لم يكن سميكاً كفاية ليقيه برد ذلك اليوم.

أخفتني الجموع تاركة لي مساحة لتفحصه. . لفاف أسود يحيط برقبته التي تتفرع منه كأنما على حين غرّة. . أتراه يغنيه برداً لفافه ذاك؟ ولماذا يمسح المكان بعينيه دون أن يتوقف عندي؟ كأنه يعرفني بالقدر الذي يجعله لا يحفل بي.

وبهدوء حنى رأسه قليلاً، وأزاح حقيبة متوسطة كان يعلّقها على كتفه اليمنى، تركها تتدلى خلف ظهره. ثم وضع كفيه في جيب بنطاله بينما انصبّتْ نظراته أرضاً. . قسمات وجهه كانت مرتاحة قليلاً كمن على وشك أن يُسهم. . أمر لا يتناسب وصخب المحطة الرئيسية على الإطلاق. . إن ضجيجها لا يترك لي مساحة لتخيّر القطار الذي أركب، فكيف تراه يسهم هناك؟

www.aljsad.net

ما الذي أتى بك؟ من ذا الذي أثار انتظارك؟

خوفاً من أن تقع عيناه عليّ، ويتساءل عن هذه التي تتابع حركاته الراكدة مثل بلهاء.. خوفاً من ذلك صرتُ أطوف حول الساعة أمشي ببطء تاركة مسافة كبيرة بيني وبينه.. أطوف حوله، هو الواقف في البقعة المباركة تلك، على بعد خطوات قليلة مني.. يفصلني عنه أمرٌ عظيم.

إعلان كينونتي..!

وكنتُ أبتعد، كلما قادتني خطواتي المتعرجة في طوفانها نحوه.. فأوسّع من دائرة الطواف حتى أضمن ألا يراني.

ليس بالأمر الصعب أن أتسكع أمامه لأغدو على الأقل صورة تسقط في ذاكرته من آلاف الصور اليومية.. لكنني أخاف فحسب. لا أجرؤ على أن أخطر بجسدي النحيل أمامه، جسدي عديم الأنوثة، ووجهي طفولي الملامح.. كيف أجرؤ على دعوة رجل بحجم رجولته لهذه المواصفات.

ونسيتُ سبب مجيئي.. كنتُ في الشوط الثالث حين نبهني إلى الأمر ظهور توربن الذي قدِم بخطى بطيئة من الباب الجنبي للمحطة ثم تسمّر تحت الساعة، طويلاً عريضاً، كأنه شتاء دنماركي جديد، ولم يكن صعباً علي التعرف إليه بعد أن شبعتُ من مشاهدة صوره.. لكنني خفتُ من أن يتعرف هو إليّ، على الرغم من أن جميع صوري التي أرسلتها كانت باهتة.

دلفت بسرعة إلى الـ «ماكدونلدز» الصغير الذي كنتُ لحسن حظي قريبة منه. وجلستُ إلى طاولة بقرب الحاجز الزجاجي،

www.aljsad.net

أتابع الرجلين في وقوفهما. ومن مكاني صرت مركزاً للرجلين بينما هما لا يرياني. . أحدهما واعدته رغماً عني، والآخر لم يكن وفياً بقدر ما كان اليوم، على الرغم من أنه لم يعرض عليّ قطّ وعداً أو لقاءً.

بعد دقائق قليلة انبثق من بين الناس شاب واتجه إليه. . تصافحا. وخلال لحظات اتجها إلى الباب الرئيسي. . وشيعتهما بنظري حتى غابا. ثم ابتسمتُ وأنا أعلن له في سرّي عن شكري العميق لمقدمه.

قمت من مكاني لأغادر دون أن أنظر ناحية الخمسيني المستمر في انتظاري. . تخيلته يتعرف إليّ من ظهري ويناديني ثم يركض خلفي، فصرتُ أهرول مبتعدة. . هرولت إلى الرصيف الذي يعود بي إلى البيت ونزلت السلّم الكهربائي بسرعة وأنا أردد هامسة لنفسي بطريقة آلية: حمداً لله. . حمداً لله.

لم أنتظر قدوم قطاري فقفزتُ إلى أول قطار توقف أمامي. . حماسة عارمة اجتاحتني. . طاقتي وحدها لم تعد تكفيني بل لكأن طاقة كهرباء العاصمة كلها قد أوصلت بي. ومن شدة الزهو والحماس لعنتُ القطار على سيره البطيء وما إن توقف في المحطة التالية في «دويبلسبرو» حتى قفزتُ منه، ورحت أركض وأركض أريد اللحاق بشيء لا أعرفه. . رن هاتفي. . لم أنظر فيه. . إنه توربن ولا شك.

... Run Forrest ... ruuuuuuun

www.aljsad.net

ركضتُ حتى خرجت من المحطة ثم صرتُ أهرول في شوارع كوبنهاغن العتيقة، الجميلة، الرتيبة، الشاحبة شحوب مارس كوبنهاغن.. ما الذي أريد اللحاق به ؟ لا أدري. لكنني هرولتُ طويلاً في «إنغرسلِيوس غاذه» الشارع القديم المطل على السكك الحديدية.. ولما لم تعد ساقاي تقويان على المزيد، أبطأت من هرولتي.. وكانت السكك الحديدية تبدو للمرة الأولى مغرية وأنا أطل عليها من جانب مختلف.. بدت لي مستبشرة بسرعتي وهي الأعلم بمقاييس السرعة.. بدت راضية وأنا أنال منها، هي الراكدة في المكان ذاته كأنما منذ الأزل، فلعنتها تباهياً بقوتي وتمادياً في طغياني.. كوّرتُ أصابعي حول باطن كفي وشهرتُ الوسطى.. شتمتُ السكك الحديدية، لعنتها، لعنتها.. أيا معبَّدَة الطرق، ويا مسيِّرة القطارات إني ألعنكِ، ألعن حديدك القوي وانسيابكِ المريح، ألعن قطاراتكِ المتناهية الرفاهية.. إني لا أحب القطارات..!! ألعنكِ لأنني أشاء.. فقط لأنه يخطر لي أن أفعل.

كانت هذه المرة الأخيرة التي أراه فيها.. آه، لا.. بل رأيته مرة واحدة بعد أشهر طويلة، خارجاً من «باو هاوس» في «سيتي تو» وبين شفتيه سيجارة، وهو يدفع أمامه بعربة كبيرة عليها شيء ضخم ملفوف، لم أتبيّن ماهيته.. وبرفقته رجل يتحدث العربية بلهجة لم أعرف أصلها. وكعادته مر من أمامي دون أن يتعثر بي.. وطفقتُ أنا أتبعه بعيني حتى اختفى بين السيارات في الكارج.

www.aljsad.net

ولبثتُ دون أن أراه زمناً طويلاً من بعدها. . إلا أنني كنت أسمع أخباره من حين لآخر.

أتعبتني مصادفاته واتسعت كوبنهاغن فجأة، مثل فم لمفترسٍ ضخم سرعان ما ابتلعته. . وضعه القدر أمامي بالقدر الذي جعله يطمئنّ لسكناه فيّ. . مرات قليلة، لكن كافية تماماً.

سنوات مرت مذ ذاك اليوم، حيث وقف هناك تحت الساعة، كأنما ليقرّ لي بشرعية الانتظار. . سنوات مرت، شعرت خلالها بحنين إليه مرات لم أحصها.

وكلما رمت بي المدينة إلى محطتها الرئيسية كنت أجد نفسي أقف تحت الساعة أنتظر لبعض الوقت، قبل أن أستمر في طريقي. . أنتظر وأنتظر. والسنوات تقحمني في ذل الانتظار أكثر، فأحاول أن أبتعد. لكن البقعة التي تحت الساعة كانت تغريني بالانتظار أكثر وأكثر، فأسارع لكي أقترب.

والحنين يراوح أنفاسي بين أنفي الذي يكتمها وبلعومي الذي يحشرها عنوة ليدفعها إلى داخلي. . وبصمات ملامح وقوفه في ذلك اليوم تتهادى في مسير الناس، تشحب فوق وجوههم، وتطغى عليّ. . تطغى عليّ. . تطغى عليّ، حد اليأس فأرحل.

لماذا لم يعد يأتي؟ لماذا لم يعد ليقف تحت الساعة؟

أتراه كَلّ من الانتظار؟! أم نال ما رغب؟! هل يعقل أن يكون ببساطة قد انتهى من الانتظار الذي يمارس تحت ساعة! أتراه اكتشف السخرية التي تفرضها علينا كوبنهاغن بأن تجعلنا ننتظر تحت ساعة، بدل أن نكون أمامها مثلاً لنتابع الدقائق التي

www.aljsad.net

تمر علينا في انتظاراتنا. . بدل أن نترك الساعة خلفنا مثلاً، لكي لا نعود نحفل بالدقائق التي تمر علينا في انتظاراتنا.

لكن كوبنهاغن لا ترضى بهذه القيم الانتظارية البالية. . كم هو مثير للشفقة أن ننتظر ـ نحن الكوبنهاغنيين ـ ونحن نعطي الساعة وجوهنا أو ظهورنا. . نحن سكان العاصمة الفريدة ولا بد إذن أن نكون على قدر تفرّدها.

هكذا شاءت لنا مدينتنا أن نفعل. . حمداً لها وشكراً.

كوبنهاغن، كثيراً ما اشتهيتُ أن أصفعك على روعتك. . ستسأليني ببرود:

ـ ولماذا الصفع إذن؟

وسأردّ:

ـ هذا لأنني عراقية. . والعراقيون يطلقون الشتائم على من يمدحون أو يحبّون.

ستردّدين ببرود:

ـ لكنّ الصفع ليس شتيمة.

وسأقول: أيا ساقطة. . ألم تفهمي بعد أني فقط أزداد عنفاً، لأن عشقي لكِ كبير.

* * *

بدأت الامتحانات النهائية وعدت أُغرق نفسي في الدراسة تهيّؤاً لها. . في التوقيت ذاته علمت بقرب موعد زفافه على

www.aljsad.net

خطيبته.. أخبرتني عنه زينة كالعادة بما أن أخاها كان مدعواً.

كان يوماً مشمساً، ولعله كان حارّاً، قضيته في غرفتي. كنت قد افترشت كتبي ودفاتري على سريري وجلستُ بينها أدرس دون كلل، لكن بملل فظيع كاد يلجمني عن المتابعة.

إحساسي في تلك اللحظات التي كان هو يحتفل فيها بزفافه على عروسه، كان إحساساً أجوف، فارغاً، لم أفهمه، للأسف، ولم تبلغني الفرحة لأسعد.. ولم أشعر بحاجة إلى الحزن لأحزن.

ولربما شعرت بشيء من الغيظ الذي انقض عليّ مع تفاقم ضجري، وأنا أعي التفاوت الكبير بين يومه ويومي.. بين ساعاته الحاليّة وساعاتي.. هو يرهق نفسه سعادة وأنا تهلكني الثواني.

جلتُ ببصري في ما حولي.. الصمت يلفّ المكان عنوة مغتصباً مني فرحاً لم أنله. وحين أدركت ما أنا غارقة فيه حتى أذنيّ من حقيقة قررت العودة لدفن وجهي بين الكتب.

وفعلت.. دقائق وعدت أرفع رأسي. مددت يدي إلى هاتفي وبلا تردد طلبتُ رقمه بعد أن حوّلت رقمي إلى خاص.. رن الهاتف.. رن، رن.. وبقي يرن وما من مجيب.

كنتُ أنتظر سماع تنهيدته الخفيفة قبل أن يجيب «بنعمه» التي أحبها، غير أنه لم يفعل.. لا وقت للرد على الهاتف اليوم.

وعندما حلّ المساء كنت قد أدمنت فراغ يومي ذاك فنمت باكراً.. نمتُ من الضجر.

حالما صحوت صباح اليوم التالي كان أول ما هجم على

www.aljsad.net

عقلي وذاكرتي هو يوم أمس.. عادة يحدث هذا معي حين يكون يومي السابق مثقلاً بالأحداث، فلماذا إذاً أصحو من نومي وذاكرتي مفعمة به؟ كأنني عروس أطبقت عليها معالم عرسها ولم تتخلص من كل بقاياه أثناء نومها.

قمتُ من فراشي بصعوبة وحالما لامست قدماي الأرض شعرت بآلام في باطنهما.

سرتُ ببطء وباطن قدمي يزيد في ألمي مع كل خطوة أخطوها.. ورأسي تجتاحه ضجة ودوخة سببتا لي صداعاً لا يتوقف.

بالأمس كان إحساسي بالفراغ مروّعاً.. شعرت كأن في داخلي تجويفاً قائماً بطولي.. لا كبد، لا قلب، لا كلية.. لا شيء إطلاقاً سوى الفراغ وشيء من الصديد. تمنيتُ حقاً لو أن الله يسقط عليَّ هماً أملأ به تجويفي الذي يتسع أكثر فأكثر.

بينما كنت أتنقلُ في المطبخ أصنع فطوراً لا أشتهيه.. كانت أمي هي أيضاً في المطبخ تحضّر شاياً عراقياً قاتماً لأبي.. وكعادتها صباحاً، كانت تشغّل المسجّل واضعة شريط قرآن فيه.

«إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ، وتلك الأيامُ نداولُها بين الناس».

أنا لا أفهم هذه اللغة.. الفصحى.. رباه إنها حتى أصعب من اللغة الفرنسية التي هي أيضاً تقلب الجمل فتضع الموصوف قبل الوصف.. لهذا السبب بالتحديد قررتُ التخلي عن اللغة الفرنسية بعد المرحلة الابتدائية، لأتخذ الألمانية بديلاً، فهي

www.aljsad.net

تشبهني أكثر.. إني لا أحبّذ اللغات التي تقدم الموصوف، لأنها تفاجئني بالوصف ملقية إياه لينفجر بوجهي مثل بالونة ماء.

«رجل متزوج».. رجل؟ ما به الرجل؟ إنه متزوج..! يا للمفاجأة!!

لا أحب المفاجآت، ولذا أراني أركن للغات التي تقدّم الوصف على الموصوف.. وتترك لي مساحة مراوغة.

«ضعيفة فتاة».. يااا.. مسكينة.. من الضعيفة؟.. الفتاة.. من؟ الفتاااااة..!

الفصحى.. تضحكني هذه اللغة.. أظن بأن العرب هم الوحيدون في العالم الذين يكتبون ويقرأون لغة لا يتحدثونها.. كأنما فقط ليصعّبوا على أمثالي من الذين لفظتهم أوطانهم تعلّم لغة الوطن.

حين عاد أبي خفضتْ أمي صوت المسجل، وحملت الإفطار إليه واختفت.

تركتني وحدي، أنصت باهتمام. أنصتُ دون محاولة للفهم.. ثم خشعتُ لِمْا فهمت.. ولما فهمتُ بكيت.

القراءة مستمرة.. تطول.. وأنا أستمع مغمضة العينين.. أبكي بصمت قلِق، خوفاً من أن تأتي أمي فجأة وتكتشف بكائي.

بكيتُ بحرقة، حتى وخزتني الدموع.. بكيتُ دون أن أفهم كل ما قُرِئ.

واكتشفت دهِشَةً ألاّ حاجة لمخاطبتي مباشرة لأشعر بأني

www.aljsad.net

معنية.. غريب أمري حقاً، لاسيّما وأنا أصلاً لم أفهم إلا نصف ما سمعت.. أما النصف الثاني فقد شوّشت بلاغته ومفرداته الصعبة على فهمي وإدراكي المحدودين.

ولمّا وجدتُ راحة عظمى في بكائي، صرتُ أبكي من الغيظ لأنني لا أفهم.. وأنظر إلى المسجل أستنطقه ترجمةً ما.. يا ربّ، لِمَ هذه اللغة في صياغاتها بصعوبة إدخال خيط في إبرة.. لِم الكلمات ترتسم على فمي ولا تنخر عقلي لأعيها؟!

والمفرداتُ هذه تقتنص من بكائي الكثير، فتتركه نصف بكاء، نصف وعي، لنصف فتاة، نصف امرأة.

* * *

توالت امتحاناتي.. امتحانان تحريريان وثلاثة امتحانات شفوية اجتزتها جميعاً بنجاح. وراوحت درجاتي بين متفوقة وفوق المتوسطة.

لم يتبقّ سوى الامتحان الأخير.. ما أن أنتهي منه وأخرج من غرفة الامتحان حتى تلبسني معلمتي قبعة التخرج من الثانوية.. قبعة بيضاء أشبه بقبعات البحارة، يحيط بها شريط أحمر دلالة على تخرجي من الثانوية، في حين يكون لون شريط خريجي الـ«هوو أف» أزرق.

قبل بدء الامتحانات كنا قد أحضرنا أنا وزينة وزميل دنماركي لنا في الصف لافتتين كبيرتين كتبنا عليهما «قبعة التخرج الحقيقية.. حمراء».. كتبنا ذلك باللون الأزرق عدا كلمة حمراء التي اخترنا كتابتها بالأحمر، نكاية في طلاب الـ «هوو أف.»..

www.aljsad.net

علقنا واحدة في الكانتين، وأخرى في القاعة الرئيسية. . فكان طلاب الأشرطة الزرقاء يمرون بها ويصرخون محتجين أو يشتمون ساخرين أو يفتعلون قيئاً وهمياً.

في يوم الامتحان الأخير ذهبتُ إلى المدرسة وحدي. كانت المدرسة قد بدأت تعج بأهالي المتخرجين وقد عاد إليها ضجيجها الذي تخلت عنه أيام الامتحانات.

دخلت إلى الإمتحان وأنا أتنهد متعجبة من السرعة التي سار بها الوقت. هكذا. . بعد ثلاث سنوات مفعماتٍ بشبابي، ها أنا ذا أجلس للامتحان الأخير وأنا قاب قوسين أو أدنى من القبعة ذات الشريط الأحمر.

خرجتُ من غرفة الامتحان لكي تتداول مدرّستي والمدرّس المختبر درجتي. . فوجدتُ أهلي بانتظاري في نهاية الردهة. . ابتسمتُ لهم بارتباك. ثم عادت مُدرّستي تستدعيني لتخبرني بالدرجة التي حصلتُ عليها. . كانت درجة متفوقة! هلّل الواقفون لي وهي تلبسني القبعة التي اخترتُ لها أن تكون ذات هلالٍ صغيرٍ في المقدمة بدلاً من الصليب الذي عُرفت به. . احتضنتني مُدرّستي مباركة وابتسامة كبيرة تشق وجهها العبوس، هي التي لم تبتسم في وجوهنا إلا ما ندر.

ثم توالت مباركة أهلي. . أبي، أمي، عماد، نخيل وزوجها باسل وأطفالهما. . كلهم كانوا هناك بعض زملاء الصف ممن ينتظرون دورهم أو من أولئك الذين كانوا قد لبسوا قبعاتهم مسبقاً كانوا أيضاً هناك ثم كأنني وقعت فجأة في حضن زينة التي ألقت

www.aljsad.net

في وجهي بباقة ورد. نظرتُ إليها بحب. متغافلة عمّا تناهى إلى مسمعي مؤخراً، وهو نية عماد التقدم لخطبتها بعد تخرّجنا مباشرة. . تناسيت ذلك فحسب. . وابتسمتُ لها وأنا أراها مرتدية قبعتها فوق إيشارب بلون الشريط. ثم كدتُ أُدفن تحت باقات الورود التي حُملت إليّ.

كان يوماً مفرحاً بحق.

وعلى الرغم من أن هذا التقليد السكندنافي البحت ليس من أصل عاداتنا. . تلقفناه بفرح غامر ومارسناه بحرفية عالية. نحن القادمون من تحت ظلال النخيل احتفينا وهللنا في اليوم الذي يعدّه بنو الثلوج التقليدَ الأهمّ في حياة أبنائهم المراهقين. . هل لأننا تأقلمنا لدرجة الشغف بتقاليدهم؟!

حسناً، لا أظن ذلك. لكننا أحياناً يحلو لنا أن نحتفل، نحن الذين لا نعير الاحتفالات كثيراً من الاهتمام.

يوم السبت الذي تلا تخرجي كان يوم احتفال المدرسة بنا ليبدأ من بعده احتفال الطلبة. آخر يوم لنا في هذه المدرسة.

دخلنا القاعة الكبيرة التي جلس فيها الأصدقاء والأهل صفاً تلو آخر، بقبعاتنا البيضاء ذات الأشرطة الحمراء والزرقاء، وبثياب تواعد أغلبيتنا أن تكون بيضاء اللون. ونادوا علينا لنتسلم شهاداتنا طالباً تلو آخر.

ومن ضمن فقرات الحفل غنينا جميعاً، متخرجين وحضوراً، أغنية «لارس ليلهولت» الشهيرة «سمِّه الحب» .

لعل من أهم ما تعلمته كدنماركية غير أصلية هو أن أغني في

www.aljsad.net

كل مناسبة. ولعل من أجمل الصفات في الدنماركيين أنهم يغنون بمناسبة وبدون مناسبة.

رغم أن غناءهم لا يحمل بالضرورة شجناً كالذي ننشده في غنائنا، ورغم أنه يصاحب لغتهم الفقيرة أدبياً إذا ما قورنت بلغات أخرى، فإنه غالباً ما يكون متكاملاً.. ويهذب لغتهم العنيفة اللفظ، فيتفتح منها سحر مفاجئ.. أشعر بذلك أنا التي أتحدث اللغة بطلاقة، لكنني أراه أيضاً في عيون أبي وأمي، رغم لغتهم الدنماركية الضعيفة جداً.

حملنا أوراقاً من الكارتون كتبت عليها الأغنية وصرنا نغني:

سمِّه الحب.

سمِّه ما تشاء.

أوه أووواه.. لا توجد كلمة.

لا توجد كلمة تصفه تماماً.

وإذاً، سمِّه ما تشاء.

لا تخبرني عمّا ينبغي لي فعله.

أخبرني عن نفسك إن كنت تجرؤ.

أعطني حرية الخيار.. أعطني قلباً أتلمسه.

أعطِ فرصة للحديث قبل أن تذهب.

صمتك لا يترك فرصةً ما.

نحن الإثنان يمكننا التغلب تقريباً على كل شيء.

www.aljsad.net

ما عدا ذلك الذي لم يقلْ حقاً.
لا تأخذني كأسير.. خذني كلي وليس نصفي.
كي أحب بحق، ينبغي أن أكون عارياً.
الحلم الذي يبقى حلماً، لا بدّ أنه كذبة.

دعني أبقَ قليلاً مع نفسي.
أريدك، رغم كل شيء.
لكنني أريد هدية.. دون فعل.. دون دَين.
من السهل أن ننتقل من الحب إلى الكراهية.
إذاً دعنا نجرب أن نفصل أحدهما عن الآخر.

سمِّه الحب.. سمه ما تشاء.
أوه أوووااااه.. لا توجد كلمة.
لا توجد كلمة تصفه تماماً.
وإذاً سمِّه ما تشاء.

أخيراً التقطنا صوراً جماعية، كل صف على حدة.. ومن ثم انطلقنا إلى السيارات المزيّنة التي وقفت تنتظرنا في كراج المدرسة.. سيارات كبيرة مفتوحة أشبه بسيارة «بيك أب» ضخمة ولها أعمدة. وقد جرت العادة أن تطوف هذه السيارات بالمتخرجين شوارع المدينة متوجهة إلى منزل كل طالب في

www.aljsad.net

الصف.. ليقضوا عنده بضع دقائق، وينطلقوا بعد ذلك إلى الطالب اللاحق.

كان يوماً مشمساً، هبّت خلاله نسمات نديّة، حالما صعدنا إلى السيارات التي انطلقت تطوف بنا.. وكان زملائي من حولي يصرخون ويعربدون قافزين في السيارة الكبيرة التي ضمتنا.. كل شيء كان يحتفي بنا في ذلك اليوم .. حتى الجو المشمس اعتبرته احتفاءً بنا.

كانت السيارات التي تمر تطلق أبواقها.. والمارة يلوّحون، وبعضهم يصرخ «مبروووووك».. صحيح أن قلّة من المارة كانوا يرفعون إصبعاً يشتموننا به، دون أن ندري لماذا، إلا أن ذلك لم يفسد فرحتنا ولم يقلل قط من تهليلنا الذي لم يهدأ لساعات.

زرنا بيوت الجميع فرداً فرداً.

وحين حل موعد زيارة بيتي.. وجدتُ أمي وأبي وقد أعدّا البيت لاستقبال لائق.

وتلقفت أمي زينة مسلّمة عليها سلاماً حاراً وخاصاً جداً، ولا سيما بعد أن حُدد موعد الخطبة رسمياً.

سبق أن قلت بأن زينة كلفتني الكثير لأتخلص منها.. حقاً كلفتني أخاً بشحمه ولحمه.

وها أنا ذا اليوم حرة منها بعد أن ركلت باب بيتنا بقدمها لتتربع عندنا، زوجة لأخي.

ولأنها باتت من أهل البيت، فقد تركت لها مهمة خدمة الضيوف وصعدت إلى فوق لأغسل وجهي.. نزعتُ عني

www.aljsad.net

إيشاربي وصرت أغسل وجهي الخالي من التبرج. . ثم كأنني تذكرتُ شيئاً. أخرجتُ هاتفي النقال، ولكني ترددتُ أمامه قليلاً فوضعته على المغسلة، وعدتُ لغسل وجهي. ثم تناولت الهاتف مرة أخرى، ودون تردد اتصلتُ به. . سمعتُ تنهيدته الخفيفة التي تعوّدتها قبل أن يجيب:

ـ نعم.

ابتسمت. . ابتسامة كبيرة رقصت لها عيناي. . وانتظرتُ لأسمع نعماً أخرى، لكنه بقي ساكتاً. . ولبثتُ أستمع إلى صوت أنفاسه المتسائلة.

هل تضايق من لعبتي السخيفة هذه، ولا سيّما وأنني أرهقته بها بعد أن تعودت الاتصال به من حين لآخر؟ أحياناً كنت أتصل به عشر مرات يومياً، لم أحلم فيها بمحادثته. كانت مسألة أن أتحدث إليه مسألة مفروغ منها. . بالقطع لن أفعل. . كنت أسمح لنفسي بهذه المعاكسات الصامتة بضمير مرتاح.

لكن يبدو أنه بدأ يفقد صبره، لأنه غمغم فجأة:

ـ من. . من هذا. . ألن تنتهي هذه الحماقة؟!

ثم قطع الخط. . بدا من صوته أنه قد سئم ما أفعله به.

لم أتعوّد صوته فحسب بل تعودت الابتسامة التي ترتسم على شفتيّ رغماً عني كلما سمعت تنهيدته التي يبتدئ بها إجابته على الهاتف.

هه. . نعم. . ! هه. . نعم. . !

كيف لي إلقاء كل هذا الترف عني؟

www.aljsad.net

عاودتُ الاتصال.. لم يتكلم.. حتى لم يَقُل نعمه.. لدقائق لبثت أستمع إلى صمته العنيد، وإلى شيء من تردد أنفاسه.. ثم فجأة تكلم.. باغتني فارتعبت، ثم تماسكت لأسمعه يقول بالدنماركية:

ـ طيب.. كما تشاء.. سأضع هاتفي عني وأتابع عملي.. من الآن فصاعداً سأفعل هذا في كل مرة حتى تنتهي.

وسمعت خشخشة، كأنه يضع هاتفه عنه فعلاً.. كان يبدو منزعجاً جداً، رغم محاولات صوته افتعال الصبر والهدوء.. وحاولت أن أتمرد عليه.. لدقيقتين استمعت إلى الفراغ وكبست من بعدها على الزر الأحمر في يأس.

ارتديت إيشاربي من جديد، ثم توجهت إلى غرفتي بسرعة، غير عابئة بالأصوات الصاخبة التي تملأ البيت.. جلست امام المرآة وتناولت كحلاً أسود وحددت به عيني السوداوين.. وبالغتُ في تحديدهما.

عيناي يقال عنهما عربيتان.. قيل لي بأن العيون العربية واسعة ودكناء.. هكذا عيناي أيضاً..!

فليبرزا إذن.. لم يعد يهمّني أن أخفي ذلك.

انطلقنا مجدداً لزيارة منازل البقية من الطلاب.

أمضينا ساعات على هذا المنوال حتى حل العصر وكنت قد بدأت أتعب.. استندت بمرفقي إلى حافة من عمود السيارة وملت بنصفي العلوي خارجها.. وقتها كانت السيارة تواصل

www.aljsad.net

تجوالها مارة بمركز المدينة.. أحبّ مكان إلى نفسي فيها.

«ستروغيت» المزدحم.. ساحة البلدية التي أفضّل اعتبار ألاّ أفق لها رغم أن كلها آفاق.. تمثال «هانس كريستيان أندرسن» الرابض هناك في طرفها بملامحه الطيبة ونصف ابتسامته الرقيقة ونظرته الباهتة.. التيفولي يبعث بذكريات طفولية صاخبة كلما مررت به.

كوبنهاغن مدينة تتجمع فيها مزاياها في مكان واحد.. تناسبني تماماً، فلستُ بحاجة إلى القفز من مكان لآخر إذا ما اشتقتُ إليها.. حين أريدها أجرعها مرة واحدة.

وسعادتي يومها بدأت تكتمل حقاً.

اختلاط نسمات باردة بحرارة شمسٍ نادرة.. نهار صيفي طويل لا ينتهي إلا ليبدأ.. وآيات من ليالٍ منيرة.. من ذا الذي ادعى أن اللون الأسود أساسي لرهافة الليل ورقّته؟ هُراء.. رهافة الليل في وقته لا في سواده.. وإذا كان لا بدّ من اللون الأسود فإن سواد شعري يكفيني، فأنا أنانية في ما يخص متعتي.. يغريني أن أقفل عليّ باب غرفتي لألبث وحدي، ثم أترك شعري ينسدل ليتغلغل لونه الحالك السواد في ليلة بيضاء من ليالي كوبنهاغن.. ويتركني وهي ننصهر معاً قمة البياض في لجّ السواد.. فهكذا أنا، صنيعة ليلة بيضاء.

هذه المدينة مدينتي.. لي قدرة عجيبة على أن ألمّها كلّها في قبضتي.. ولها قدرة عجيبة على أن تبتكرني وتخلق مني المرأة التي صرتها.. كل يوم تعجنني المدينة ثم تشكّلني، وهي

www.aljsad.net

كعادتها تتقن عملها.. كيف أنسى لها ما غذتنيه.. حبي، يأسي، ألقي، وغضبي.. أنا التي نهلتها صغيرة، وعكّرتها مراهقة وها أنا أرتويها شابة. شوارعها تقبل عليّ، شارعاً شارعاً، كلها تعرفني مِن قبل أن تراني، ويخيّل إليّ دائماً بأن الشوارع هنا أكيدة مني حتى قبل مولدي.

نظافة شوارعها من نظافة روحي.. ودنس عري ملاهيها من دنس خطيئتي. في هذه الشوارع أرى زهوَ أصلي.. في أنوار «ساحة البلدية» بُقع ضوء كثيرة مسلطة على جُلّ حياتي.. في قِدم بناياتها تاريخ ليس لي ولكن قد يكون.. الماضي يولّي بنفائسه لكنه يخلّف لنا التفاخر بها. وعلى الرغم من أني أخاف مضيّ الوقت بسرعة، أجدني أستعجله فقط لأرى كيفية انتقالي حتى أستحيل ما سأستحيله.. وأستحق ما سأستحقه.. وأتساءل: هل أستحق وقتها أن تعشقني مدينتي.. على الأقل رداً على عشقي.

بعد أن طوى ذلك اليوم الحافل والطويل صفحة من حياتي، عدتُ إلى المنزل لأدخل من الباب الخلفي عبر الحديقة الخلفية.. كانت شجرة التفاح اليتيمة تقف منتصبة في حديقتنا مثل ماضٍ لا يكلّ عن التذكير بنفسه.. تذكرتُ أننا نادراً ما قطفنا تفاحاتها.. وكدتُ أمد يدي لألتقط واحدة وأنا أتساءل عن السبب الذي يدعونا لعدم قطف التفاح.. لكنني لم أفعل.. فلتهبط التفاحات بنفسها إلى الأرض.

www.aljsad.net

www.aljsad.net

(١٩)

ها أنا قد حسمت أمري واتخذت قراري. . لن أبقى رهين فصولها وعشقها المبتور.

وأرى أني قد بدأت أشتاق إلى حياتي قبل أن تخترقها هدى. . أشتاق إلى همومها التي أعرفها وأعرف كيف أعاركها. . أشتاق إلى يومي الذي كنت أعرف ما ينتظرني فيه، من طعامي وملبسي، من متعتي وتعبي، من راحتي وتململي.

وأعرف المرأة التي أعيش وإياها والناس الذين أخالط. . وأعرف تماماً أي شارع تختبئ فيه الشرطة لكي تلتقط الصور لكل سائق يزيد من سرعته. . وأعرف تماماً متى أخفف من سرعتي ومتى وأين أتهور.

لكنني أيضاً أعرف أن الحب يجيء مرة أو مرتين في العمر، وأننا إذا لم نكن على قدر توقعاته منّا فإنه سيرحل دون رجعة. . وأعرف أيضاً أنني ليس في استطاعتي أن أراهن على حب أرعن الآن، أقلب على أثره حياتي رأساً على عقب. . أظنه قد فات

www.aljsad.net

الأوان، ولم يعد في مقدوري تحمل عواصف حب مجنون.

ولا أدعي القوة أو النزاهة وأنا مُقبِل على حب كهذا لأجعل منه هباءً منثوراً.. لأنني في الواقع أجد في نفسي ضعفاً كبيراً وأنا ألقي عني كل هذا العشق.. وأحياناً، حين يسرح بي التفكير، أتساءل: تراها الحياة تحترمني وهي تقدم لي نفسها فأجبن عن اقتناصها؟

أن تحب امرأة لا يعني أنك تحبها وحدها فحسب، فتمارس أنانية فائقة وتشبع شهوات نرجسية فيك.. لا يعني أن العالم سيفقِدك حين تضيع بين طيات شعرها أو تفقد وعيك بين شفتيها.

بل إنك حين تحب امرأة ستتعلم كيف تزرع في الحياة حياة.. وحين تحبك امرأة ستعرف كيف تنبت من الحياة حياة.. وحينها تطمئن إلى أنّ في يدك أن ترمّم الكون إذا تصدّع.

غير أني لا أجد في نفسي المقدرة.. وأتعلل بالكثير من الأعذار، وكلها تبدو أكثر من مقنعة.

أنا وحدي أخالف قناعتي بإبعاد هدى عني.

وهي لا تتوقف.. تستمر في إرسال فصول جديدة.. أرسلت ثلاثة، شرعتُ في قراءة أولها ثم توقفت عن القراءة ولم أشرع في الترجمة.. لماذا تستمر؟ ومتى ستنتهي؟!

وقد وجدتُ بأن عليّ أن أنبهها للقرار الذي اتخذتُ.. اتصلتُ بها لأجد هاتفها مغلقاً.. وهي مختفية عن عالم الأنترنت منذ أيام. كتبتُ لها رسالة أسألها فيها أن تفتح هاتفها، أو تتصل بي لأمر طارئ. هاتفتني بعدها بيوم.. تكلمتْ وفي صوتها وهنُ امرأة لا مرح فتاة:

www.aljsad.net

ـ رافد، ماذا هناك؟

ـ قابليني.

ـ لا أقدر.

ـ ستفعلين.

ثم قاطعتها قبل أن تردّ:

ـ مقهى «ديفيرسو» في «روسين أورينس أليه».. الساعة التاسعة مساءً.

وضغطت على الزر دون أن أسمع جوابها.

التاسعة مساءً.. هل تأتي؟ لا مواعيد صباحية بعد اليوم.. لكنها ستأتي حتماً..!

ذهبتُ وانتظرت مجيئها عبثاً. اتصلتُ بها مراراً. فكان هاتفها يرن دون مجيب.. لو أنها ردّت لصرختُ وصرختُ لاعناً اليوم الذي تعرفتُ فيه إليها.. متناسياً اللياقة والأدب اللذين يفترض أن أحادث بهما امرأة.. وكلّمتها ندّاً لندّ.. رجلاً لرجل.

لكنها لم ترد..! جنّبتني ثورة كنت لأندم عليها سريعاً.

فكرتُ أن أترك لها رسالة.. ثم عدلتُ.

في طريقي إلى البيت، بدأت أشعر بهدوء يتسلل إليّ أنكرته لوهلة.. ودخلتُ لأجد شذى تجلس أمام التلفاز، فهويتُ إلى جانبها بثيابي كاملة.. قالت:

ـ لماذا دخلتَ بحذائك؟

www.aljsad.net

لماذا تسألني بدل أن تأمرني؟ «اخلع حذاءك». . لماذا لا يقلن ما يشأن دون مراوغة؟!

قمتُ متثاقلاً. . أبدلتُ ثيابي ودسستُ رأسي تحت الوسادة. . ولم أنم.

جاءت شذى بعد أكثر من ساعة، وتمددت بجانبي. . وغطّت في نومها وأنا ما زلت مستيقظاً.

فجأة، سطع في الغرفة نور هادئ. . كان هاتفي النقال الذي كتمتُ صوته قبل محاولات النوم التي باءت بالفشل. . نظرتُ فيه. . فإذا رسالة منها. . كتبت بالعربية لكن بأحرف لاتينية:

ـ أتمنى ألا تكون نائماً.

أجبتها:

ـ لست كذلك.

ـ أرسلتُ لك رسالة على بريدك. . ولم أستطع النوم.

قمتُ من مكاني متجهاً إلى الغرفة الأخرى وأنا أرد كاتباً:

ـ انتظرتك في المقهى.

ـ لم أعد بالمجيء.

فتحتُ حاسوبي. . وأنا أكتب لها:

ـ أنا على وشك قراءة رسالتك.

وجدتُ رسالة فارغة مع ملف «وورد» يحمل عنوان (سبعة فصول). . جلتُ بعيني في الغرفة بخيبة أمل كبيرة.

سبعة فصول. . سبعة فصول جديدة مرة واحدة. . !

أشعلتُ سيجارة وجلستُ أمام الحاسوب أطالع الملف دون أن أفتحه.

www.aljsad.net

أخرجتُ الفصول الثلاثة التي أرسلتها سابقاً. . ووضعتها أمامي، هنا عشرة فصول أنوي هجرها.

فاجأتني رغبة عارمة في أن أقرأ آخر فصل من الفصول التي أرسلَتها تواً. . فتحتُ الملف وشرعت في قراءة فصلها العشرين. . نفثتُ دخان سيجارتي وأنا أغالب ابتسامة بدأت ترتسم على شفتي.

وكأنني لا يمكنني أن أفهم نصاً إلا حين أنقله من لغة إلى أخرى، قرّبتُ قواميسي منّي وأنا أفكر. . إذا كان هذا فصلها العشرين فعلى ماذا تراها تنطوي بقية الفصول؟

بي رغبة جامحة في أن أترجم هذا الفصل بالذات كأنني أريد أن أقُنع نفسي بنهاية ستُنسج يوماً.

كتبت هدى:

«الفصل العشرون»

لا أطمئن إلى الصدف ولذا أردد دائماً بأني لا أؤمن بها. . لكنني أعشق في هذه العاصمة قدرتها الفائقة على أن تجعلنا نصدّق ما نكفر به. . والغريب أننا نستمر في كفرنا وإيماننا معاً مع وعينا التام بهما.

هناك كان يقف. . ذلك هو الإيمان. . وهنا أقف أنا. . بعيدة عنه. . حسناً، هذا هو الكفر. . ! بقسمات جدية، كأنه على وشك قرار حاسم، يقف. . يرتدي ثياباً لا تقيه الصقيع. . كأني به يلجّ في عناد المدينة المثقلة بالثلج.

خيّل إليّ أن ثيابي الثقيلة تحميني من الارتماء المباغت في حضنه. . ليته إذن يلسع من البرد ويعير الثلج الذي يحيطنا شيئاً من

www.aljsad.net

اهتمامه، وينتبه لكونه سيتجمد بثيابه الخفيفة هذه. . ليته ينتبه إذ لعله حينها يرتمي في حضني.

ربما أملاً في ذلك اقتربت منه دون أن أفكر فيما أفعل. . وهو منهمك في ملء خزان وقود سيارته. . كعادته لا ينتبه لوجودي مهما اقتربت منه. . ولذلك اضطررتُ لمناداته:

ـ رافد. . !

التفت إليّ. . في عينيه استفسار، وتحت عينيه لون التعب. . وشفتاه جافتان. . وأنا أعلم ما تعنيه أن تجفّ شفتا رجل. . فالرجال لا يتبنون المظاهر الخادعة التي نجيدها نحن النساء. . رجل تجف شفتاه يعني أنه يعاني جفافاً في حياته بأسرها. . مثير للشفقة ألا تكون له حياة يستحقها!

تقدمتُ منه خطوة. . اقتربتُ كثيراً، وشممتُ عطراً تعتّق على ثيابه وخِيط من رائحة سجائره.

هز رأسه.

وضعت كفاً على صدري وقلت كأنني أحدد موقعي كي لا تتيه عيناه بحثاً عني:

ـ أنا هدى.

. . . .

. . . .

. . . .

www.aljsad.net

www.aljsad.net

حين تلقّى رافد رسالة هدى التي تطلب فيها أن يترجم رواية لها من الدنماركية إلى العربية، فوجئ بأنها تعرفه معرفةً راحت تطلعه على تفاصيلها تدريجياً. هكذا تتداخل فصول روايتها مع روايته هو لتلك العلاقة العاطفية التي نشأت بينهما عبر البريد الإلكتروني.

رواية تحكي تجربة حب بين المراهقة التي ولدت في كوبنهاغن لأبوين عراقيين، والرجل الناضج الذي دفعته ظروف العراق للهجرة إلى الدنمرك.

حوراء النداوي كاتبة عراقية. غادرت العراق مع الأسرة في سنّ السادسة لأسباب سياسية. نشأت في الدنمارك وتعلّمت اللغة العربية في المنزل. تسكن حالياً في لندن.

ISBN 978-1-85516-550-2

9 781855 165502 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.alfsad.net